طوق الحمامة

في الألفة والألاف

تأليف

أبي محمد علي بن حزم

الأندلسي

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

طوق الحمامة
في الألفة والألاف

طوق الحمامة

في الألفة والألاف

تأليف

أبي محمد علي بن حزم

الأندلسي

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

كلمة الناشر

تعود قراء العربية أن يروا « دار مكتبة الحياة للنشر » سباقة في ميدان نشر الذخائر ، مجلية في مضمار اظهار التراث ، فقرأوا لها في مدة وجيزة : كتاب « مجمع البيان في تفسير القرآن » للطبرسي وكتاب « الأغاني » لأبي الفرج الاصبهاني وكتاب « محاضرات الأدباء » لأبي القاسم حسين محمد الراغب الاصبهاني و « مجمع الأمثال » للميداني و « شرائع الإسلام » للمحقق الحلي ، وكتاب « صورة الأرض » لابن حوقل و « طبقات الأطباء » لابن أبي أصيبعة و « شرح نهج البلاغة » لابن أبي الحديد . عدا عشرات الكتب الأخرى . وأصبح معروفاً عن هذه المؤسسة أنها تحمل الأعباء الثقال ، وتبذل التضحيات الكبار غير عابئة بما تعانيه من المشاق ، ولا ملتفتة الى ما تكابده من عناء في سبيل تيسير أغلى النفائس العربية للقارىء العربي ومن أجل هذه الغاية ، وفي سبيل الهدف ، أنشئت الدار ، ووضعت أول لبنة فيها ، وصدر عنها ما صدر من كتب التراث العربي الخالد.

والآن ، وتمشياً مع النهضة الثقافية التي تعم بلاد العرب ، مشرقاً ومغرباً ، رأت الدار أن تعهد الى لجنة من الأدباء والمحققين ، بالإشراف على اخراج طائفة من نوادر المصنفات ولطائف الرسائل والكتب والمؤلفات للمشاهير والعظماء من أئمة الأدب والتاريخ والشعر والبيان . وكان في مقدمة هذه المؤلفات كتاب « طوق الحمامة » وهو كتاب أشهر من أن يعرف لكونه فريداً من نوعه في المكتبة العربية .

وتجدر الاشارة الى أن بين يدي اللجنة ثبت حافل بالمصنفات التي ستعمل على اخراجها على التوالي . والله تعالى هو الموفق والهادي والنصير .

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه أستعين

قال أبو محمد عفا الله عنه أفضلُ ما ابتدي به حمد الله عزّ وجل بما هو اهله ثم الصلاة على محمد عبده ورسوله خاصة وعلى جميع انبيائه عامة وبعد عصمنا الله وإياك من الحيرة ولا حمّلنا ما لا طاقة لنا به وقيّض لنا من جميل عونه دليلًا هادياً الى طاعته ووهبنا من توفيقه أدباً صارفاً عن معاصيه ولا وكلنا الى ضعف عزايمنا وخور قوانا ووهاء بنيتنا وتلدّد أرآينا وسوء اختيارنا وقلة تمييزنا وفساد اهوائنا فإن كتابك وردني من مدينة المرية الى مسكني بحضرة شاطبة تذكر من حسن حالك ما يسرني وحمدت الله عزّ وجل عليه واستدمته لك واستزدته فيك ثم لم ألبث أن أطلع على شخصك وقصدتني بنفسك على بعد الشقة وتنائي الديار وشحط المزار وطول المسافة وغول الطريق وفي دون هذا ما سلّى المشتاق ونسى الذاكر الا من تمسك بحبل الوفاء مثلك ورعي سالف الأذمة ووكيد المودّات وحق النشأة ومحبة الصبي وكانت مودّته لله تعالى ولقد أثبت الله بيننا من ذلك ما نحن عليه حامدون وشاكرون وكانت مغازيك في كتابك زايدة على ما عهدتهُ من ساير كتبك ثم كشفت الي باقبالك غرضك واطلعتني على مذهبك سجيةً لم تزل علينا من مشاركتك لي في حلوك ومرّك ومرّك

وجهرك بحدوك الود الصحيح الذي أنا لك على اضعافه لا ابتغي جزاءً غير مقابلته بمثله وفي ذلك أقول مخاطباً لعبيدالله بن عبد الرحمن بن المغيرة ابن أمير المؤمنين الناصر رحمه الله في كلمة لي طويلة وكان لي صديقاً :

أَوَدُّكَ وُدّاً لَيْسَ فيه غَضَاضَةٌ ... وبَعْضُ مَوَدَّاتِ الرِجالِ سَرَابُ
وأَمْحَضْتُكَ النُصْحَ الصَريحَ وفي الحَشَى ... لوُدِّكَ نَقْشٌ ظاهِرٌ وكِتَابُ
فلو كَانَ في رُوحي هَوَاكَ اقتَلَعْتُه ... ومُزِّقَ بالكفَّينِ عَنْهُ إِهَابُ
ومَا لِيَ غَيْرُ الوُدِّ مِنْكَ إِرَادَةٌ ... ولاَ في سِوَاهُ لي إِلَيكَ خِطابُ
إذا حُزْتَهُ فالأرْضُ جَمْعَاءُ والوَرَى ... هَبَاءٌ وسُكَّانُ البِلادِ ذُبَابُ

وكلفتني أعزك الله ان أصنف لك رسالة في صفة الحب ومعانيه واسبابه واعراضه وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة لا متزيداً ولا مفنناً لكن مورداً لما يحضرني على وجهه وبحسب وقوعه حيث انتهى حفظي وسعة باعي فيما اذكره فبدرت الى مرغوبك ولولا الايجاب لك لما تكلفته فهذا من الفقر والأولى بنا مع قصر أعمارنا ألا نصرفها إلا فيما نرجو به رحب المنقلب وحسن المآب غداً وان كان القاضي حمّام بن أحمد حدثني عن يحيى بن مالك عن عايذ باسناد يرفعه الى أبي الدرداء انه قال أجِمُّوا النفوس بشيء من الباطل ليكون عوناً لها على الحق ومن بعض أقوال الصالحين من السلف المرضّى من لم يحسن يتفتّى لم يحسن يتقوّى وفي بعض الأثر أريحوا النفوس فانها تصدأ كما يصدأ الحديد والذي كلفتني فلا بد فيه من ذكر ما شاهدته حضرتي وادركته عنايتي وحدثني به الثقات

من أهل زماني فاغتفر لي الكناية عن الأسماء فهي إما عورة لا نستجيز كشفها وإما نحافظ في ذلك صديقاً ودوداً ورجلاً جليلاً وبحسبي ان أسمي من لا ضرر في تسميته ولا يلحقنا والمسمى عيب في ذكره إما لاشتهار لا يُغني عنه الطيُّ وترك التبيين وإما لرضى من المختبر عنه بظهور خبره وقلّة انكار منه لنقله وسأورد في رسالتي هذه اشعاراً قلتُها فيما شاهدته فلا تنكر انت ومن رآها على أني سالك فيها مسلك حاكي الحديث عن نفسه فهذا مذهب المتحلين بقول الشعر وأكثر ذلك فإن اخواني يجشموني القول فيما يعرض لهم على طرايقهم ومذاهبهم وكفاني اني ذاكر لك ما عرض لي مما يشاكل ما نحوت نحوه ونا سبه اليّ والتزمت في كتابي هذا الوقوف عند حدك والاقتصار على ما رأيت أوصحّ عندي بنقل الثقات ودعني من أخبار الاعراب والمتقدمين فسبيلهم غير سبيلنا وقد كثرت الأخبار عنهم وما مذهبي أن أنضي مطية سواي ولا أتحلى بحلي مستعار والله المستغفر والمستعان لا ربّ غيره بابٌ وقسمتُ رسالتي هذه على ثلاثين باباً منها في أصول الحب عشرة فأولها هذا الباب في علامات الحب ثم باب فيه ذكر من أحب في النوم ثم باب فيه ذكر من أحب بالوصف ثم باب فيه ذكر من أحب من نظرة واحدة ثم باب فيه ذكر من لا تصح محبّته إلا مع المطاولة ثم باب التعريض بالقول ثم باب الاشارة بالعين ثم باب المراسلة ثم باب السفير ومنها في أعراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة اثنا عشر باباً وان كان الحب عرضاً والعرض لا يحتمل الأعراض وصفة والصفة لا توصف فهذا على مجاز اللغة في اقامة الصفة مقام الموصوف وعلى معنى قولنا وجودنا عرضاً أقل في الحقيقة من عرض غيره واكثر واحسن واقبح في ادراكنا لها علمنا انها متباينة في الزيادة والنقصان من ذاتها المرئية والمعلومة اذ لا تقع فيها الكمية ولا التجزّي لأنها لا تشغل مكاناً وهي باب الصديق المساعد ثم باب الوصل ثم باب طيّ السر ثم باب الكشف والاذاعة ثم باب الطاعة ثم باب المخالفة

ثم باب من أحب صفة لم يحب بعدها غيرها مما يخالفها ثم باب القنوع ثم باب الوفاء ثم باب الغدر ثم باب الضني ثم باب الموت ومنها في الآفات الداخلة على الحب ستة ابواب وهي باب العاذل ثم باب الرقيب ثم باب الواشي ثم باب الهجر ثم باب البين ثم باب السلو من هذه الأبواب الستة بابان لكل واحد منها ضد من الأبواب المتقدمة الذكر وهو باب العاذل وضده باب الصديق المساعد باب الهجر وضده باب الوصل ومنها اربعة أبواب لا ضد لها من معاني الحب وهي باب الرقيب وباب الواشي ولا ضد لهما إلا ارتفاعها وحقيقة الضد ما اذا وقع ارتفع الأول وان كان المتكلمون قد اختلفوا في ذلك ولولا خوفنا اطالة الكلام فيما ليس من جنس الكتاب لتقضيناه وباب البين وضده تصاقب الديار وليس التصاقب من معاني الحب التي نتكلم فيها وباب السلو ضده الحب بعينه اذ معنى السلو ارتفاع الحب وعدمه ومنها بابان ختمنا بهما الرسالة وهما باب الكلام في قبح المعصية وباب في فضل التعفف ليكون خاتمة ايرادنا وآخر كلامنا الحض على طاعة الله عزّ وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فذلك مفتوض على كل مؤمن لكنا خالفنا في نسق بعض هذه الأبواب هذه الرتبة المقسمة في درج هذا الباب الذي هو أول أبواب الرسالة فجعلناها على مباديها الى منتهاها واستحقاقها في التقدم والدرجات والوجود ومن أول مراتبها الى آخرها وجعلنا الضد الى جنب ضده فاختلف في المساق في أبواب يسيرة والله المستعان وهيأتها في الايراد أولها هذا الباب الذي نحن فيه وفيه صدر الرسالة وتقسم الأبواب والكلام في مائية الحب ثم باب علامات الحب ثم باب من أحب بالوصف ثم باب من أحب من نظرة واحدة ثم باب من لا يحب إلا مع المطاولة ثم باب من أحب صفة لم يحب بعدها غيرها مما يخالفها ثم باب التعريض بالقول ثم باب الاشارة بالعين ثم باب المراسلة ثم باب السفير ثم باب طي السر ثم باب اذاعته ثم باب الطاعة ثم باب المخالفة ثم باب العاذل ثم باب المساعد من الأخوان ثم باب

الرقيب ثم باب الواشي ثم باب الوصل ثم باب الهجر ثم باب الوفاء ثم باب الغدر ثم باب البين ثم باب القنوع ثم باب الضنى ثم باب السلو ثم باب الموت ثم باب قبح المعصية ثم باب فضل التعفف .

الكَلَامُ في مائيّة الحُبِّ

الحب أعزّك الله أوله هزل وآخره جدّ دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة وليس بمنكر في الديانة ولا بمحظور في الشريعة إذ القلوب بيد الله عزّ وجل وقد أُحب من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثير منهم باندلسنا عبدالرحمن بن معاوية لدَعْجاء والحكم بن هشام وعبدالرحمن بن الحكم وشغفه بطروب أم عبدالله ابنه أشهر من الشمس ومحمد بن عبد الرحمن وأمره مع غزلان أم بنيه عثمان والقاسم والمطرّف معلوم والحكم المستنصر وافتتانه بصبح أم هشام المؤيد بالله رضي الله عنه وعن جميعهم وامتناعه عن التعرض للولد من غيرها ومثل هذا كثير ولولا أن حقوقهم على المسلمين واجبة وانما يجب ان نذكر من اخبارهم ما فيه الحزم واحياء الدين وانما هو شيء كانوا ينفردون به في قصورهم مع عيالهم فلا ينبغي الاخبار به عنهم لأوردت من اخبارهم في هذا الشأن غير قليل وأما كبار رجالهم ودعايم دولتهم فأكثر من أن يُحصوا وأحدث ذلك ما شاهدناه بالأمس من كلف المظفر بن عبد الملك بن أبي عامر بواحد بنت رجل من الجبانين حتى حمله حبها ان يتزوجها وهي التي خُلف عليها بعد فناء العامر بن الوزير عبدالله بن مسلمة ثم تزوجها بعد قتله رجل من رؤساء البربر ومما يشبه هذا أن أبا العيش بن ميمون القرشي الحسيني اخبرني ان نزار بن معد صاحب مصر لم ير ابنه منصور بن نزار الذي ولي الملك بعده وادعى الإلهية إلا بعد مدة من مولده مساعدة لجارية كان

يحبها حباً شديداً هـــذا ولم يكن له ذكرٌ ولا من يرث ملكه ويحيي ذكره سواه ومن الصالحين والفقهاء في الدهور الماضية والأزمان القديمة من قد استغنى باشعارهم عن ذكرهم وقد ورد من خبر عبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود وشعره ما فيه الكفاية وهو أحد فقهاء المدينة السبعة وقد جاء من فُتيا ابن عباس رضي الله عنه ما لا يحتاج معه الى غيره حين يقول هذا قتيل الهوى لا عقلَ ولا قودَ وقد اختلف الناس في مائيته وقالوا واطالوا والذي اذهبُ اليه انه اتصال بين اجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع لا على ما حكاه محمد بن داود رحمه الله عن بعض أهل الفلسفة الأرواح أكرٌ مقسومة لكن على سبيل مناسبة قواها في مقر عالمها العلوي ومجاورتها في هيئة تركيبها وقد علمنا أن سر التمازج والتباين في المخلوقات انما هو الاتصـــال والانفصال والشكل دأباً يستدعي شكله والمثل الى مثله ساكن وللمجانسة عمل محسوس وتأثير مشاهد والتنافر في الاضداد والموافقة في الانداد والنزاع فيما تشابه موجود فيما بيننا فكيف بالنفس وعالمها العالم الصافي الخفيف وجوهرها الجوهر الصعاد المعتدل وسنخها المهيأ لقبول الاتفاق والميل والتوق والانحراف والشهوة والنفار كل ذلك معلوم بالحضرة في أحوال تصرف الانسان فيسكن اليهـــا والله عز وجل يقول هو الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ليسكن اليها فجعل علّة السكون انها منه. ولو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية لوجب ألا يستحسن الأنقص من الصورة ونحن نجد كثيراً ممن يؤثر الأدنى ويعلم فضل غيره ولا يجد محيداً لقلبه عنه ولو كان للموافقة في الاخلاق لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه فعلمنا انه شيء في ذات النفس وربما كانت المحبة لسبب من الاسباب وتلك تفنى بفناء سببها فمن ودّك لأمر ولّى مع انقضائه وفي ذلك أقول :

وِدَادِي لكَ البَاقِي عَلى حَسْبِ كَوْنهِ
تنَاهى فَلَمْ يَنْقُصْ بشَيْءٍ ولم يَزِدْ

وَلَيْسَتْ له غَيْرَ الإِرَادَة عِــلَّةٌ
ولا سَبَبٌ حَاشَاهُ يَعْلَمُهُ أَحَدْ

إِذَا مَا وَجَدْنا الشَيْءَ عِلَّةَ نَفْسِه
فَذَاكَ وُجودٌ لَيسَ يَفْنَى عَلىَ الأَبَدْ

وإِمَّــا وَجَدْنَاه لشَيْءٍ خِلاَفَهُ
بإِعدَامِه في عُدْمِنا مَا لَهُ وَجَدْ

وبما يؤكد هذا القول اننا قد علمنا ان المحبة ضروب فأفضلها محبة المتحابين في الله عز وجل إما لاجتهاد في العمل وإما لاتفاق في أصل النحلة والمذاهب وإما لفضل علم يمنحه الانسان ومحبة القرابة ومحبة الألفة والاشتراك في المطالب محبة التصاحب والمعرفة ومحبة لبر يضعها المرء عند أخيه ومحبة لطمع في جاه المحبوب ومحبة المتحابين لسر يجتمعان عليه يلزمهما ستره ومحبة لبلوغ اللذة وقضاء الوطر ومحبة العشق التي لا علة لها إلا ما ذكرنا من اتصال النفوس وكل هذه الأجناس فمنقضية مع انقضاء عللها وزايدة بزيادتها وناقصة بنقصانها متأكدة بدنوها فاترة ببعدها حاشى محبة العشق الصحيح الممكن من النفس فهي التي لا فناء لها إلا بالموت وانك لتجد الانسان

السالي بزعمه وذا السن المتناهية اذا ذكرته تذكر وارتاح وصبا واعتاده الطرب واهتاج له الحنين ولا يعرض في شيء من هذه الاجناس المذكورة من شغل البال والخبل والوسواس وتبدل الغرايز المركبة واستحالة السجايا المطبوعة والتحول والزفير وساير دلايل الشجا ما يعرض في العشق فصح بذاك انه استحسان روحاني وامتزاج نفساني فان قال قايل لو كان هذا كذلك لكانت المحبة بينهما مستوية إذ الجزءان مشتركان في الاتصال وحظهما واحد فالجواب عن ذلك ان نقول هذه لعمري معارضة صحيحة ولكن نفس الذي لا يحب من يحبه مكتنفة الجهات ببعض الأعراض الساترة والحجب المحيطة بها من الطبايع الأرضية فلم تحس بالجزء الذي كان متصلاً بها قبل حلولها حيث هي ولو تخلصت لاستويا في الاتصال والمحبة ونفس المحب متخلصة عالمة بمكان ما كان يشركها في المجاورة طالبة له قاصدة اليه باحثة عنه مشتهية لملاقاته جاذبة له لو أمكنها كالمغنيطس والحديد قوة جوهر المغنيطس المتصلة بقوة جوهر الحديد لم تبلغ من تحكمها ولا من تصفيتها أن تقصد إلى الحديد على أنه من شكلها وعنصرها كما أن قوة الحديد لشدتها قصدت الى شكلها وانجذبت نحوه إذ الحركة ابداً إنما تكون من الأقوى وقوة الحديد متروكة الذات غير ممنوعة بحابس تطلب ما يشبهها وتنقطع اليه وتنهض نحوه بالطبع والضرورة بالاختيار والتعمد وأنت متى أمسكت الحديد بيدك لم ينجذب إذ لم يبلغ من قوته ايضاً مغالبة الممسك له بما هو أقوى منه ومتى كثرت أجزاء الحديد اشتغل بعضها ببعض واكتفت بأشكالها عن طلب اليسير من قواها النازحة عنها فمتى عظم جرم المغنيطس ووازت قواه جميع قوى جرم الحديد عاد الى طبعها المعهود وكالنار في الحجر لا يبرز على قوة النار في الاتصال والاستدعاء لأجزائها حيث كانت إلا بعد القدح ومجاورة الجرمين بضغطها واصطكاكهما والا فهي كامنة في حجرها لا تبدو ولا تظهر ومن الدليل على هذا ايضاً انك لا تجد اثنين يتحابان إلا وبينهما مشاكلة واتفاق الصفات الطبيعية لا بد

من هذا وأن قــــل وكلما كثرت الأشباه زادت المجانسة وتأكدت المودة فانظر هذا تراه عيانا وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤكده الأرْواحُ جُنُودٌ مُجنَّدَةٌ ما تعارَفَ منها ائتلَفَ وما تَناكرَ منهــا اخْتَلَفَ وقول مروي عن أحد الصالحين أرواح المؤمنين تتعارف ولهذا ما اغتم بقراط حين وُصف له رجل من أهل النقصان يحبه فقيل له في ذلك فقال ما أحبني إلا وقد وافقته في بعض أخلاقه وذكر افلاطون ان بعض الملوك سجنه ظلماً فلم يزل يحتج عن نفسه حتى أظهر براءته وعلم الملك انه له ظالم فقال له وزيره الذي كان يتولى ايصال كلامه اليه ايها الملك قد استبان لك انه بري فما لك وله فقال الملك لعمري مـا لي اليه سبيل غير اني أجـد لنفسي استثقالاً لا أدري ما هو فأدى ذلك الى افلاطون قال فاحتجت أن أفتش في نفسي واخلاقي شيئاً أقابل به نفسه واخلاقه مما يشبهها فنظرت في اخلاقه فإذا هو محب للعدل كاره للظلم فميزت هـذا الطبع فيّ فما هو إلا أن حركت هذه الموافقة وقابلت نفسه بهذا الطبع الذي بنفسه فأمر باطلاقي وقال لوزيره قد انحل كل ما أجد في نفسي له وأما العلّة التي توقع الحب ابداً في أكثر الأمر على الصورة الحسنـة الظاهر أن النفس حسنة تولـع بكل شيء حسن وتميل الى التصاوير المتقنة فهي إذا رأت بعضها تثبتت فيه فإن ميزت وراءها شيئاً من أشكالها اتصلت وصحت المحبة الحقيقية وان لم تميز وراءها شيئاً من أشكالها لم يتجاوز احبابهـا الصورة وذلك هو الشهوة وإن للصور لتوصيلاً عجيباً بين أجزاء النفوس النائيـــة وقرأت في السفر الأول من التوراة أن النبي يعقوب عليه السلم أيام رعيـه غنماً لابن خاله مهراً لابنته شارطه على المشاركة في أنسالها فكل بهيم ليعقوب وكل أغرّ للأبان فكان يعقوب عليه السلم يعمد إلى قضبان الشجر يسلخ نصفاً ويترك نصفاً بحاله ثم يلقي الجميع في الماء الذي ترده الغنم ويتعمد ارسال الطروقة في ذلك الوقت فلا تلد الا نصفين نصفاً بهماً ونصفاً غراً وذكر عن بعض القافة انه أتي بابن أسود لأبيضين فنظر الى اعلامه فرآه لهما غـــير شك

فرغب أن يوقف على الموضع الذي اجتمعا عليه فأدخل البيت الذي كان فيه مضجعها فرأى فيا يوازي نظر المرأة صورة أسود في الحائط فقال لأبيه من قبل هذه الصورة أتيت في ابنك وكثيراً ما يصرف شعراء أهل الكلام هذا المعنى في أشعارهم فيخاطبون المرئي في الظاهر خطاب المعقول الباطن وهو المستفيض في شعر النظام ابراهيم بن سيار وغيره من المتكلمين وفي ذلك أقول شعراً منه :

مَا عِلَّةُ النَصْرِ في الأعداءِ تَعْرِفُهَا
وَعِلَّةُ الفَرِّ مِنْهُمْ إِنْ يَفِرُّونَا

إلا نِزَاعُ نُفوسِ النَاسِ قَاطِبَةً
إليكِ يا لُؤْلؤاً في النَاسِ مَكْنُونَا

مَنْ كُنْتِ قُدَّامَهُ لاَ يَنْثَنِي أَبَداً
فَهُمْ إِلَى نُورِكِ الصَعَّادِ يَعْشُونَا

وَمَنْ تَكُنْ خَلْفَهُ فَالنَفْسُ تَصْرِفُهُ
إِلَيكِ طَوْعاً فَهُمْ دَأْباً يَكُرُّونا

وفي ذلك أقول .

أَمِنْ عَالَمِ الأَمْلاكِ أَنتَ أَمْ إِنْسِيُّ
أَبِنْ لِي فَقَدْ أَزْرَى بِتَمِييزِيَ العِيُّ

أَرَى هَيْئَةً إِنْسِيَّةً غَيْرَ أَنَّهُ
إِذَا أَعْمَلُ التَفْكِيرَ فَالجِرْمُ عُلْوِيُّ

تَبَارَكَ مَنْ سَوَّى مَذَاهِبَ خَلْقِهِ
عَلَى أَنَّكَ النُورُ الأَنِيقُ الطَبِيعِيُّ

وَلاَ شَكَّ عِنْدِي أَنَّكَ الرُوحُ سَاقَهُ
إِلَيْنَا مِثَالٌ فِي النُفُوسِ اتِّصَالِيُّ

عَدِمْنَا دَلِيلاً فِي حُدُوثِكَ شَاهِداً
نَقِيسُ عَلَيْهِ غَيْرَ أَنَّكَ مَرْئِيُّ

وَلَوْلاَ وُقُوعُ العَيْنِ فِي الكَوْنِ لَمْ نَقُلْ
سِوَى أَنَّكَ العَقْلُ الرَفِيعُ الحَقِيقِيُّ

وكان بعض أصحابنا يسمي قصيدة لي الادراك المتوهم منها :

تَرَى كُلَّ ضِدٍّ بِهِ قَائِماً
فَكَيْفَ تَحُدُّ اخْتِلاَفَ المَعَانِي

فيا أيها الجسمُ لا ذا جهاتٍ
ويا عرضاً ثابتاً غيرَ فانِ

نقضتَ علينا وجوهَ الكلامِ
بما هوَ مذْ لحتَ بالمستبانِ

وهذا بعينه موجود في البغضة ترى الشخصين يتباغضان لا لمعنى ولا علة ويستثقل بعضها بعضاً بـلا سبب والحب اعزك الله داء عياء وفيه الدواء منه على قدر المعاملة ومقام مستلذ وعلة مشتهاة لا يود سليمها البرء ولا يتمنى عليلها الافاقة يزين للمرء ما كان يأنف منه ويسهل عليه مـا كان يصعب عنده حتى يحيل الطبائع المركبة والجبلة المخلوقة وسيأتي كل ذلك ملخصاً في بابه ان شاء الله خبر ولقد علمت فتى من بعض معارفي وقد وحل في الحب وتورط في حبائله واضر به الوجد وانضجه الدنف وما كانت نفسه تطيب بالدعاء الى الله عز وجل في كشف ما بـه ولا ينطلق بـه لسانه وما كان دعـاؤه الا بالوصل والتمكن ممن يحب على عظيم بلائه وطويل همه فما الظن بسقيم ولا يريد فقد سقمه ولقد جالسته يوماً فرأيت من إكبابه وسوء حاله واطراقه ما ساءني فقلت له في بعض قولي فرج الله عنك فلقد رأيت اثر الكراهية في وجهه وفي مثله اقول من كلمة طويلة .

وأستلذُّ بلائي فيكَ يا أملي
ولستُ عنكَ مدى الأيامِ أنصرفُ

إنْ قِيلَ لِي تَتَسلَّى عَنْ مَوَدَّتِــــه
فمـــا جَوَابي إلاّ اَللاّمُ والأَلِفُ

خبر وهذه الصفات مخالفة لما اخبرني به عن نفسه ابو بكر محمد بن قاسم بن محمد القرشي المعروف بالشلشي من ولد الامام هشام بن عبد الرحمن بن معاوية انه لم يحب احداً قط ولا اسف على إلف بان منه ولا تجاوز حد الصحبة والالفة الى حد الحب والعشق منذ خلق .

بَابُ عَلاَمَاتِ الحُبِّ

والحب علامات يقفوها الفطن ويهتدي اليها الذكي فاولها ادمان النظر والعين باب النفس الشارع وهي المنقبة عن سرائرها والمعبرة لضمائرهـــا والمعربة عن بواطنهافترى الناظر لا يطرف يتنقل بتنقل المحبوب وينزوي بانزوائه ويميل حيث مال كالحرباء مع الشمس وفي ذلك اقول شعراً منه .

فَلَيْسَ لِعَيْنِي عِنْدَ غَيرِكَ مَوْقِفُ
كَأَنَّكَ مَا يَحْكُونَ مِنْ حَجَرِ البَهْتِ

أصرِّفُهَا حيثُ انصرَفْتَ وكَيفَ مَا
تَقلَّبْتُ كالمنْعُوتِ في النَحْوِ والنَعْتِ

ومنها الاقبال بالحديث بما يكاد يقبل على سوى محبوبه ولو تعمد ذلك وان التكلف ليستبين لمن يرمقه فيه والانصات لحديثه اذا حدث واستغراب كل ما يأتي به ولو انه عين المحال وخرق العادات وتصديقه وان كذب وموافقته وان ظلم والشهادة له وان جار واتباعه كيف سلك واي وجه من وجوه القول تناول ومنها الاسراع بالسير نحو المكان الذي يكون فيه والتعمد للقعود بقربه والدنو منه واطراح الاشغال الموجبة للزوال عنه والاستهانة بكل خطب جليل داع الى مفارقته والتباطي في الشيء عن القيام عنه وفي ذلك اقول شعراً .

وَإذَا قُمْتُ عَنكَ لم أمشِ إلاَّ
مَشْيَ عَانٍ يُقَادُ نَحْوَ الفَنَاءِ

في مجيئي إليْك أحتَثُّ كالبدْرِ
إذَا كَانَ قاطِعاً للسَّمَاءِ

وَقِيَامِي إنْ قُمْت كَالأنجُمِ
العَالِيةِ الثَابِتَاتِ في الإبْطاءِ

ومنها بهت يقع وروعة تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجأة

وطلوعه بغتة ومنها اضطراب يبدو على المحب عند رؤية من يشبه محبوبه او عند سماع اسمه فجأة وفي ذلك اقول قطعة منها ٠

إِذَا مَا رَأَتْ عَيْنَايَ لاَبِسَ حُمْرَةٍ
تَقَطَّعَ قَلْبِي حَسْرَةً وتفطّرَا

غَدَا لِدِمَاءِ النَّاسِ بِاللَّحْظِ سَافِكاً
وَضُرِّجَ مِنْهَا ثَوْبُهُ فَتَعَصْفَرَا

ومنها ان يجود المرء ببذل كل ما يقدر عليه مما كان ممتنع به قبل ذلك كانه هو الموهوب له والمسعي في حظه كل ذلك ليبدي محاسنه ويرغب في نفسه فكم بخيل جاد وقطوب تطلق وجبان شجع وغليظ الطبع تطرب وجاهل تأدب وتفل تزين وفقر تجمل وذي سن تفى وناسك فتك ومصون تمسك وهذه العلامات تكون قبل استعار نار الحب وتأجج حريقه وتوقد شعله واستطارة لهبه فأما اذا تمكن واخذ مأخذه فحينئذ ترى الحديث سرارا والإعراض عن كل ما حضر الا عن المحبوب جهاراً ولي أبيات جمعت فيها كثيراً من هذه العلامات منها ٠

أَهْوَى الحَدِيثَ إِذَا مَا كَانَ يُذْكَرُ لِي
فِيهِ وَيعْبَقُ لِي عَنْ عَنْبَرٍ أَرِجِ

إِنْ قَالَ لم أَسْتَمِعْ مِمَّنْ يُجَالِسُنِي
إِلَى سِوَى لَفْظَةِ المُسْتَطْرَفِ الغُنُجِ

وَلَوْ يَكُونُ أَمِيرُ المُؤمِنِينَ مَعِي
مَا كُنْتُ مِنْ أَجْلِهِ عَنْهُ بِمُنْعَرِجِ

فإنْ أُقِمْ عَنْهُ مُضْطَرّاً فإنّيَ لا
أزالُ مُلْتَفِتاً والمَشْيُ مشْيُ وَجِي

عَيْنايَ فيه وَجِسْمي عَنْهُ مُرْتَحِلٌ
مِثْلُ ٱلْتِفَاتِ الغَرِيقِ البَرَّ في اللُجَجِ

أَغصُّ بالماءِ إنْ أذْكُرْ تَبَاعُدَهُ
كَمَنْ تَثَاءبَ وَسْطَ النَقْعِ والوَهجِ

وَإِنْ تَقُلْ مُمْكِنٌ قَصْدُ السَماءِ أَقُلْ
نَعَمْ وَإِنّي لأَدْرِي مَوْضِعَ الدَّرَجِ

ومن علاماته وشواهده الظاهرة لكل ذي بصر الانبساط الكثير الزائد والتضايق في المكان الواسع والمجاذبة على الشيء يأخذه احدهما وكثرة الغمز الخفي والميل بالاتكاء والتعمد لمس اليد عند المحادثة ولمس ما امكن من الاعضاء الظاهرة وشرب فضلة ما ابقى المحبوب في الإناء وتحري المكان الذي قابل فيه ومنها علامات متضادة وهي على قدر الدواعي والعوارض الباعثة والاسباب المحركة والخواطر المهيجة والاضداد انداد والاشياء اذا افرطت في غايات تضادها ووقفت في انتهاء حدود

اختلافها تشابهت قدرة من الله عز وجل تضل فيها الاوهام فهذا الثلج اذا ادمن حبسه في اليد فعل فعل النار ونجد الفرح اذا افرط قتل والغم اذا افرط قتل والضحك اذا كثر واشتد سال الدمع من العينين وهذا في العالم كثير فنجد المحبين اذا تكافيا في المحبة وتأكدت بينهما تأكدا شديداً اكثر بهما جدهما بغير معنى وتضادهما في القول تعمداً وخروج بعضهما على بعض في كل يسير من الامور وتتبع كل منهما لفظة تقع من صاحبه وتأولها على غير معناها كل هذه تجربة ليبدو ما يعتقده كل واحد منهما في صاحبه والفرق بين هذا وبين حقيقة الهجرة والمضادة المتولدة عن الشحناء ومخارجة التشاجر سرعة الرضى فانك بينما ترى المحبين قد بلغا الغاية من الاختلاف الذي لا تقدره يصلح عند الساكن النفس السالم من الإحقاد في الزمن الطويل ولا يتجبر عند الحقود ابداً فلا تلبث ان تراهما قد عادا الى اجمل الصحبة وهدرت المعاتبة وسقط الخلاف وانصرفا في ذلك الحين بعينه الى المضاحكة والمداعبة هكذا في الوقت الواحد مراراً واذا رأيت هذا من اثنين فلا يخالجك شك ولا يدخلنك ريب البتة ولا تتمار في ان بينهما سراً من الحب دفيناً واقطع عليه قطع من لا يصرفه عنه صارف ودونكها تجربة صحيحة وخبرة صادقة هذا لا يكون الا عن تكاف في المودة وائتلاف صحيح وقد رايته كثيراً ومن اعلامه انك تجد المحب يستدعي سماع اسم من يحب ويستلذ الكلام في اخباره ويجعلها هجيراه ولا يرتاح لشيء ارتياحه لها ولا ينهنهه عن ذلك تخوف ان يفطن السامع ويفهم الحاضر وحبك الشيء يعمي ويصم فلو امكن المحب ان لا يكون حديث في مكان يكون فيه الا ذكر من يحبه لما تعداه ويعرض للصادق المودة ان يبتدي في الطعام وهو له مشته فما هو الا وقت ما تهتاج له من ذكر من يحب صار الطعام غصة في الحلق وشجى في المريء وهكذا في الماء وفي الحديث فانه يفاتحكه مبتهجاً فتعرض له خطرة من خطرات الفكر فيمن يحب فتستبين الحوالة في منطقه

والتقصير في حديثه وآية ذلك الوجوم والاطراق وشدة الانغلاق فبينا هو طلق الوجه خفيف الحركات صار منطبقاً متثاقلاً حائر النفس جامد الحركة يبرم بالكلمة ويضجر من السؤال ومن علامـــاته حب الوحدة والأنس بالانفراد ونحول الجسم دون حد يكون فيه ولا وجع مانع من التقلب والحركة والمشي دليل لا يكذب ومخبر لا يخون عن كلة في النفس كامنة والسهر من اعراض المحبين وقد اكثر الشعراء في وصفه وحكوا انهم رعاة الكواكب ووصفوا طول الليل وفي ذلك اقول واذكر كتمان السر وانه يتوسم بالعلامات .

تَعَلَّمَتِ ٱلسَحَائِبُ مِنْ شُؤُونِي
فَعَمَّتْ بالحَيَا السَكْبِ الهَتُونِ

وَهذَا اللَيْلُ فيــــك غَدَا رَفيقي
بذلــك أَمْ عَلَى سَهَري مُعِيني

فإنْ لَمْ يَنْقَضِ الإظْلاَمُ ...
ألاَ مَا أُطبِقَتْ نَوْماً جُفُوني

فَلَيْسَ إلَى النهَارِ لَنا سَبِيلٌ
وَسُهْدٌ زائدٌ في كلِّ حِـــينِ

كَأَنَّ نجُومَـــهُ والغَيْمُ يُخْفِي
سَنَاهَا عَنْ مُلاَحظَةِ العُيُونِ

ضَمِيرِي في وَدادِكَ يَا مُنـــائِي
فَلَيْسَ يَبِـــينُ إلاَّ بالظُّنُونِ

وفي مثل ذلك قطعة منها :

أَرْعَى النُجُومَ كَأَنَّني كُلِّفْتُ أَنْ
أَرْعَى جَمِيعَ ثُبُوتِهَـــا وَالخُنَّسِ

فَكَأَنَّهَا واللّيْلَ نِيرانُ الجَوَى
قَدْ أُضْرِمَتْ في فِكْرَتِي مِنْ حِنْدِسِ

وَكَأَنَّني أَمْسَيْتُ حَارِسَ رَوْضَةٍ
خَضْرَاءَ وُشِّعَ نَبْتُهَـــا بالنَرْجِسِ

لَوْ عَاشَ بَطْلِيمُوسُ أَيْقَنَ أَنَّنِي
أَقْوَى الوَرَى في رَصْدِ جَرْيِ الكُنَّسِ

والشيء قد يذكر لما يوجبه وقع لي في هذه الابيات تشبيه شيئين بشيئين في بيت واحد وهو البيت الذي اوله فكانها والليل وهذا مستغرب في الشعر ولي مـــا هو اكمل منه وهو تشبيه ثلاثة اشياء في بيت واحد وتشبيه اربعة اشياء في بيت واحد وكلاهما في هذه القطعة التي اوردهـا وهي :

مَشوقٌ مُعنّىً مَا يَنامُ مُسَهَّدُ
بَخَمْرِ التَّجَنّي مَا يَزَالُ يُعَرْبِدُ

فَفي سَاعَةٍ يُبْدِي إليكَ عَجَائِباً
وَيَعْدُو وَيستَحْلِي وَيُدْني وَيبْعِدُ

كَأَنَّ النوَى والعَتْبَ والهَجْرَ والرِضى
قِرَانٌ وأَنْدادٌ ونحْسٌ وأَسْعُدُ

رَثَى لِغَرَامِي بَعْدَ طُولِ تَمَنُّعٍ
وأَصْبَحتُ مَحْسُوداً وَقَدْ كُنْتُ أَحسُدُ

نَعِمْنَا عَلى نَوْرٍ مِنَ الروْضِ زَاهِرٍ
سَقَتْهُ الغَوَادي فَهْوَ يُثْني ويَحْمَدُ

كَأَنَّ الحَيَا والمُزْنَ والروْضَ عَاطِراً
دُمُوعٌ وَأَجْفَانٌ وَخَدٌّ مُوَرَّدُ

ولا ينكرن علي منكر قولي قران فاهل المعرفة بالكواكب يسمون التقاء كوكبين في درجة واحدة قراناً ولي ايضاً ما هو اتم من هذا وهو تشبيه خمسة اشياء في بيت واحد في هذه القطعة وهي :

خَلَوْتُ بِها وَالرّاحُ ثالِثَـــةٌ لَهَا
وَجُنْحُ ظَلاَمِ اللَّيلِ قَدْ مَدَّ وأَثْلَجَ

فَتاةٌ عَدِمْتُ العَيشَ إلاَّ بِقُرْبِهَـــا
فَهَلْ في ٱبْتِغـاءِ العَيْشِ وَيحَكِ مِنْ حَرَجْ

كَأَنّي وَهِيَ والكَأْسَ والخَمْرَ والدُّجى
ثَرىً وَحَياً والدُّرُّ وَالتِبْرَ والسَّنَجْ

فهذا امر لا مزيد فيه ولا يقدر احد على اكثر منه اذ لا يحتمل العروض ولابنية الاسماء اكثر من ذلك ويعرض للمحبين القلق عند احد امرين احدهما عند رجائه لقاء من يحب فيعرض عند ذلك حائل خبر واني لأعلم بعض من كان محبوبه يعده الزيارة فما كنت اراه الا جائياً وذاهباً لا يقر به القرار ولا يثبت في مكان واحد مقبلا مدبراً قد استخفه السرور بعد ركانة واشاطه بعد رزانة ولي في معنى انتظار الزيارة :

أَقَمْتُ إلىَ أَنْ جاءَني اللَّيْلُ رَاجِياً
لِقَاءَكَ يا سُؤلِي وَيا غَايَةَ الأَمَلِ

فَأَيْأَسَنِي الإِظْلاَمُ عَنْكَ وَلَمْ أَكُنْ
لأَيْأَسَ يَوْماً إِنْ بَدَا اللَّيْلُ يَتَّصِلْ

وَعِنْدِي دَلِيلٌ لَيس يَكْذِبُ خُبْرُهُ
بأَمْثَالِه في مُشْكِلِ الأَمْرِ يُسْتَدَلُّ

لأنّك لَوْ رُمْتَ الزِيارَةَ لَمْ يَكُنْ
ظَلامٌ وَدَامَ النُورُ فِينَا وَلَمْ يَزَلْ

والثاني عند حادث يحدث بينهما من عتاب لا تدري حقيقته الا بالوصف فعند ذلك يشتد القلق حتى توقف على الجليلة فاما ان يذهب تحمله ان رجا العفو و (اما) ان يصير القلق حزناً واسفاً ان تحوّف الهجر ويعرض للمحب الاستكانة لجفاء المحبوب عليه وسيأتي مفسراً في بابه ان شاء الله تعالى ومن اعراضه الجزع الشديد والحمرة المقطعة تغلب عند ما يرى من إعراض محبوبه عنه ونفاره منه وآية ذلك الزفير وقلة الحركة والتأوه وتنفس الصعداء وفي ذلك اقول شعرا منه :

وَجَميلُ الصبْرِ مَسجُونٌ وَدُمُوعُ العَيْنِ سَارِحَةٌ

ومن علاماته انك ترى المحب يحب اهل محبوبه وقرابته وخاصته حتى يكونوا احظى لديه من اهله ونفسه ومن جميع خاصته والبكاء من علامات الحب ولكن يتفاضلون فيه فمنهم غزير الدمع هامل الشؤون تجيبه عينه وتحضره عبرته اذا شاء ومنهم جمود العين عديم الدمع وانا منهم وكان الاصل في ذلك ادماني اكل الكندر لخفقان القلب وكان عرض لي في الصبى فأني لاصاب بالمصيبة الفادحة فأجد قلبي ينفطر ويتقطع واحس في قلبي غصة أمرّ من العلقم تحول بيني وبين توفية الكلام حق مخارجه وتكاد تشرقني بالنفس احياناً ولا تجيب عيني البتة الا في الندرة بالشيء اليسير من

ألدمع خبر ولقد اذكرني هذا الفصل يوماً ودعت انا وابو بكر محمد بن اسحق صاحبي ابا عامر محمد بن عامر صديقاً رحمه الله في سفرته الى المشرق التي لم نره بعد فجعل ابو بكر يبكي عند وداعه وينشد ممثلاً بهذا البيت :

أَلاَ إِنَّ عَيْناً لَمْ تَجُدْ يَوْمَ واسِطٍ
عَلَيْكَ بِباقي دَمْعِهَا لَجَمُودُ

وهو في رثاء يزيد بن عمر بن هبيرة رحمه الله ونحن وقوف على ساحل البحر بمالقة وجعلت انا اكثر التفجع والأسف ولا تساعدني عيني فقلت مجيباً لابي بكر :

وَإِنَّ آمْرءاً لَمْ يُفْنِ حُسْنَ آصْطِبَارِهِ
عَلَيْكَ وَقَدْ فَارَقْتَهُ لَجَلِيدُ

وفي المذهب الذي عليه الناس أقول من قصيدة قلتها قبل بلوغ الحلم أولها .

دَلِيلُ الأَسَى نَارٌ عَلَى القَلْبِ تَلْفَحُ
وَدَمْعٌ عَلَى الخَدَّيْنِ يَحْمِي وَيَسْفَحُ

إِذَا كَتَمَ المَشْغُوفُ سِرَّ ضُلُوعِه
فَإِنَّ دُمُوعَ العَيْنِ تُبْدِي وَتَفْضَحُ

إذَا مَا جُفُونُ العَيْنِ سَالَتْ شُؤُونُهَا
فَفِي القَلْبِ دَاءٌ للغَرامِ مُبَرِّحُ

ويعرض في الحب سوء الظن واتهام كل كلمة من احدهما وتوجيهها الى غير وجهها وهذا اصل العتاب بين المحبين واني لأعلم من كان احسن الناس ظناً واوسعهم نفساً واكثرهم صبراً واشدهم احتمالاً وارحبهم صدراً ثم لا يحتمل ممن يحب شيئاً ولا يقع له معه ايسر مخالفة حتى يبدي من التعديد فنوناً ومن سوء الظن وجوهاً وفي ذلك اقول شعراً منه :

أُسِيءُ ظَنّي بكُـلِّ مُحْتَقَرٍ
تَأْتِي بـــه والحَقِيرُ مَنْ حَقَرَ

كَيْ لاَ يُرَى أَصلُ هِجْرَةٍ وَقِلًى
فَالنَارُ في بَدء أَمْرِهَـــا شَرَرَ

وأَصلُ عُظْمِ الأُمورِ أَهوَنُهَا
وَمِنْ صَغِيرِ النَوَى تَرَى شَجَرَ

وترى المحب اذا لم يثق ببقاء طوية محبوبه له كثير التحفظ مما لم يكن يتحفظ قبل ذلك مثقفاً لكلامه مزيناً لحركاته ومرامي طرفه ولا سيما ان دهي بمتجن وبلي بمعربد ومن اياته مراعاة المحب لمحبوبه وحفظه لكل ما يقع (منه) وبحثه عن اخبـاره حتى لا يسقط عنه دقيقة ولا جليلة وتتبعه لحركاته ولعمري لقد ترى البليد يصير في هذه الحـــالة ذكياً

والغافل فطلنا خبر ولقد كنت يوماً بالمرية قاعداً في دكان اسمعيل بن يونس الطبيب الاسرائيلي وكان بصيراً بالفراسة محسناً لها وكنا في لمة فقال له مجـــاهد بن الحصين القيسي ما تقول في هذا واشار الى رجل منتبذ عنا ناحية اسمه حاتم ويكنى ابا البقاء فنظر اليه ساعة يسيرة ثم قال هو رجل عاشق فقال له صدقت فمن أين قلت هذا قال لبهت مفرط ظـــاهر على وجهه فقط دون سائر حركاته فعلمت انه عاشق وليس بمريب :

بَابُ مَنْ أَحبَّ في النَوْمِ

ولا بد لكل حب من سبب يكون له اصلًا وانا مبتدىء بابعد ما يمكن ان يكون من اسبابه ليجري الكلام على نسق وان يبتدأ ابداً بالسهل والاهون فمن اسبابه شيء لولا اني شاهدته لم اذكره لغرابته خبر وذلك اني دخلت يومـاً على ابي السريّ عمـار بن صاحبنا مولى المؤيد فوجدته مفكراً مهتماً فسألته عما به فتمنع ساعة ثم قال لي اعجوبة ما سمعت قط قلت وما ذاك قال رأيت في نومي الليلة جارية فاستيقظت وقد ذهب قلبي فيها وهمت بها واني لفي اصعب حال من حبها ولقد بقي اياماً كثيرة يزيد على الشهر مغموماً مهموماً لا يهنئه شيء وجدا الى ان عذلته وقلت له من الخطاء العظيم ان تشغل نفسك بغير حقيقة وتعلق وهمك بمعدوم لا يوجد هل تعلم من هي قال لا والله قلت انك لقليل الراي مصاب البصيرة اذ تحب من لم تره قط ولا خلق ولا هو في الدنيا ولو عشقت صورة من صور الحمام لكنت عندي اعذر فما زلت به

حتى سلا وما كاد وهذا عندي من حديث النفس واضغاثها وداخل في باب التمني وتخيل الفكر وفي ذلك اقول شعراً منه :

يَا لَيْتَ شِعْرِي مَنْ كَانَتْ وَكَيْفَ سَرَتْ
أَطَلْعَةَ الشَمْسِ كَانَتْ أَمْ هِيَ القَمَرُ

أَظِنَّةُ العَقْلِ أَبْدَاهُ تَدَبُّرُهُ
أَوْ صُورَةَ الرُوحِ أَبْدَتْهَا لِيَ الفِكَرُ

أَوْ صُورَةٌ مُثِّلَتْ فِي النَفْسِ مِنْ أَمَلِي
فَقَدْ تَخَيَّلَ فِي إِدْرَاكِهَا البَصَرُ

أَوْ لم يَكُنْ كُلُّ هَذَا فَهْيَ حَادِثَةٌ
أَنَّى بِهَا سَبَباً فِي حَتْفِيَ القَدَرُ

بَابُ مَنْ أَحَبَّ بِالوَصْفِ

ومن غريب اصول العشق ان تقع المحبة بالوصف دون المعاينة وهذا امر يترقى منه الى جميع الحب فتكون المراسلة والمكاتبة والهم والوجد

والسهر على غير الابصار فان للحكايات ونعت المحاسن ووصف الأخبار تأثيراً في النفس ظـــاهراً وان تسمع نعمتها من وراء فيكون سبباً للحب واشتغال البال وهذا كله قد وقع لغير ما واحد ولكنه عندي بنيان هار على غير اس وذلك ان الذي افرغ ذهنه في هوى من لم ير لا بد له اذ يخلو بفكره ان يمثل لنفسه صورة يتوهمها وعينا يقيمها نصب ضميره لا يتمثل في هاجسه غيرها قد مال بوهمه نحوها فان وقعت المعاينة يوماً ما فحينئذ يتأكد الامر او يبطل بالكل وكل الوجهين قـد عرض وعرف واكثر ما يقع هذا في ربات القصور المحجوبات من اهل البيوتات مع اقـاربهن من الرجال وحب النساء في هذا اثبت من حب الرجال لضعفهن وسرعة اجابة طبائعهن الى هذا الشأن وتمكنه منهن وفي ذلك اقول شعراً منه .

وَيَا مَنْ لاَمني في حُبِّ مَن لَمْ يَرَهُ طَرفي

لَقَدْ أَفرَطتَ في وَصْفِكَ لي في الحُبِّ بالضعفِ

فقُلْ هَلْ تُعرَفُ الجَنَّةُ يَوْماً بِسوَى الوَصفِ

وأقول شعراً في استحسان النغمة دون وقوع العين على العيان منه .

قَد حَلَّ جَيشُ الغَرَامِ سَمْعِي وَهوَ عَلَى مُقْلَتِيَّ يَبْدُو

وأقول أيضاً في مخالفة الحقيقة لظن المحبوب عند وقوع الرؤية .

وَصَفُوكَ لي حَتَى إِذَا أَبصَرتُ مَا

وَصَفُوا عَلِمتُ بِأَنَّهُ هَذَيَانُ

فالطَّبْـلُ جِلْدٌ فَارِغٌ وَطَنينُهُ
يَرْتاعُ مِنْهُ ويَفْرَقُ الإِنْسَانُ

وفي ضد هذا أقول :

لَقَدْ وَصفوكَ لي حتى الْتَقَيْنَا
فَصَارَ الظَنُّ حَقّــاً في العِيانِ

فأَوْصَافُ الجِنَانِ مُقصّرَاتٌ
عَلَى التَحْقِيقِ عَنْ قَدْرِ الجِنَانِ

وان هذه الاحوال لتحدث بين الاصدقاء والاخوان وعني احدث خبر اني كان بيني وبين رجل من الاشراف ود وكيد وخطاب كثير ومـا ترآينا قط ثم منح الله لي لقاءه فما مرت الا ايام قـلايل حتى وقعت لنا منافرة عظيمة ووحشة شديدة متصلة الى الان فقلت في ذلك قطعة منها .

أَبْدَلْتَ أَشْخَاصَنَا كَرْهاً وفَرْطَ قِلىً
كَمَا الصحَائِفُ قَــدْ يُبْدَلْنَ بالنَسْخِ

ووقع لي ضد هذا مع ابي عامر بن ابي عامر رحمة الله عليه فاني كنت له على كراهة صحيحة وهو لي كذلك ولم يرني ولا رأيته وكان اصل ذلك تنقيلاً يحمل اليه عني والي عنه يؤكده انحراف بين ابوينا

لتنافسها فيما كانا فيه من صحبة السلطان ووجـــاهة الدنيا ثم وفق الله الاجتماع به فصار إلي اود الناس وصرت له كذلك الى ان حال الموت بيننا وفي ذلك اقول قطعة منها :

أخٌ لِيَ كَسَّبَنيهِ اللقَـــاءُ
وَأوْجدَني فيه عِلْقاً شَرِيفَا

وَقدْ كـنْتُ أكْرَهُ مِنْهُ الجوارَ
وَمَا كُنْتُ أرْغَبُهُ لي أليفَا

وَكَانَ البَغيضَ فَصَارَ الحَبيبَ
وَكَانَ الثَقيلَ فَصَارَ الخَفيفَا

وَقدْ كُنْتُ أدْمنُ عَنْهُ الوَجِيفَ
فَصِرْتُ أديمُ إلَيه الوَجِيفَا

واما ابو شاكر عبد الرحمن بن محمد القبري فكان لي صديقاً مـدة على غير رؤية ثم التقينا فتأكدت المودة واتصلت وتمادت الى الآن :

بَابُ مَنْ أَحبَّ مِنْ نَظْرَةٍ وَاحِدَةٍ

وكثيراً ما يكون لصوق الحب بالقلب من نظرة واحدة وهو ينقسم قسمين فالقسم الواحد مخالف للذي قبل هذا وهو ان يعشق المرء صورة لا يعلم من هي ولا يدري لها اسماً ولا مستقراً وقد عرض هذا لغير واحد خبر؛ حدثني صاحبنا ابو بكر محمد بن احمد بن اسحق عن ثقة اخبره سقط عني اسمه واظنه القاضي بن الحذاء ان يوسف بن هرون الشاعر المعروف بالرمادي كان مجتازاً عند باب العطارين بقرطبة وهذا الموضع كان مجتمع النساء فرأى جارية اخذت بمجامع قلبي وتخلل حبها جميع اعضائي فانصرف عن طريق الجامع وجعل يتبعها وهي ناهضة نحو القنطرة فجازتها الى الموضع المعروف بالربض فلما صارت بين رياض بني مروان رحمهم الله المنبيتة على قبورهم في مقبرة الربض خلف النهر نظرت منه منفرداً عن الناس لا همة له غيرها فانصرفت اليه فقالت له ما لك تمشي ورائي فاخبرها بعظيم بليته بها فقالت له دع عنك هذا ولا تطلب فضيحتي فلا مطمع لك في النية ولا الى ما ترغبه سبيل فقال اني اقنع بالنظر فقالت ذلك مباح لك فقال لها يا سيدتي احرة أم مملوكة قالت مملوكة فقال لها ما اسمك قالت خلوة فقال لها ولمن انت فقالت له علمك والله بما في السما السابعة أقرب اليك من ما سألت عنه فدع المحال فقال لها يا سيدتي

واين اراك بعد هذا قالت حيث رأيتني اليوم في مثل تلك الساعة من كل جمعة فقالت له إما تنهض انت واما انهض انا فقال لها انهضي في حفظ الله فنهضت نحو القنطرة ولم يمكنه اتباعها لأنهـــا كانت تلتفت نحوه لترى أيسايرها ام لا فلمـا تجاوزت باب القنطرة اتى يقفوها فلم يقع لهـا على مسألة قال ابو عمر وهو يوسف بن هرون فوالله لقد لازمت باب العطارين والربض من ذلك الوقت الى الآن فما وقعت لهـــا على خبر ولا ادري أسماء لحستها ام ارض بلعتها وان في قلبي منها لأحر من الجمر وهي خلوة التي يتغزل بها في اشعاره ثم وقع بعد ذلك على خبرهـــا بعد رحيله في سببها الى سرقسطة في قصة طويلة ومثل ذلك كثير وفي ذلك اقول قطعة منها :

عَيْني جَنَتْ في فُؤادي لَوْعَةَ الفِكَرِ
فأرْسَلَ الدَمْعَ مُقْتَصّاً مِنَ البَصَرِ

فَكَيْفَ تُبْصِرُ فِعْلَ الدَمْعِ مُنْتَصِفاً
مِنْها بإغْراقِها في دَمْعِها الدُرَرِ

لم أَلْقَها قَبلَ إبْصَارِي فأَعْرِفُهَـــا
وَآخِرُ العَهْدِ مِنْهَا سَاعَةُ النَظَرِ

والقسم الثاني مخالف للباب الذي يأتي بعد هذا الباب ان شاء الله وهو ان يعلق المرء من نظرة واحدة جارية معروفة الاسم والمكان والمنشأ ولكن التفاضل يقع في هذا في سرعة الفناء وابطائه فمن احب من نظرة واحدة واسرع العلاقـة من لمحة خاطرة فهو دليل على قـــلة الصبر ومخبر

بسرعة السلو وشاهد الظرافة والملل وهكذا في جميع الاشياء اسرعها نموا اسرعها فناء وابطؤها حدوثا ابطؤها نفاداً خبر بأني لأعلم فتياً من ابناء الكتاب ورأته امرأة مرية النشأة عالية المنصب غليظة الحجاب وهو مجتاز ورأته في موضع تطلع منه كان في منزلها فعلقته وعلقها وتهاديا المراسلة زمانا على ارق من حد السيف ولولا اني لم اقصد في رسالتي هذه كشف الحيل وذكر المكائد لأوردت مما صح عندي اشياء تحير اللبيب وتدهش العاقل اسبل الله علينا ستره وعلى جميع المسلمين بمنه وكفانا :

بَابُ مَنْ لا يُحِبُّ إلاّ مَعَ المُطَاوَلَةِ

ومن الناس من لا تصح محبته الا بعد طول المخافتة وكثير المشاهدة ومتمادى الانس وهذا الذي يوشك ان تدوم وتثبت ولا يحيك فيه مر الليالي فما دخل عسيراً لم يخرج يسيراً وهذا مذهبي وقد جاء في الأثر ان الله عز وجل قال للروح حين امره ان يدخل جسد آدم وهو فخار فهاب وجزع ادخل كرها واخرج كرها حدثناه عن شيوخنا ولقد رايت من اهل هذه الصفة من ان احس من نفسه بابتداء هوى او توحش من استحسانه ميلا الى بعض الصور استعمل الهجر وترك الإلمام لئلا يزيد ما يجد فيخرج الامر عن يده ويحال بين الغير والنزوان وهذا يدل على لصوق الحب باكباد اهل هذه الصفة وانه اذا تمكن منهم لم يحل ابداً وفي ذلك اقول قطعة منها :

سَأُبْعِدُ عَنْ دَوَاعِي الحُبِّ إِنِّي
رَأَيْتُ الحَزْمَ مِنْ صِفَةِ الرَّشِيدِ

رَأَيْتُ الحُبَّ أَوَّلُهُ التَصَدِّي
بِعَيْنِكَ في أَزَاهِيرِ الخُدُودِ

فَبَيْنَا أَنْتَ مُغْتَبِطٌ مُخَلًّى
إِذَا قَدْ صِرْتَ في حَلَقِ القُيُودِ

كَمُغْتَرٍّ بِضَحْضَاحٍ قَرِيبٍ
فَذَلَّ فَغَابَ في غَمْرِ المُدُودِ

واني لأطيل العجب من كل من يدعي انه يحب من نظرة واحدة ولا أكاد اصدقه ولا اجعل حبه الا ضرباً من الشهوة وأما ان يكون في ظني متمكنا من صميم الفؤاد نافذاً في حجاب القلب فما اقدر ذلك وما لصق باحشائي حب قط الا مع الزمن الطويل وبعد ملازمة الشخص لي دهراً واخذي معه في كل جد وهزل وكذلك انا في السلو والتوق فما نسيت ودا لي قط وان حنيني الى كل عهد تقدم لي ليغصني بالماء ويشرقني بالطعام وقد استراح من لم تكن هذه صفته وما مللت شيئاً قط بعد معرفتي به ولا مرعت الى الانس بشيء قط اول لقائي له وما رغبت الاستبدال الى سبب من اسبابي مذ كنت لا اقول في الالاف والاخوان وحدهم لكن في كل ما يستعمل الانسان من ملبوس ومركوب ومطعوم وغير ذلك وما انتفعت بعيش ولا فارقني الاطراق والانغلاق مذ ذقت

طعم فراق الاحبة وانه لشجى يعتادني وولوع هم ما ينفك يطرقني ولقد نقص تذكري مـــا مضى كل عيش استأنفه واني لقيل الهموم في عداد الأحياء ودفين الاسى بين اهل الدنيا والله المحمود على كل حال لا اله الا هو وفي ذلك اقول شعراً منه :

مَحبَّةُ صِدْقٍ لم تَكُنْ بِنْتَ ساعةٍ
وَلاَ وَرِيَتْ حينَ ٱرْتِيَادٍ زِنَادُهَا

وَلكِنْ عَلى مَهْلٍ سَرَتْ وَتوَلَّدَتْ
بطُولِ ٱمْتِزَاجٍ فاْستَقَرَّ عِمَادُهَا

فَلمْ يَدْنُ مِنْهَا عَزْمُهَا وٱنْتِقَاضُهَا
وَلم يَنأَ عَنْهَا مَكْثُهَا وٱزْدِيَادُهَا

يُؤَكِّدُ ذَا أَنَّا نَرَى كُلَّ نَشْأَةٍ
تَتِمُّ سَرِيعاً عَنْ قَرِيبٍ نِهادُهَـــا

وَلَكِنَّنِي أَرْضٌ عَزَازٌ صَلِيبَـــةٌ
مَنيعٌ إِلَى كُلِّ الغُرُوسِ ٱنْقِيَادُهَا

فَمَا نَفَذَتْ مِنْهَا لَدَيْهَا عُرُوقُهَا
فلَيْسَتْ تُبَالي أَنْ يَجُودَ عِهَادُهَا

ولا يظن ظان ولا يتوهم متوهم ان كلا من هذا مخالف لقولي المستطر في صدر الرسالة ان الحب اتصال بين النفوس في اصل عالمها العلوي بل هو مؤكد له فقد علمنا ان النفس في هذا العالم الادنى قد غمرتها الحجب ولحقتها الأعراض واحاطت بها الطبائع الارضية الكورية فسترت كثيراً من صفاتها وان كانت لم تحله لكن حالت دونه فلا يرح الاتصال على الحقيقة الا بعد التهيؤ من النفس والاستعداد له وبعد ايصال المعرفة اليها بما يشاكلها ويوافقها ومقابلة الطبائع التي خفت مما يشبهها من طبائع المحبوب فحينئذ يتصل اتصالاً صحيحاً بلا مانع واما ما يقع من اول وهلة ببعض اعراض الاستحسان الجسدي واستطراف البصر الذي لا يجاوز الالوان وهذا سر الشهوة ومعناها على الحقيقة فاذا فصلت الشهوة وتجاوزت هذا الحد ووافقت الفصل اتصال نفساني تشترك فيه الطبائع مع النفس يسمى عشقاً ومن هذا دخل الغلط على من يزعم انه يحب اثنين ويعشق شخصين متغايرين فانما هذا من جهة الشهوة التي ذكرنا انفاً وهي على المجاز تسمى محبة لا على التحقيق واما نفس المحب فما في الميل به فضل يصرفه من اسباب دينه ودنياه فكيف بالاشتغال بحب ثان وفي ذلك اقول :

كَذَبَ المدَّعي هَوَى إِثْنَينِ حَتْماً
مِثْلَ مَا في الأصولِ أَكْذَبَ مَاني

لَيْسَ في القَلْبِ مَوْضِعٌ لِحَبِيبَينِ وَلاَ أُحدَثُ الأمورِ بثاني

فَكَمَا العَقْلُ وَاحِدٌ لَيْسَ يَدْرِي
خالِقاً غيرَ وَاحِدٍ رَحْمَانِ

فَكَذَا القَلْبُ وَاحِدٌ لَيْسَ يَقْوى
غَيْرَ فَرْدٍ مُبَاعِدٍ أوْ مُــــدَانِ

هُوَ فِي شِرْعَةِ المَوَدَّةِ ذُو شَكٍّ
بعيدٌ مِنْ صِحَّـــةِ الإِيمَانِ

وَكَذَا الدِينُ وَاحِدٌ مُسْتَقِيمٌ
وَكَفُورٌ مَنْ عَقْــدُهُ دِينَانِ

واني لأعرف فتى من اهل الجدة والحسب والادب كان يبتاع الجارية وهي سالمة الصدر من حبه واكثر ذلك كارهة له لقلة حلاوة شمائل كانت فيه وقطوب دائم كان لا يفارقه ولا سيا مع النساء فكان لا يلبث الا يسيراً ريث ما يصل اليها بالجماع ويعود ذلك الكره حباً مفرطاً وكلفاً زائداً واستهتارا مكشوفاً ويتحول الضجر لصحبته ضجراً لفراقه صحبه هذا الامر في عدة منهن فقال بعض اخواني فسألته عن ذلك فتبسم نحوي وقال اذاً والله اخبرك انا ابطأ الناس انزالاً تقضي المرأة شهوتها وربما ثنت وانزالي وشهواتي لم ينقضيا بعد وما فترت بعدها قط واني لأبقى بحسبي بعد انقضائها الحين الصالح وما لاقى صدري صدر امرأة قط عند الخلوة الا عند تعمدي المعانقة وبحسب ارتفاع صدري نزول مؤخري فمثل هذا وشبهه اذا وقع وافق أخلاق النفس وولد المحبة اذ الاعضاء الحساسة مسالك الى النفوس ومؤديات نحوها .

بَابُ مَنْ أَحبَّ صِفَةً لم يَستحسِنْ بَعْدَها غيرَها مِمّا يُخالفُها

واعلم اعزك الله ان للحب حكما على النفوس ماضياً وسلطاناً قاضياً وأمرا لا يخالف وحدا لا يعصى وملكا لا يتعدى وطاعة لا تصرف ونفاذاً لا يرد وانه ينغص المرر ويحيل المبرم ويحلل الجامد ويحل الثابت ويحل الشغاف ويحل الممنوع ولقد شاهدت كثيراً من الناس لا يتهمون في تمييزهم ولا يخاف عليهم سقوط في معرفتهم ولا اختلال بحسن اختيارهم ولا تقصير في حدسهم قد وصفوا احبابا لهم في بعض صفاتهم ما ليس بمستحسن عند الناس ولا يرضى في الجمال فصارت هجيراهم وعرضة لأهوائهم ومنتهى استحسانهم ثم مضى اولئك اما بسلو او بين او هجر او بعض عوارض الحب وما فارقهم استحسان تلك الصفات ولا بان عنهم تفضيلها على ما هو افضل منها في الخليقة ولا مال الى سواها بل صارت تلك الصفات المستجادة عند الناس مهجورة عندهم وساقطة لديهم الى ان فارقوا الدنيا وانقضت أعمارهم حنينا منهم الى من فقدوه وألفة لمن صحبوه وما اقول ان ذلك كان تصنعاً لكن طبعاً حقيقاً واختياراً لا داخلة فيه ولا يرون سواه ولا يقولون في طي عقدهم بغيره واني لأعرف من كان في جيد حبيبه بعض الوقص فما استحسن اغيد ولا غيداء بعد ذلك واعرف من كان اول علاقته بجارية مائلة الى القصر فما أحب طويلة بعد هذا واعرف

ايضاً من هوى جارية في فمها فوه لطيف فلقد كان يتقذر كل فم صغير ويذمه ويكرهه الكراهية الصحيحة وما أصف من منقوصي الحظوظ في العلم والادب لكن عن اوفر الناس قسطاً في الادراك واحقهم باسم الفهم والدراية وعني اخبرك اني احببت في صباي جارية لي شقراء الشعر فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ولو انه على الشمس او على صورة الحسن نفسه واني لأجد هذا في اصل تركيبي من ذلك الوقت لا تؤاتيني نفسي على سواه ولا تحب غيره البتة وهذا العارض بعينه عرض لابي رضي الله عنه وعلى ذلك جرى الى ان وافاه اجله واما جماعة خلفاء بني مروان رحمهم الله ولا سيما ولد الناصر منهم فكلهم مجبولون على تفضيل الشقرة لا يختلف في ذلك منهم مختلف وقد رأيناهم ورأينا من رآهم من لدن دولة الناصر الى الآن فما منهم الا اشقر نزاعاً الى امهاتهم حتى قد صار ذلك فهم خلقة حاشي سليمان الظافر رحمه الله فاني رايته اسود اللمة واللحية واما الناصر والحكم المستنصر رضي الله عنهما فحدثني الوزير ابي رحمه الله وغيره انهما كانا اشقرين اشهلين وكذلك هشام المؤيد ومحمد المهدي وعبد الرحمن المرتضى رحمهم الله فاني قد رأيتهم مراراً ودخلت عليهم فرأيتهم شقراً شهلا وهكذا اولادهم واخوتهم وجميع اقاربهم فلا ادري اذلك استحسان مركب في جميعهم ام لرواية كانت عند اسلافهم في ذلك فجروا عليها وهذا ظاهر في شعر عبد الملك بن مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن امير المؤمنين الناصر وهو المعروف بالطليق وكان اشعر اهل الاندلس في زمانهم واكثر تغزله فبالشقر وقد رأيته وجالسته وليس العجب فيمن احب قبيحاً ثم لم يصحبه ذلك في سواه فقد وقع من ذلك ولا فيمن طبع مذ كان على تفضيل الادنى ولكن فيمن كان ينظر بعين الحقيقة ثم غلب عليه هوى عارض بعد طول بقائه في الجماعة فأحاله عما عهدته نفسه حوالة صارت له طبعاً وذهب طبعه الاول وهو يعرف فضل ما كان عليه اولا فاذا رجع الى نفسه وجدها تأبى الا الادنى

فاعجب لهذا التغلب الشديد والتسليط العظيم وهو اصدق المحبة حقاً لا من يتحلى بشيم قوم ليس منهم ويدعي غريزة لا تقبله فيزعم انه يتخير من يحب اما لو شغل الحب بصيرته واجاح فكرته واجحف بتمييزه الحال بينه وبين التخير والارتياد وفي ذلك اقول شعراً منه :

مِنْهُمْ فَتىً كَانَ في مَحْبُوبِه وَقَصٌ
كَأَنَّمَا الغيدُ في عَينَيه جِنَانُ

وَكَانَ مُنْبَسِطاً في فَضْلِ خيرَته
بحُجَّةٍ حَقُّهَا في القَوْلِ تِبْيَانُ

إِنَّ المَهَا وَبِهَا الامْثَالُ سَائِرَةٌ
لاَ يُنْكِرُ الحُسْنَ فيهِ الدَهْرَ إِنْسَانُ

وَقْصٌ فَلَيْسَ بِهَا عَنْقَاءُ وَاحِدَةٌ
وَهَلْ تُزَانُ بِطُولِ الجِيدِ بُعْرَانُ

وَآخَرُ كَانَ في مَحْبُوبِه فَوَهٌ
يَقُولُ حَسْبيَ في الأَفْوَاهِ غِزْلاَنُ

وَثَالِثٌ كَانَ في مَحْبُوبِه قِصَرٌ
يَقُولُ إِنَّ ذَوَاتَ الطُولِ غِيلاَنُ

وأقول أيضاً

يَعِيبُونَهَا عِنْدِي بِشُقْرَةِ شَعْرِهَا
فَقُلْتُ لَهُمْ هَذَا الَّذِي زَانَهَا عِنْدِي

يَعِيبُونَ لَوْنَ النُّورِ والتِبْرِ ضَلَّةً
لِرَأْيِ جَهُولٍ فِي الغَوَايَةِ مُمْتَدِّ

وَهَلْ عَابَ لَوْنَ النَرْجِسِ الغَضِّ عَائِبٌ
وَلَوْنَ النُجُومِ الزَاهِرَاتِ عَلَى البُعْدِ

وَأَبْعَدُ خَلْقِ الله مِنْ كُلِّ حِكْمَةٍ
مُفَضِّلُ جِرْمٍ فَاحِمِ اللَّوْنِ مُسْوَدِّ

بِهِ وُصِفَتْ أَلْوَانُ أَهْلِ جَهَنَّمَ
وَلِبْسَةُ بَاكٍ مُثْكَلِ الأَهْلِ مُحْتَدِّ

وَمُذْ لَاحَتِ الرَّايَاتُ سُوداً تَيَقَّنَتْ
نُفُوسُ الوَرَى أَنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الرُّشْدِ

بَابُ التَعْرِيض بالقَوْل

ولا بد لكل مطلوب من مدخل اليه وسبب يتوصل بـــه نحوه فلم ينفرد بالاختراع دون واسطة الا العليم الاول جل ثناءه فأول ما يستعمل طلاب الوصل وأهل المحبة في كشف ما يجدونه الى احبتهم التعريض بالقول اما بانشاد شعر او بارسال مثل او تعمية بيت او طرح لغز او تسليط كلام والناس يختلفون في ذلك على قدر ادراكهم وعلى حسب ما يرونه من احبتهم من نفار او أنس او فطنـــة او بلادة واني لأعرف من ابتدأ كشف محبته الى من كان يحب بأبيات قلتها فهذا وشبهه يبتدىء بـــه الطالب للمودة فان رأى أنساً وتسهيلاً زاد وان يعاين شيئاً من هذه الامور في حين انشاده لشيء مما ذكرنا او ايراده لبعض المعاني التي حددنا وانتظاره الجواب اما بلفظ او بهيئة الوجه والحركات لموقف بين الرجاء واليأس هائل وان كان حينا قصيراً ولكنه اشراف على بلوغ الامل او انقطاعه ومن التعريض بالقول جنس ثان ولا يكون الا بعد الاتفاق ومعرفة المحبة من المحبوب فحينئذ يقـــع التشكي وعقد المواعد والتعديد واحكام المودات بالتعريض وبكلام يظهر لسامعه منه معنى غير ما يذهبان اليه فيجيب السامع عنه بجواب غير ما يتأدى الى المقصود بالكلام على حسب ما يتأدى الى سمعه ويسبق الى وهمه وقد فهم كل واحد منهما عن

صاحبه واجابه بما لا يفهمه غيرهما الا من أيد بحس نافذ وأعين بذكاء وأمد بتجربة ولا سيما ان احس من معانيها بشيء وقل ما يغيب عن المتوسم المجيد فهنالك لا خفاء عليه في ما يريدان وانا اعرف فتى وجارية كانا يتحابان فارادها في بعض وصلها على بعض ما لا يجمل فقالت والله لأشكونك في الملإ علانية ولأفضحنك فضيحة مستورة فلما كان بعد ايام حضرت الجارية مجلس بعض اكابر الملوك واركان الدولة واجل رجال الخلافة وفيه من يتوقى امره من النساء والخدم عدد كثير وفي جملة الحاضرين ذلك الفتى لأنه كان بسبب من الرئيس وفي المجلس مغنيات غيرها فلما انتهى الغناء اليها سوت عودها واندفعت تغني بابيات قديمة وهي :

غَزَالٌ قَدْ حَكَى بَدْرَ التَّمَامِ
كَشَمْسٍ قَدْ تَجَلَّتْ مِنْ غَمَامِ

سَبَى قَلْبي بِأَلْحَاظٍ مِرَاضٍ
وَقَدِّ الغُصْنِ في حُسْنِ القَوَامِ

خَضَعْتُ خُضُوعَ صَبٍّ مُسْتَكِينٍ
لَهُ وَذَلَّلْتُ ذِلَّةَ مُسْتَهَامِ

فَصِلْني يَا فَدَيْتُكَ في حَلاَلٍ
فَمَا أَهْوَى وِصَالاً في حَرَامِ

وعلمت أنا هذا الأمر فقلت

عِتَابٌ وَاقِعٌ وَشَكَاةُ ظُلْمِ
أَتَتْ مِنْ ظَالِمٍ حَكَمٍ وَخَصْمِ

تَشَكَّتْ مَا بِهَا لَمْ يَدْرِ خَلْقٌ
سِوَى المَشْكُوِّ مَا كَانَتْ تُسَمِّي

بَابُ الإِشارَةِ بالعَيْنِ

ثم يتلو التعريض بالقول اذا وقع القبول والموافقة الاشارة بلحظ العين وانه ليقوم في هذا المعنى المقام المحمود ويبلغ المبلغ العجيب ويقطع به ويتواصل ويوعد ويهدد وينتهر ويبسط ويأمر وينهي وتضرب به الاوغاد وينبه على الرقيب ويضحك ويحزن ويسأل ويجاب ويمنع ويعطي ولكل واحد من هذه المعاني ضرب من هيئة اللحظ لا يوقف على تحديده الا بالرؤية ولا يمكن تصويره ولا وصفه الا الاقل منه وانا واصف ما تيسر من هذه المعاني فالاشارة بمؤخر العين الواحدة نهي عن الامر وتفتيرها اعلام بالقبول وادامة نظرها دليل على التوجع والاسف وكسر نظرها آية الفرج والاشارة الى اطباقها دليل على التهديد وقلب الحدقة الى جهة ما

ثم صرفها بسرعة تنبيه على مشار اليه والاشارة الخفية بمؤخر العينين كلتاهما سؤال وقلب الحدقة من وسط العين الى المـاق بسرعة شاهد المنع وترعيد الحدقتين من وسط العينين نهي عـام وسائر ذلك لا يدرك الا بالمشاهدة واعلم ان العين تنوب عن الرسل ويدرك بهـا المراد والحواس الاربع ابواب الى القلب ومنافذ نحو النفس والعين ابلغها واصحها دلالة واوعاهـا عملاً وهي رائد النفس الصادق ودليلها الهادي ومرآتها المجلوة التي بها تقف على الحقائق وتحوز الصفات وتفهم المحسوسات وقد قيل ليس المخبر كالمعاين وقد ذكر ذلك افليمون صاحب الفراسة وجعلها معتمدة في الحكم ويعجبك من قوة ادراك العين انها اذا لاقى شعاعها شعاعاً مجلياً صافياً إما حديداً مفصولاً او زجاجاً او ماء او بعض الحجارة الصافية او سائر الاشياء المجلوة البراقة ذوات الرفيف والبصيص واللمعان يتصل اقصى حدوده بجسم كثيف ساتر مناع كدر انعكس شعاعها فادرك الناظر نفسه وحازهـا عياناً وهو الذي ترى في المرآة فانت حينئذ كالناظر اليك بعين غيرك ودليل عياني على هذا انك تأخذ مرآتين كبيرتين فتمسك احداهما بيمينك خلف رأسك والثانية بيسارك قبالة وجهك ثم تزويهـا قليلاً حتى يلتقيا بالمقابلة فانك ترى قفاك وكل ما وراءك وذلك لانعكاس ضوء العين الى ضوء المرآة التي خلفك اذ لم تجد منفذاً في التي بين يديك ولمـا لم تجد وراء هذه الثانية منفذاً انصرف الى ما قابله من الجسم وان كان صالح غلام ابي اسحق النظام خالف في الادراك فهو قول ساقط لم يوافقه عليه احد ولو لم يكن من فضل العين الا ان جوهرها ارفع الجواهر واعلاها مكاناً لانها نورية لا تدرك الالوان بسواها ولا شيء ابعد مرمى ولا انأى غاية منها لانها تدرك بهـا أجرام الكواكب التي في الأفلاك البعيدة وترى بهـا السماء على شدة ارتفاعها وبعدها وليس ذلك الا لاتصالها في طبع خلقتها بهذه المرآة فهي تدركها وتصل اليها بالظفر لا على قطع الاماكن والحلول في المواضع وتنقل الحركات وليس هذا لشيء من الحواس مثل

الذوق واللمس لا يدركان الا بالمجاورة والسمع والشم لا يدركان الا من قريب ودليل على ما ذكرناه من الظفر انك ترى المصوت قبل سماع الصوت وان تعمدت ادراكهما معاً ولو كان ادراكهما واحداً لما تقدمت العين السمع :

بابُ المُرَاسَلَةِ

ثم يتلو ذلك اذا امتزجا المراسلة بالكتب وللكتب ايات ولقد رأيت اهل هذا الشأن يبادرون لقطع الكتب وبحلها في الماء وبمحو ثرها فرب فضيحة كانت بسبب كتاب وفي ذلك اقول :

عَزِيزٌ عَليَّ اليَوْمَ قَطْعُ كِتَابِكُمْ
وَلَكِنَّهُ لَمْ يُلْفَ للوُدِّ قَاطِعُ

فَآثَرْتُ أنْ يَبْقَى وَدَادٌ وَيُمْتَحَى
مِدَادٌ فإنَّ الفَرْعَ للأَصْلِ تَابِعُ

فَكَمْ مِنْ كِتَابٍ فِيهِ مِيتَةُ رَبِّهِ
وَلَمْ يَدْرِهِ إذْ نَمَّقَتْهُ الأَصَابِعُ

وينبغي ان يكون شكل الكتاب الطف الاشكال وجنسه املح الأجناس ولعمري ان الكتاب للسان في بعض الأحايين امـا لحصر في الانسان واما لحياء واما لهيبة نعم حتى ان لوصول الكتاب الى المحبوب وعلم المحب انه قد وقع بيده ورآه للذة يجدها المحب عجيبة تقوم مقام الرؤية وان لرد الجواب والنظر اليه سرورا يعدل اللقاء ولهذا ما ترى العاشق يضع الكتاب على عينيه وقلبه ويعانقه ولعهدي ببعض اهل المحبة ممن كان يدري ما يقول ويحسن الوصف ويعبر عمـا في ضميره بلسانه عبارة جيدة ويجيد النظر ويدقق في الحقائق لا يدع المراسلة وهو ممكن الوصل قريب الدار أتى المرار ويحكي أنها وجوه اللذة ولقد أخبرت عن بعض السقاط الوضعاء انه كان يضع كتاب محبوبه على احليله وان هذا النوع من الاغتلام قبيح وضرب من الشبق فاحش واما سقي الحبر بالدمع فاعرف من كان يفعل ذلك ويقارضه محبوبه بسقي الحبر بالريق وفي ذلك اقول :

جَوَابٌ أَتَاني عَنْ كِتَابٍ بَعَثْتُهُ
فَسَكَّنَ مُهْتَاجاً وَهَيَّجَ سَاكِنَا
سَقَيْتُ بِدَمْعِ العَيْنِ لَمَّا كَتَبْتُهُ
فَعَالَ مُحِبٍّ لَيْسَ فِي الوُدِّ خَائِنَا
فَمَا زَالَ مَاء العَيْنِ يَمْحُو سُطُورَهُ
فَيَا مَاءَ عَيْنِي قَدْ مَحَوتَ المَحَاسِنَا
غَدَا بِدُمُوعِي أَوَّلُ الخَطِّ بَيِّناً
وَأَضْحَى بِدَمْعِي آخِرُ الخَطِّ بَائِنَا

خبر ولقد رأيت كتاب المحب الى محبوبه وقد قطع في يده بسكين له فسال الدم واستمد منه وكتب به الكتاب اجمع ولقد رأيت الكتاب بعد جفوفه فما شككت انه بصبغ اللك .

بابُ السفير

ويقع في الحب بعد هذا بعد حلول الثقة وتمام الاستئناس ادخال السفير ويجب تخيره وارتيـاده واستجادته واستفراهه فهو دليل عقل المرء وبيده حياته وموته وستره وفضيحته بعد الله تعالى فينبغي ان يكون الرسول ذا هيأة حاذقاً يكتفي بالاشارة ويقرطس عن الغائب ويحسن من ذات نفسه ويضع من عقله ما اغفله باعثه ويؤدي الى الذي ارسله كل ما يشاهد على وجهه كاتماً للاسرار حافظاً للعهد وفياً قنوعاً ناصحاً ومن تعدى هذه الصفات كان ضرره على باعثه بمقدار مـا نقصه منها وفي ذلك اقول شعراً منه :

رَسُولُكَ سَيفٌ في يَمِينِكَ فَاسْتَجِدْ
حُسَاماً وَلاَ تَضْرِبْ بِهِ قَبْلَ سَقْلِهِ

فَمَنْ يَكُ ذَا سَيفٍ كَهَامٍ فَضَرُّهُ
يَعُودُ عَلَى المَعْنيِّ مِنْهُ بِجَهْلِهِ

واكثر ما يستعمل المحبون في ارسالهم الى من يحبونه اما حائلا لا يؤبه له ولا يهتدى للتحفظ منه لصباه او لهيأة رثة او بدادة في طلعته واما جليلا لا تلحقه الظنن لنسك يظهره او لسن عالية قد بلغها وما اكثر هذا في النساء ولا سيما ذوات العكاكيز والتسابيح والثوبين الاحمرين واني لاذكر بقرطبة التحذير للنساء المحدثات من هذه الصفات حيث ما رأينها او ذوات صناعة يقرب بها من الاشخاص فمن النساء كالطبيبة والحجامة والسراقة والدلالة والماشطة والنائحة والمغنية والكاهنة والمعلمة والمستخفة والصناع في المغزل والنسج وما اشبه ذلك او ذا قرابة من المرسل اليه لا يشح بها عليه فكم منيع سهل بهذه الاوصاف وعسير يسر وبعيد قرب وجموح انس وكم داهية دهيت الحجب المصونة والاستار الكثيفة والمقاصير المحروسة والسدد المضبوطة لأرباب هذه النعوت ولولا ان انبه عليها لما ذكرتها ولكن لقطع النظر فيها وقلة الثقه بكل احد والسعيد من وعظ بغيره وبالضد اسبل الله علينا وعلى جميع المسلمين ستره ولا ازال عن الجميع ظل العافية خبر واني لاعرف من كانت الرسول بينها حمامة مؤدبة ويعقد الكتاب في جناحها وفي ذلك اقول قطعة منها :

تَخَيَّرَهَا نُوحٌ فَمَا خَابَ ظَنُّهُ
لَدَيْهَا وَجَاءَتْ نَحْوَهُ بِالبَشَائِرِ
سَأُودِعُهَا كُتْبِي إِلَيْكَ فَهَاكَهَا
رَسَائِلُ تُهْدَى فِي قَوَادِمِ طَائِرِ

بَابُ طَيّ السرّ

ومن بعض صفات الحب الكتمان باللسان وجحود المحب ان سئل والتصنع باظهار الصبر وان يرى انه عزهاة خلي ويأبى السر الدقيق ونار الكلف المتأججة في الضلوع الا ظهوراً في الحركات والعين ودبيباً كدبيب النار في الفحم والماء في يبيس المدر وقد يمكن التمويه في اول الامر على غير ذي الحس اللطيف واما بعد استحكامه فمحال وربما يكون السبب في الكتمان تصاون المحب عن ان يسم نفسه بهذه السمة عند الناس لانه يزعمه من صفات اهل البطالة فيفر منه ويتفادى منه وما هذا وجه التصحيح فبحسب المرء المسلم ان يعف عن محارم الله عز وجل التي يأتيها باختياره ويحاسب عليها يوم القيامة واما استحسان الحسن وتمكن الحب فطبع لا يؤمر به ولا ينهى عنه اذ القلوب بيد مقلبها ولا يلزمها غير المعرفة والنظر في فرق ما بين الخطأ والصواب وان يعتقد الصحيح باليقين واما المحبة فخلقة وانما يملك الانسان حركات جوارحه المكتسبة وفي ذلك اقول .

يَلُومُ رِجَالٌ فِيكَ لَمْ يَعْرِفُوا الهَوَى
وَسِيَّان عِنْدي فِيكَ لاَحٍ وَسَاكِتُ

يقُولُونَ جَانَبْتَ التَصَاوُنَ جُمْلَةً
وَأنْتَ عَلَيْهِمْ بالشَرِيعَةِ قَانِتُ

فَقُلْتُ لَهُمْ هَذَا الرياءُ بِعَينِهِ
صُرَاحاً وَزَيٌّ للمُرَائينَ مَاقِتُ

مَتَى جَاءَ تَحْرِيمُ الهَوَى عَنْ مُحَمَّدٍ
وَهَلْ مَنْعُهُ في مُحْكَمِ الذِكْرِ ثَابِتُ

إذَا لَمْ أُوَاقِعْ مَحْرَمَاً أَتَّقِي بِهِ
مَجِيئِي يَومَ البَعْثِ وَالوَجْهُ بَاهِتُ

فَلَسْتُ أُبَالي في الهَوَى قَوْلَ لاَئِمٍ
سَوَاءٌ لَعَمْرِي جَاهِرٌ أوْ مُخافِتُ

وَهَلْ يَلْزَمُ الإنسَانَ إلاَّ اخْتِيَارُهُ
وَهَلْ بِخَبَايَا اللَفْظِ يُؤخَذُ صَامِتُ

خبر واني لأعرف بعض من امتحن بشيء من هذا فسكن الوجد بين جوانحه فرام جحده الى ان غلظ الامر وعرف ذلك في شمائله من

تعرض للمعرفة ومن لم يتعرض وكان من عرض له بشيء نجهه وقبحه الى ان كان من اراد الحظوة لديه من اخوانه يوهمه تصديقه في انكاره وتكذيب من ظن به غير ذلك فسر بهذا ولعهدي به يوماً قاعداً ومعه بعض من كان يعرض له بما في ضميره وهو ينتفي غاية الانتفاء اذا اجتاز بها الشخص الذي كان يتهم بعلاقته فما هو الا ان وقعت عينه على محبوبه حتى اضطرب وفارق هيأته الاولى واصفر لونه وتفاوتت معاني كلامه بعد حسن تثقيف فقطع كلامه المتكلم معه فلقد استدعى ما كان فيه من ذكره فقيل له ما عدا عن ما بدا فقال هو ما تظنون ُعذر من ُعذر وُعذل من ُعذل ففي ذلك اقول شعراً منه :

مَا عَاشَ إلاَّ لِأنَّ المَوْتَ يَرْحَمُهُ
مِمَّا يرَى مِنْ تَبَارِيحِ الضنَى فيه

وأنا أقول

دُمُوعُ الصَبِّ تَنْسَفِكْ   وَسِتْرُ الصَبِّ يَنْهَتِكْ
كَأَنَّ القَلْبَ إِذْ يَبْدو   قَطَاةٌ ضَمَّهَا شَرَكْ
فَيَا أَصْحَابُنَا قُولُوا   فَإِنَّ الرَّأْيَ مُشْتَرِكْ
إِلَى كَمْ ذَا أُكَاتِمُهْ   وَمَا لي عَنْهُ مُتَّرَكْ

وهذا انما يعرض عند مقاومة طبع الكتمان والتصاون لطبع المحب وغلبته فيكون صاحبه متحيراً بين نارين محرقتين وربما كان سبب الكتمان ابقاء

المحب على محبوبه وان هذا لمن دلائل الوفاء وكرم الطبع وفي ذلك اقول :

دَرَى النَّاسُ أَنّي فَتىً عَاشِقٌ
كَئيبٌ مُعَنًّى وَلَكِنْ بِمَنْ

إِذَا عَايَنُوا حَالَتي أَيْقَنُوا
وإن فَتَّشُوا رَجَعُوا في الظِّنَنْ

كَخَطٍّ يُرَى رَسْمُهُ ظَاهِراً
وَإِنْ طَلَبُوا شَرْحَهُ لَمْ يَبِنْ

كَصَوْتِ حَمَامٍ عَلَى أَيْكَةٍ
يُرَجّعُ بالصَوتِ في كُلِّ فَنْ

تَلَذُّ بِفَحْوَاهُ أَسْمَاعُنَــــا
وَمَعْنَاهُ مُسْتَعْجِمٌ لَمْ يَبِنْ

يَقُولُونَ بِاللهِ سَمِّ الَّذي
نَفَى حُبُّهُ عَنْكَ طِيبَ الوَسَنْ

وَهَيْهَاتَ دُونَ الَّذي حَاوَلُوا
ذَهَابُ العُقُولِ وَخَوْضُ الفِتَنْ

فَهُمْ أَبداً في احْتِلاَجِ الشُكُوكِ
بظَنٍّ كَقَطْعٍ وَقَطْعٍ كَظَنْ

وفي كتمان السر أقول قطعة منها :

للسرِّ عِنْدي مَكَانٌ لَوْ يَحُلُّ به
حَيٌّ إذاً لَا اهْتَدَى رَيْبُ المَنُونِ لَهُ

أُمِيتُهُ وَحَيَاةُ السِرِّ مَيْتَتُهُ
كَمَا سُرُورُ المُعَنَّى في الهَوَى الوَلَهُ

وربما كان سبب الكتمان توقي المحب على نفسه من اظهار سره لجلالة قدر المحبوب خبر ولقد قال بعض الشعراء بقرطبة شعراً تغزل فيه بصبح ام المؤيّد رحمه الله فغنت به جارية ادخلت على المنصور محمد بن ابي عامر ليبتاعها فامر بقتلها خبر وعلى مثل هذا قتل احمد بن مغيث واستئصال آل مغيث والتسجيل عليهم الا يستخدم بواحد منهم ابداً حتى كان سبباً لهلاكهم وانقراض بينهم فلم يبق منهم الا الشريد الفالّ وكان سبب ذلك تغزله باحدى بنات الخلفـــاء ومثل هذا كثير ويحكى عن الحسن بن هانىء انه كان مغرماً بحب محمد بن هارون المعروف بابن زبيدة

واحس منه ببعض ذلك فانتهره على ادامة النظر اليه فذكر عنه انه قال انه كان لا يقدم ان يديم النظر اليه إلا مع غلبة السكر على محمد وربما كان سبب الكتمان الا ينفر المحبوب او ينفر بـه فاني ادري من كان محبوبه له سكنا و جليسا ولو باح بأقل سبب من انـه يهواه لكان منه منـاط الثريا قد تعلت نجومها وهذا ضرب من السياسة ولقد كان يبلغ من انبساط هذا المذكور مع محبوبه الى فوق الغاية وابعد النهاية فما هو الا ان باح اليه بما يجد صار لا يصل الى التافـــه اليسير مع التيه ودالة الحب وتمنع الثقة بملك الفؤاد وذهب ذلك الانبساط ووقع التصنع والتجني فكان اخاً فصار عبداً ونظيراً فعاد اسيراً ولو زاد في برجه شيئاً الى ان يعلم خاصة المحبوب ذلك لما رآه الا في الطيف ولانقطع القليل والكثير ولعاد ذلك عليه بالضرر وربما كان من اسباب الكتمان الحيـاء الغالب على الانسان وربما كان من اسباب الكتمان ان يرى المحب من محبوبه انحرافاً وصداً ويكون ذا نفس ابية فيستتر بما يجد لما يجد لئلا يشمت به عدو او يريهم ومن يحب هوان ذلك عليه :

بَابُ الإذَاعةِ

وقد تعرض في الحب الاذاعة وهو من منكر ما يحدث من اعراضه ولها اسباب منها ان يريد صاحب هذا الفعل ان يتزين بزي المحبين ويدخل في عدادهم وهذه خلافة لا ترضي وتخليج بغيض ودعوى في الحب زائفـــة

وربما كان من اسباب الكشف غلبة الحب وتسور الجهر على الحيـــاء فلا يملك الانسان حينئذ لنفسه صرفاً ولا عدلاً وهذا من ابعد غايات العشق واقوى تحكمه على العقل حتى يمثل الحسن في تمثال القبيح والقبيح في هيئة الحسن وهنالك يرى الخير شراً والشر خيراً وكم من مصون الستر مسبل القناع مسدول الغطـاء قد كشف الحب ستره واباح حريمه واهمل حماه فصار بعد الصيانة علماً وبعد السكون مثلًا واحب شيء اليه الفضيحة فيما لو مثل له قبل اليوم لاعتراه النافض عن ذكره ولطالت استعاذته منه فسهل ما كان وعراً وهان ما كان عزيزاً ولان ما كان شديداً ولعهدي بفتى من سروات الرجال وعلية اخواني قد دهي بمحبة جارية مقصورة فلم بها وقطعه حبها عن كثير من مصالحه وظهرت آيات هواه لكل ذي بصر الى ان كانت هي تعذله على ما ظهر منه ممـــا يقوده اليه هوى خبر وحدثني موسى بن عاصم بن عمرو قال كنت بين يدي ابي الفتح والدي رحمه الله وقد امرني بكتاب أكتبه اذ لمحت عيني جارية كنت اكلف بها فلم املك نفسي ورميت الكتاب عن يدي وبادرت نحوها وبهت ابي وظن انه عرض لي عارض ثم راجعني عقلي فمسحت وجهي ثم عدت واعتذرت بأنه غلبني الرعاف واعلم ان هذا داعية نفار المحبوب وفساد في التدبير وضعف في السياسة وما شيء من الاشياء الا وللمأخذ فيه سنة وطريقة متى تعداها الطالب او خرق في سلوكها انعكس بعمله عليه وكان كده عناء وتعبه هبـــاء وبحثه زيادة وكلفـاً زاد عن وجه السيرة انحرافـاً وفي تجنبها اغراقاً وفي غير الطريق ايغالاً ازداد عن بلوغ مراده بعداً وفي ذلك اقول قطعة منها .

وَلا تَسْعَ في الأمرِ الجَسيمِ تهازُؤاً

وَلاَ تَسْعَ جَهْراًفي اليَسيرِ تُريدُهُ

وَقَابِلْ أَفَانِينَ الزَّمَانِ مَتَى يَرِدُ
عَلَيْكَ فَإِنَّ الدَّهْرَ جَمٌّ وُرُودُهُ

فَأَشْكَالُهَا مِنْ حُسْنِ سَعْيِكَ يَكْفِكَ
اليَسِيرُ بَغَيْرٍ وَالشَّرِيدُ شَرِيدُهُ

أَلَمْ تُبْصِرِ المِصْبَاحَ أَوَّلَ وَقْدِهِ
وإِشْعَالِهِ بالنَّفْخِ يُطْفَا وُقُودُهُ

وَإِنْ يَتَصَرَّمْ لَفْحُهُ وَلَهِيبُهُ
فَنَفْحُكَ يُذْكِيهِ وَتَبْدُ مُدُودُهُ

خبر واني لأعرف من اهل قرطبة من ابناء الكتاب وجلّة الخدمة من اسمه بن فتح كنت اعهده كثير التصاون من بغاة العلم وطلاب الادب بيد اصحابه في الانقباض ويفوت في الدعة لا يظهر الا في حلقة فضل ولا يرى الا في محفل مرضيٍّ محمود المذاهب جميل الطريقة بائناً بنفسه ذاهباً بها ثم ابعدت الاقدار داري من داره فاول خبر طرأ عليّ بعد اطلاعي شاطبة انه خلع عذاره في حب فتى من ابناء الفتانين يسمى ابراهيم بن احمد اعرفه لا تستأهل صفاته المحبة من بيته خير وتقدم واموال عريضة ووفر تالد وصحّ عندي انه كشف رأسه وأبدى وجهه ورمى رسنه وحسر محياه وشمر عن ذراعيه وصمد صمد الشهوة فصار حديثاً للسمار ومدافعاً بين نقلة الأخبار وتهوديَ ذكره في الاقطار وجرت نقلته في الارض راحلة بالتعجب ولم يحصل من ذلك الا على كشف الغطاء

واذاعـة السرّ وشنعـة الحديث وفتح الاحدوثة وشرود محبوبه عنه جملة والتحظير عليه من رؤيته البتة وكان غنيا عن ذلك وبمندوحة واسعة ومعزل رحب عنه ولو طوى مكنون سره واخفى بليات ضميره لاستدام لباس العافية ولم ينهج برد الصيانة ولكان له في لقاء من بلي به ومحادثته ومجالسته امل من الامال وتعلل كاف وان حبل الغدر ليقطع بـه والحجة عليه قائمة إلا ان يكون مختلطاً في تمييزه او مصاباً في عقله بجليل ما قدحه فربما آل ذلك لغدر صحيح واما ان كانت بقية او ثبتت مسكة فهو ظالم في تعرضه ما يعلم أن محبوبه يكرهه ويتأذى به هذا غير صفة اهل الحبّ وسيأتي هذا مفسراً في باب الطاعة ان شاء الله تعالى :

ومن اسباب الكشف وجه ثالث

وهو عند اهل العقول وجه مرذول وفعل ساقط وذلك ان يرى المحب من محبوبه غدراً او مللاً او كراهة فلا يجد طريق الانتصاف منه الا بما ضرره عليه اعود منه على المقصود من الكشف والاشتهار وهذا اشد العار واقبح الشنار واقوى بشواهد عدم العقل ووجود السخف وربما كان الكشف من حديث ينتشر واقـاويل تفشو وتوافق قلة مبالاة من المحب بذلك ورضىّ بظهور سره اما لاعجاب واما لاستظهار على بعض ما يؤمله وقد رأيت هذا الفعل لبعض اخواني من ابنـــاء القواد وقرأت في بعض اخبـار الاعراب ان نساءهم لا يقنعن ولا يصدقن عشق عاشق لهن حتى

يشتهر ويكشف حبه ويجاهر ويعلن وينوه بذكرهن ولا أدري ما معنى هذا على انه يذكر عنهن العفاف واي عفاف مع امرأة اذ اقصى مناهـا وسرورها الشهرة في هذا المعنى :

بابُ الطَاعَةِ

ومن عجيب ما يقع في الحب طاعة المحب لمحبوبه وصرفه طباعه قسراً الى طباع من يحبه .... المرء شرس الخلق صعب الشكيمة جموح القياد ماضي العزيمة حمي الانف أبي الخسف فما هو الا ان ينسم نسيم الحب ويتورط غمره ويعوم في بحره عادت الشراسة لياناً والصعوبة سهلة والمضاء كلالة والحمية استسلاماً وفي ذلك اقول قطعة منها :

فَهَلْ لِلْوِصَالِ إِلَيْنَا مَعَــادُ
وَهَلْ لِتَصَارِيف ذَا الدَّهْرِ حَدْ
فَقَدْ أَصبَحَ السَيْفُ عَبْدَ القَضِيبِ
وَأَضحَى الغَزَالُ الأَسِيرُ أَسَدْ

وأقول شعراً منه :

وَإِنِّي وَإِنْ تَعتِبْ لأَهوَنُ هَالِكٍ
كَذَائِبِ نَقْرٍ زَلَّ مِنْ يَدِ جَهْبَذِ

عَلى أنَّ قتْلي في هَـــوَاكَ لَذَاذَةٌ
فَيَا عَجَباً مِنْ هَالِكٍ مُتَلذِّذِ

ومنهــا :

وَلَوْ أَبْصَرَتْ أَنْوَارَ وَجْهِكَ فارِسُ
لأغْنَاهُمُ عَنْ هَرْمُزانٍ وَمُوْبَــذِ

وربما كان المحبوب كارهاً لاظهار الشكوى متبرماً بسماع الوجد فترى المحب حينئذ يكتم حزنه ويكظم أسفه وينطوي على علته وان الحبيب متجن فعندها يقع الاعتذار عند كل ذنب والاقرار بالجريمة والمرء منها بريء تسليماً لقوله وتركاً لمخالفته واني لأعرف من دهي بمثل هذا فما كان ينفك من توجيه الذنوب نحوه ولا ذنب له وايقاع العتاب عليه والسخط وهوى نقيّ الجلد واقول شعراً الى بعض اخواني ويقرب ممـــا نحن فيه وان لم يكن شعراً منه :

وَقَدْ كُنْتَ تَلْقَاني بوَجهٍ لِقُرْبِه
تدَانٍ وَلِلْهِجْرَانُ عَنْ قُرْبِه سَخْطُ

وَمَا تَكْرَهُ العَتْبَ اليَسيرَ سَجِيَّتي
عَلىَ أَنَّهُ قَدْ عِيبَ في الشعَرِ الوَخطُ

فَقَدْ يُتعِبُ الإِنسَانُ في الفِكْرِ نَفْسَه
وَقَدْ يَحْسُنُ الحِيلاَنُ في الوَجْهِ وَالنَقْطُ

تَزِينُ إِذَا قَلَّتْ وَيَفْحِشُ أَمْرُهَـــا
إِذَاأَفْرَطَتْ يَوْماً وَهَلْ يُحْمَدُ الفَرْطُ

ومنـــه :

أَعِنْهُ فَقَدْ أَضْحَى لِفَرْطِ هُمُومِه
يُبَكّي إِذَا القِرْطَاسُ والحِبْرُ والخَطُّ

ولا يقولن قائل ان صبر المحب على ذلة المحبوب دناءة في النفس فقد اخطأ وقد علمنا ان المحبوب ليس له كفواً ولا نظيراً فيقارض بـأذاه وليس سبه وجفاؤه بمـــا يعير به الانسان ولا يبقى ذكره على الاحقاب ولا يقع ذلك في مجالس الخلفـــاء ولا في مقاعد الرؤساء فيكون الصبر مستجرّة للمذلة وضراعة قائدة للاستهانة فقد ترى الانسان يكلف بأمته التي يملك رقها ولا يحول حائل بينه وبين التعدي عليها فكيف الانتصار منها وسبل الامتعاض من السيد غير هذه انمـــا ذلك بين علية الرجال الذين تحصل انفاسهم وتتبع معاني كلامهم فتوجه لها الوجوه البعيدة لانهم لا يرقعونها سدى ولا يلقونها هملاً واما المحبوب فصعدة ثابتة وقضيب مناد يجفو ويرضى متى شاء لا لمعنى وفي ذلك اقول .

لَيسَ التَذَلُّلُ في الهَوَى يُسْتَنْكَرُ
فَالحُبُّ فيه يَخْضَعُ المُسْتَكْبِرُ

لاَ تَعْجَبُوا مِنْ ذِلَّتِي في حَالَةٍ
قَـدْ ذَلَّ فِيهَا قَبْلِيَ المُسْتَبْصِرُ

لَيسَ الحَبِيبُ مُمَاثِلاً ومُكَافِيـاً
فَيَكُونَ صَبرُكَ ذِلَّة إذْ تَصْبِرُ

تَفَّاحَةٌ وَقَعَتْ فَأَلَّمَ وَقْعُهَـا
هَلْ قَطْعُهَا مِنْكَ ٱنْتِصَاراً يُذْكَرُ

خبر وحدثني ابو دلف الوراق عن مسلمة بن احمد الفيلسوف المعروف بالمرجيطي انه قال في المسجد الذي بشرقي مقبرة قريش بقرطبة الموازي لدار الوزير ابي عمر احمد بن محمد بن جدير رحمه الله في هذا المسجد كان مريض مقدّم بن الاصفر ايام حداثته لعشق بعجيب فتى الوزير ابي عمر المذكور وكان يترك الصلاة في مسجد مسرور وبها كان سكناه ويقصد في الليل والنهار الى هذا المسجد بسبب عجيب حتى اخذه الحرس غيرمـا مرة في الليل في حين انصرافه عن صلاة العشاء الاخرة وكان يقعد وينظر منه الى ان كان الفتى يغضب ويضجر ويقوم اليه فيوجعه ضرباً ويلطم خديه وعينيه فيسر بذلك ويقول هذا والله اقصى امنيتي والآن قرّت عيني وكان على هذا زماناً يماشيه قال ابو دلف ولقد حدثنا مسلم بهذا الحديث غير مرة بحضرة عجيب عندما كان يرى من وجاهة

مقدّم بن الاصفر وعرض جاهه وعافيته فكانت حال مقدّم بن الاصفر هذا قـــد جلت جدا واختص بالمظفر بن ابي عامر اختصاصاً شديداً واتصل بوالدته واهله وجرى على يديه من بنيان المساجد والسقايات وتسبيل وجوه الخير غير قليل مع تصرفـــه في كل ما يتصرف فيه اصحاب السلطان من العنـــاية بالناس وغير ذلك خبر واشنع من هذا انه كانت لسعيد بن منذر بن سعيد صاحب الصلاة في جامـــع قرطبة ايام الحكم المستنصر بالله رحمه الله جارية يحبها حبــاً شديداً فعرض عليها ان يعتقها ويتزوجها فقالت له ساخرة بـــه وكان عظيم اللحية إن لحيتك استبشع عظمها فان حذفت منها كان ما ترغبه فاعمل الجلمين فيها حتى لطفت ثم دعا بجماعة شهود واشهدهم على عتقها ثم خطبها الى نفسه فلم ترض بـــه وكان في جملة من حضر اخوه حكم بن منذر فقال لمن حضر اعرض عليها اني اخطبها انا ففعل فاجابت اليه فتزوجها في ذلك المجلس بعينه ورضي بهذا العار الفادح على ورعه ونسكه واجتهاده فانا ادركت سعيداً هـذا وقتله البربر يوم دخولهم قرطبة عنوة وانتهابهم اياها وحكم المذكور اخوه هو رأس المعتزلة بالاندلس وكبيرهم واستاذهم ومتكلمهم وناسكهم وهو مع ذلك شاعر طبيب وفقيه وكان اخوه عبد الملك بن منذر متهماً بهذا المذهب ايضاً وولي خطـــة الرد ايام الحكم رضي الله عنه وهو الذي صلبه المنصور بن أبي عامر اذ اتهمه هو وجماعة من الفقهاء والقضاة بقرطبة انهم يبايعون سراً لعبد الرحمان بن عبيد الله بن امير المؤمنين الناصر رضي الله عنهم فقتل عبد الرحمن وصلب عبد الملك بن منذر وبدد شمل جميع من اتهم وكان ابوهم قاضي القضاة منذر بن سعيد متهماً بمذهب الاعتزال ايضاً وكان اخطب الناس واعلمهم بكل فن واورعهم واكثرهم هزلاً و دعابة وحكم المذكور في الحيـاة في حين كتابتي اليك بهذه الرسالة قد كف بصره واسن جدا خبر ومن عجيب طاعة المحب لمحبوبـــه اني اعرف من كان سهر الليالي الكثيرة ولقي الجهد الجاهد فقطعت قلبه ضروب الوجد ثم

ظفر بمن يحب وليس بـــه امتناع ولا عنده دفع فحين رأى منه بعض الكراهة لما نواه تركه وانصرف عنه لا تعففا ولا تخوفاً لكن توقفاً عند موافقة رضاه ولم يجد من نفسه معيناً على اتيان ما لم ير نفسه له اليه نشاطاً وهو يجد ما يجد واني لأعرف من فعل هذا الفعل ثم تندم تعذر ظهر من المحبوب فقلت في ذلك :

غَافِص الفُرْصةَ وَٱعْلَمْ أَنَّها
كَمُضيِّ البَرْقِ تَمْضي الفُرَصُ

كَمْ أمورٍ أمكنَتْ أُمْهِلُهَا
هِيَ عندي إذْ توَلَّتْ غُصَصُ

بَادِرِ الكَنْزَ ٱلَّذي أَلْفيْتَـــهُ
وٱنْتَهِزْ صَبْراً كَبَازٍ يَقْنِصُ

ولقد عرض مثل هذا بعينه لأبي المظفر عبد الرحمن بن احمـــد بن محمود صديقنا وانشدته ابياتاً لي فطار بها كل مطار واخذها مني فكان هجيراه خبر ولقد سألني يوماً ابو عبد الله محمد بن كليب من اهل القيروان ايام كوني بالمدينة وكان طويل اللسان جداً متفقاً للسؤال في كل فن فقال لي وقـــد جرى بعض ذكر الحب ومعانيه اذا كره من احب لقائي وتجنيب قربي فما اصنع قلت ارى ان تسعى في ادخال الروح على نفسك بلقائه وان كره فقال لكني لا ارى ذلك بل اؤثر هواه على هواي ومراده على مرادي واصبر واصبر ولو كان في ذلك الحتف فقلت له اني انما احببته لنفسي ولالتذاذها بصورته فانا اتبع قياسي واقود

اصلي واقفو طريقتي في الرغبة في سرورها فقال لي هذا ظلم من القياس اشد من الموت ما تمنىّ له الموت واعز من النفس ما بذلت له النفس فقلت له ان بذلك نفسك لم يكن اختياراً بل كان اضراراً ولو أمكنك الا تبذلها لمـــا بذلتها وتركك لقـــاءه اختياراً منك انت فيه ملوم لاضطرارك بنفسك وادخالك الحتف عليها فقال لي انت رجل جدلي ولا جدل في الحب يلتفت فقلت له اذا كان صاحبه مأووفاً فقال واي آفة اعظم من الحب :

بَابُ المُخَالَفَةِ

وربما اتبع المحب شهوته وركب رأسه فبلغ شفاءه من محبوبه وتعمد مسرته منه على كل الوجوه سخط او رضي ومن ساعده على الوقت هذا وثبت جنانه واتيحت له الاقدار استوفى لذته جميعها وذهب غمه وانقطع همــه ورأى أمله وبلغ مرغوبه وقــد رأيت من هذه صفته وفي ذلك اقول ابياتاً منها :

إِذَا أَنَا بَلَّغْتُ نَفْسي المُنَى
مِنْ رَشَاءٍ مَازَالَ لي مُمْرِضَا
فَمَا أُبَالي الكُرْهَ مِنْ طَاعَةٍ
وَلاَ أُبَالي سَخَطـــاً مِنْ رِضَا

إذَا وَجدْتُ الماءَ لاَ بُدَّ أنْ
أُطفي به مشْعَلَ جمْرِ الغَضَا

بابُ العَاذِلِ

وللحب آفات فاولها العاذل والعذال اقسام فاصلهم صديق قد اسقطت مؤنته التحفظ بينك وبينه فعذله افضل من كثير المساعدات وهي من الحظ والنهي وفي ذلك زاجر للنفس عجيب وتقوية لطيفة لها عرض وعمل ودواء تشتد عليه الشهوة ولا سيما ان كان رفيقاً من قوله حسن التواصل الى ما يراد من المعاني بلفظه عالماً بالاوقات التي يؤكد فيها النهي وبالاحيان التي يزيد فيها الامر والساعات التي يكون فيها وقفاً بين هذين على قدر ما يرى من تسهيل العاشق وتوعره وقبوله وعصيانه ثم عاذل زاجر لا يفيق ابداً من الملامة وذلك خطب شديد وعند ثقيل ووقع لي مثل هذا وان لم يكن من جنس الكتاب ولكنه يشبهه وذلك ان ابا السري عمار بن زياد صديقنا اكثر من عذلي على نحو نحوته واعان علي بعض من لامني في ذلك الوجه ايضاً وكنت اظن انه سيكون معي مخطئاً كنت او مصيباً لوكيد صداقتي معه وصحيح اخوتي به ولقد رأيت من اشد وجده وعظم كلفه حتى كان العذل احب شيء اليه ليري العاذل عصيانه ويستلذ مخالفته ويحصل مقاومته اللائمة وغلبته اياه كالملك الهازم لعدوه والمجادل الماهر الغالب لخصمه ويسر بما يقع منه في ذلك وربما

كان هذا المستجلب لعذل العاذل باشياء يوردها توجب ابتداء العذل وفي ذلك اقول ابياتاً منها :

أَحبُّ شيءٍ إِليَّ اللَوْمُ والعَذْلُ
كَي أَسمَعَ اسمَ الَّذي ذِكْرَاهُ لي أَمل

كَأَنَّني شَارِبٌ بالعَذْلِ صافِيةً
وَباسمِ مولايَ بعْدَ الشُّرْبِ أَنتَقِلُ

بابُ المُسَاعِدِ مِنَ الإِخوانِ

ومن الاسباب المتمناة في الحب ان يهب الله عز وجل للانسان صديقاً مخلصاً لطيف القول بسيط الطول حسن المأخذ دقيق المنفذ متمكن البيان مرهف اللسان جليل الحلم واسع العلم قليل المخالفة عظيم المساعفة شديد الاحتمال صابراً من الادلال جم الموافقة جميل المخالفة مستوي المطابقة محمود الخلائق مكفوف البوائق محتوم المساعدة كارهاً للمباعدة نبيل المداخل مصروف الغوائل غامض المعاني عارفاً بالاماني طيب الاخلاق سري الاعراق مكتوم السر كثير البر صحيح الامانة مأمون الخيانة كريم النفس نافذ الحس صحيح الحدس مضمون العون كامل الصون مشهور

الوفـــاء ظاهر الغناء ثابت القريحة مبذول النصيحة مستيقن الوداد سهل الانقياد حسن الاعتقاد صادق اللهجة خفيف المهجـــة عفيف الطباع رحب الذراع واسع الصدر متخلقاً بالصبر يألف الامحاض ولا يعرف الاعراض يستريح اليه ببلابله ويشاركه في خلوة فقره ويفاوضه في مكتوماته وان فيه للمحب لأعظم الراحات واين هذا فان ظفرت به بداك فشدهما عليه شد الظنين وامسك بها امساك البخيل وصنه بطارفك وتالدك فمعه يكمل الانس وتنجلي الاحزان ويقصر الزمان وتطيب الاحوال ولن يفقد الانسان من صاحب هذه الصفة عوناً جميلا ورأياً حسناً ولذلك اتخذ الملوك الوزراء والدخلاء كي يخففوا عنهم بعض ما حملوه من شديد الامور وطوقوه من باهظ الاحمال ولكي يستغنوا بارائهم ويستمدوا بكفاياتهم والا فليس في قوة الطبيعة ان تقاوم كل ما يرد عليها دون استعانة بما يشاكلها وهو من جنسهـا ولقد كان بعض المحبين لعدمـه هذه الصفة من الاخوان وقلة ثقته منهم لما جربه من الناس وانه لم يعدم من باح اليه بشيء من سره احد وجهين اما ازراء على رأيه واما اذاعة لسره اقام الوحدة مقام الانس وكان ينفرد في المكان النـــازح عن الانيس ويناجي الهوى ويكلم الارض ويجد في ذلك راحة كما يجد المريض في التأوه والمحزون في الزفير فان الهموم اذا ترادفت في القلب ضاق بها فان لم ينض منها شيئاً باللسان ولم يسترح الى الشكوى لم يلبث ان يهلك غمـاً ويموت أسفاً وما رأيت الاسعاد اكثر منه في النساء فعندهن من المحافظة على هذا الشأن والتواصي بكتمانه والتواطؤ على طيـــه اذا اطلعن عليه ما ليس عند الرجال وما رأيت امرأة كشفت سر متحابين الا وهي عند النساء ممقوتة مستثقلة مرمية عن قوس واحدة وانه ليوجد عند العجائز في هذا الشأن ما لا يوجد عند الفتيات لان الفتيات منهن ربما كشفن ما علمن على سبيل التغاير وهذا لا يكون الا في الندرة واما العجـائز فقد يئسن من انفسهن فانصرف الاشفاق محضاً الى غيرهن خبر واني لأعلم امرأة موسرة ذات جوار

وخدم فشاع على احدى جواريها انها تعشق فتى من اهلها ويعشقها وان بينهما معاني مكروهة وقيل لها ان جاريتك فلانـــة تعرف ذلك وعندها جلية امرهـــا فاخذتها وكانت غليظة العقوبة فاذاقتها من انواع الضرب والاذاء ما لا يصبر على مثله جلداء الرجال رجاء ان تبوح لها بشيء مما ذكر لها فلم تفعل البتة خبو واني لاعلم امرأة جليلة حافظة لكتاب الله عز وجل ناسكة مقبلة على الخير وقد ظفرت بكتاب لفتى الى جارية كان يكلف بهـــا وكان في غير ملكها فعرفته الامر فرام الانكار فلم يتهيأ له ذلك فقالت له ما لك ومن ذا عصم فلا تبالِ بهذا فوالله لا اطلعت على سركما احداً ابداً ولو امكنتني ان أبتاعها لك من مالي ولو احاط به كله لجعلتها لك في مكان تصل اليها فيه ولا يشعر بذلك احد وانك لترى المرأة الصالحة المسنة المنقطعة الرجاء من الرجال واحب اعمالها اليها وارجاها للقبول عندها سعيها في تزويج يتيمة و اعارة ثيابها وحليها لعروس مقلة وما اعلم علة تمكن هذا الطبع من النساء الا انهن متفرغات البال من كل شيء الا من الجماع ودواعيه والغزل واسبابه والتألف ووجوهه لا شغل لهن غيره ولا خلقن لسواه والرجال مقتسمون في كسب المـــال وصحبة السلطان وطلب العلم وحياطة العيـــال ومكابدة الاسفار والصيد وضروب الصناعات ومباشرة الحروب وملاقاة الفتن وتحمل المخاوف وعمارة الارض وهذا كله متحيف للفراغ صارف عن طريق البطل وقرأت في سير ملوك السودان ان الملك منهم يوكل ثقة له بنسائه يلقي عليهن ضريبة من غزل الصوف يشتغلن بها ابد الدهر لانهم يقولون ان المرأة اذا بقيت بغير شغل انما تشوق الى الرجال وتحن الى النكاح ولقد شاهدت النساء وعلمت من اسرارهن ما لا يكاد يعلمـــه غيري لأني ربيت في حجورهن ونشأت بين ايديهن ولم اعرف غيرهن ولا جالست الرجال الا وانا في حد الشباب وحين يتقبل وجهي وهن علمنني القرآن وروينني كثيراً من الاشعار ودربنني في الخط ولم يكن وكدي واعمال ذهني مذ اول

فهمي وانا في سن الطفولة جداً إلا تعرف اسبابهن والبحث عن اخبارهن وتحصيل ذلك وانا لا انسى شيئاً مما اراه منهن واصل ذلك غيرة شديدة طبعت عليها وسوء ظن في جهتهن فطرت به فاشرفت من اسبابهن على غير قليل وسيأتي ذلك مفسراً في ابوابه ان شاء الله تعالى :

بَابُ الرَّقِيبِ

ومن آفات الحب الرقيب وانه لحمى باطنة وبرسام ملحٌ وفكر مكب والرقباء اقسام فاولهم مثقل بالجلوس غير متعمد في مكان اجتمع فيه المرء مع محبوبه وعزما على اظهار شيء من سرهما والبوح بوجدهما والانفراد بالحديث ولقد يعرض للمحب من القلق بهذه الصفة ما لا يعرض له مما هو اشد منها وهذا وان كان يزول سريعاً فهو عائق حال دون المراد وقطع متوفر الرجاء خبر ولقد شاهدت يوماً محبين في مكان قد ظنا انهما انفردا فيه وتأهبا للشكوى فاستجلبا ما هما فيه من الخلوة ولم يكن الموضع حمى فلم يلبثا ان طلع عليهما من كان يستثقلانه فرأى فعدل إلي واطال الجلوس معي فلو رأيت الفتى المحب وقد تمازج الأسف البادي على وجهه مع الغضب لرأيت عجباً وفي ذلك اقول قطعة منها .

يُطيلُ جُلُوساً وَهوَ أَثْقَلُ جَالِسٍ

وَيُبْدي حَدِيثاً لَستُ أَرْضَى فُنُونَهُ

شَمَامٍ وَرَضْوَى واللُّكَامُ وَيَذْبُلُ
وَلُبْنَانُ وَالضَّمَانُ والحَرْبُ دُونَهُ

ثم رقيب قد احس من امرهما بطرف وتوجس من مذهبها شيئاً فهو يريد ان يستبري حقيقة ذلك فيدمن الجلوس ويطيل القعود ويتجفى بالحركات ويرمق الوجوه ويحصّل الانفاس وهذا اعدا من الحرب واني لأعرف من همّ ان يباطش رقيباً هذه صفته وفي ذلك اقول قطعة منها :

مُوَاصِلٌ لاَ يُغِيبُّ قَصْدَا   أَعْظِمْ بِهَذَا الوِصَالِ غَمَّا
صَارَ وَصِرْنَا لِفَرْطِ مَا لاَ   يزولُ كَالإِسْمِ وَالمُسَمَّا

ثم رقيب على المحبوب فذلك لا حيلة فيه الا بترضية واذا أرضي فذلك غاية اللذة وهذا الرقيب هو الذي ذكرته الشعراء في اشعارها ولقد شاهدت من تلطف في استرضاء رقيب حتى صار الرقيب عليه رقيباً له ومتغافلًا في وقت التغافل ودافعاً عنه وساعياً له ففي ذلك اقول :

وَرُبَّ رَقِيبٍ أَرْقَبُوهُ فَلَمْ يَزَلْ
عَلَى سَيِّدِي عَمْداً لِيُبْعِدَنِي عَنْهُ
فَمَا زَالَتِ الأَلْطَافُ تُحْكِمُ أَمْرَهُ
إِلى أَنْ غَدَا خَوْفِي لَهُ آمِناً مِنْهُ

وَكَانَ حُساماً سلَّ حتَّى يَهُدَّني
فَعَادَ مُحِبّاً مَا لِنِعْمَتِهِ كُنْهُ

وأقول قطعة منها

صارَ حياةً وَكَانَ سَهْمَ رَدَى
وَكَانَ سمّاً فَصَارَ دِرْياقَا

واني لأعرف من رقب على بعض من كان يشفق عليه رقيباً وثق به عند نفسه فكان اعظم الآفة عليه واصل البلاء فيه واما اذا لم يكن في الرقيب حيلة ولا وجد الى ترضية سبيل فلا طمع الا بالاشارة بالعين همساً وبالحاجب احياناً والتعريض اللطيف بالقول وفي ذلك متعة وبلاغ الى حين يقنع به المشتاق وفي ذلك اقول شعراً اوله :

علَى سَيِّدي مِنّي رَقِيبٌ مُحافِظٌ
وَفيَّ لِمَنْ وَالاَهُ لَيسَ بناكثِ

ومنه

وَيَقْطَعُ أَسبَابَ اللُبَانَةِ في الهَوَى
وَيَفْعَلُ فِيهَا فِعْلَ بَعْضِ الحَوَادِثِ

كَأَنَّ لَهُ في قَلْبِهِ رِيْبَةٌ تُرِي
وَفي كُلِّ عَيْنٍ مُخْبِرٌ بالأَحادِثِ

ومنه

عَلَى كُلِّ مَنْ حَوْلِي رَقِيبَانِ رُقّبَا
وَقَدْ خَصَّني ذُو العَرْشِ مِنْهُمْ بثَالِثِ

وأشنع ما يكون الرقيب إذا كان ممن امتحن بالعشق قديماً ودهى به وطالت مدته فيه ثم عرى عنه بعد احكامه لمعانيه فكان راغباً في صيانة من رقيب عليه فتبارك الله اي رقيب ياتي منه واي بلاء منصوب يحل على اهل الهوى من جهته وفي ذلك اقول .

رَقِيبٌ طَالَ مَا عَرَفَ الغَرَامَا
وَقَاسَى الوَجْدَ وَامْتَنَعَ المَنَامَا
وَلاَقَى في الهَوى أَلَماً أَلِيمَاً
وَكَادَ الحُبُّ يُورِدُهُ الحِمَامَا
وَأَيْقَنَ حِيلَةَ الصَّبِّ المُعَنَّى
وَلَمْ يَضَعِ الإشَارَةَ وَالكَلاَمَا
وَأَعْقَبَهُ التَسَلّيَ بَعْدَ هَذَا
وَصَارَ يَرَى الهَوَى عَاراً وَذَامَا

وَصَبَّرَ دُونَ مَنْ أَهوَى رَقِيباً
لِيُبْعِدَ عَنْـــهُ صَبّاً مُسْتَهَامَاً

فَأَيُّ بَلِيّةٍ صُبَّتْ عَلَيْنَـــا
وَأيُّ مُصيبَةٍ حلَّتْ لِمَامَا

ومن طريق معاني الرقبـــاء اني أعرف محبين مذهبها واحد في حب محبوب واحد بعينـــه فلعهدي بها كل واحد منهما رقيب على صاحبه وفي ذلك اقول :

صَبَّانِ هَيْمَانَانِ في وَاحِدٍ
كِلاَهُمَا عَنْ خِدْنِه مُنْحرِفْ
كَالكَلْبِ في الآرِيِّ لاَ يَعْتَلِفْ
وَلاَ يُخَلِّي الغَيْرَ أَنْ يَعْتَلِفْ

بَابُ الوَاشِي

ومن افات الحب الواشي وهو على ضربين احدهما واش يريد القطع بين

المتحابين فقط وان هذا لأفترهما سوأة على انه السم الذعاف والصاب الممقر والحتف القاصد والبــلاء الوارد وربما لم ينجع قيشه واكثر ما يكون الواشي فالى المحبوب واما المحب فهيهات حال الجريض دون القريض ومنع الحرب من الطرب شغله بمـا هو مانع له من استماع الواشي وقد علم الوشاة ذلك وانما يقصدون الى الخلي البال الصائل بجورة الملك المتعب عند اقل سبب وان للوشاة ضروباً من التنقيل فمنها ان يذكر للمحبوب عن من يحب انه غير كاتم للسر وهذا مكان صعب المعاناة بطيء البرء الا ان يوافق معارضاً للمحب في محبته وهذا امر يوجب النفار فلا فرج للمحبوب الا بان تساعده الاقدار بالاطلاع على بعض اسرار من يحب بعد ان يكون المحبوب ذا عقل وله حظ من تمييز ثم يدعه والمطاولة فاذا تكذب عنده نقل الواشي مع ما اظهر من الجفاء والتحفظ ولم يسع لسره اذاعة علم انه انما زور له الباطل واضمحل ما قام في نفسه ولقد شاهدت هذا بعينه لبعض المحبين مع بعض من كان يحب وكان المحبوب شديد المراقبة عظيم الكتمان وكثر الوشاة بينهما حتى ظهرت اعلام ذلك في وجهه وحدث في حب لم يكن وركبته رحمة واظلته فكرة ودهمته حيرة الى ان ضاق صدره وباح بما نقل اليه فلو شاهدت مقام المحب في اعتذازه لعلمت ان الهوى سلطان مطاع وبناء مشدود الاواخي وسنان نافذ وكان اعتزازه بين الاستسلام والاعتراف والانكار والتوبـة والرمي بالمقاليد فبعد لأي ما صلح الامر بينهما وربما ذكر الواشي ان ما يظهر المحب من المحبـة ليست بصحيحة وان مذهبه في ذلك شفاء نفسه وبلوع وطره وهذا فصل وان كان شديداً في النقل فهو ايسر معاناة مما قبله فحالة المحب غير حالة المتلذذ وشواهد الوجد متفرقة بينهما وقد وقع من هذا نبذ كاف في باب الطاعة وربما نقل الواشي ان هوي العاشق مشترك وهذه النار المحرقـة والوجع الفاشي في الاعضاء واذا وافق الناقل لهذه المقالة ان يكون المحب فتى حسن الوجه حلو الحركات مرغوباً فيه مائـلاً الى اللزات دنياوى

الطبع والمحبوب امرأة جليلة القدر مرتبة المنصب فاقرب الاشياء سعيها في اهلاكه وتصديها لحتفه فكم صريع على هذا السبب وكم من سقي السم فقطع امعاءه لهذا الوجه وهذه كانت ميتة مروان بن احمد بن حدير والد احمد المتنسك وموسى وعبد الرحمن المعروفين بابني لبنى من قبل قطر النـــدى جاريته وفي ذلك اقول محذراً لبعض اخواني قطعة منها :

وَهل يأْمنُ النسوَانَ غيرُ مُغَفَّــلٍ
جَهُولٍ لأسبابِ الرَّدَى مُتَأَرِّضِ
وَكمْ وَارِدٍ حوْضاً مِنَ المَوْتِ أَسوَدٍ
تَرَشَّفَهُ مِنْ طَيِّبِ الطَّعْمِ أَبيَضِ

والثاني واش يسعى للقطع بين المحبين لينفرد بالمحبوب ويستأثر به وهذا اشد شيء واقطعه واجزم لاجتهاد الواشي واستفادة لجهده. ومن الوشـــاة جنس ثالث وهو واش يسعى بهما جميعاً ويكشف سرهما وهذا لا يلتفت اليه اذا كان المحب مساعداً .

وفي ذلك أقول

عَجِبْتُ لِوَاشٍ ظَلَّ يَكْتشِفُ أَمرَنا
وَمَا بِسِوَى أَخبَارِنَا يَتَنَفَّسُ

وَمَا ذَا عَلَيْه مِنْ عَنائي وَلَوْعَتي
أَنا آكلُ الرُّمَّانَ وَالوُلْدُ يَضْرِسُ

ولا بد ان اورد ما يشبه ما نحن فيه وان كان خارجاً منه وهو شيء في بيان التنقيل والنمائم فالكلام يدعو بعضه بعضاً كما شرطنا في اوّل الرسالة ما في جميع الناس شرّ من الوشاة وهم النمامون وان النميمة لطبع يدل على نتن الاصل ورداءة الفرع وفساد الطبع وخبث النشأة ولا بدّ لصاحبه من الكذب والنميمة فرع من فروع الكذب ونوع من انواعه وكل نمام كذاب وما احببت كذاباً قط واني لأسامح في اخاء كل ذي عيب وان كان عظيماً واكل امره الى خالقه عز وجل واخر ما ظهر من اخلاقـــه حاشى من اعلمه يكذب فهو عندي مـــاح لكل محاسنه ومعفّ على جميع خصاله ومذهب كل ما فيه فما ارجو عنده خيراً اصلاً وذلك لان كل ذنب فهو يتوب عنه صاحبه وكل ذأم فقد يمكن الاستتار به والتوبة منه حاشى الكذب فلا سبيل الى الرجعة عنه ولا الى كتمانه حيث كان وما رأيت قط ولا اخبرني من رأى كذاباً وترك الكذب ولم يعد اليه ولا بدأت قط بقطيعة ذي معرفة الا ان اطلع له على الكذب فحينئذ اكون انا القاصد الى مجانبته والمتعرض لمتاركته وهي سمة ما رأيتها قط في احد الا وهو مزنون في نفسه اليه بشق مغموز عليه لعاهة سوء في ذاته نعوذ بالله من الخذلان وقد قال بعض الحكماء آخ من شئت واجتنب ثلثة الاحمق فانه يريد ان ينفعك يضرك والملول فـــانه اوثق ما تكون به لطول الصحبة وتأكدها خذلك والكذاب فانه يجني عليك امن ما كنت فيه من حيث لا تشعر وحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حسن العهد من الايمان وعنه عليه السلام لا يؤمن الرجل بالايمان كله حتى يدع الكذب في المزاح حدثنا بها ابو عمر أحمد بن محمد عن محمد بن علي بن رفاعة عن علي بن عبد العزيز عن أبي عبيد القـــاسم بن سلام عن شيوخه والآخر منها مسند الى عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضي الله عنهما والله عز وجل يقول يا ايها الذين امنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه

سئل هل يكون الرجل بخيلا فقال نعم قيل فهل يكون المؤمن جباناً فقال نعم قيل فهل يكون المؤمن كذاباً قال لا حدثناه احمد بن محمد بن احمد عن احمد بن سعيد عن عبيد الله بن يحي عن أبيـــه عن مالك بن انس عن صفوان بن سليم وبهذا الاسنـاد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا خير في الكذب في حديث سئل فيه وبهذا الاسناد عن مالك انه بلغه عن ابن مسعود انه كان يقول لا يزال العبد يكذب وينكت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود القلب فيكتب عند الله من الكذابين وبهذا الاسناد عن ابن مسعود رضي الله عنه انــه قـال عليكم بالصدق فانه يهدي الى البر والبر يهدي الى الجنة واياكم والكذب فـانه يهدي الى الفجور والفجور يهدي الى النار وروي انه اتاه صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اني استتر بثلاث الخمر والزنا والكذب فمرني ايها اترك قال اترك الكذب فذهب منه ثم اراد الزنا ففكر فقال آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسألني ازنيت فـان قلت نعم حدني وان قلت لا نقضت العهد فتركته ثم كذلك في الخمر فعـاد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقـــال يا رسول الله اني تركت الجميع فالكذب اصل كل فاحشة وجامع كل سوء وجالب لمقت الله عز وجل وعن ابي بكر الصديق رضي الله عنه انه قال لا ايمان لمن لا امانة له وعن ابن مسعود رضي الله عنه انه قال كل الخلال يطبع عليها المؤمن الا الخيانة والكذب وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ثلاث من كن فيه كان منافقاً من اذا وعد اخلف واذا حدث كذب واذا أوتُمِنَ خان وهل الكفر الا كذب على الله عز وجل ولله الحق وهو يحب الحق وبالحق قامت السماوات والارض وما رأيت اخزى من كذاب ومـا هلكت الدول ولا هلكت الممالك ولا سفكت الدماء ظلماً ولا هتكت الاستار بغير النمائم والكذب ولا اكتدت البغضـــاء والاحن المردية الا بنمائم لا يحظى صاحبها الا بالمقت والخزي

والذل وان ينظر منه الذي ينقل اليه فضلا عن غيره بالعين التي ينظر بها من الكلب والله عز وجل يقول ويل لكل همزة لمزة ويقول جل من قائل يأيها الذين امنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا فسمى المنقل باسم الفسوق ويقول ولا تطع كل حلاّف مهين همّاز مشاء بنميم مناع للخير معتد اثيم عتلّ بعد ذلك زنيم والرسول عليه السلام يقول لا يدخل الجنة قتّات ويقول واياكم وقاتل الثلثة يعني المنقل والمنقول اليه والمنقول عنه والاحنف يقول الثقة لا يبلّغ وحق لذي الوجهين الا يكون عند الله وجيهاً وهو ما يحمله من اخس الطبائع وارذلها ولى الي ال ابي اسحق ابرهيم بن عيسى الثقفي الشاعر رحمه الله وقد نقل اليه رجل من اخواني عني كذباً على جهة الهذل وكان هذا الشاعر كثير الوهم فاغضبه وصدقه وكلاهما كان لي صديقاً وما كان الناقل اليه من اهل هذه الصفة ولكنه كان المزاح جم الرعاية فكتبت الى ابي اسحق وكان يقول بالخبر شعراً منه :

وَلاَ تَتَبَدَّلْ قَالَةً قَدْ سَمِعْتَهَا
تُقَالُ وَلاَ تَدْرِي الصَحِيحِ بمَا تَدْرِي
كمَنْ قَدْ أَرَاقَ المَاءَ لِلآلِ إِنْ بَدَا
فَلاَقى الرَّدي في الأَفْيَحِ المَهْمَهِ القَفْرِ

وكتبت الى الذي نقل عني شعراً منه :

وَلاَ تَرْعُهَا في الجِدِّ مَزْحاً كَمُولِجٍ
فَسَادِ عِلاَجِ النَفْسِ طَيّ صَلاَحِهَا
وَمَنْ كَانَ نَقْلُ الزُوُرِ أَمْضَى سِلاَحِه
كَمِثْلِ الحُبَارَى تَتَّقي بِسلاَحِهَا

وكان لي صديق مرة وكثر التدخيل بيني وبينه حتى كدح ذلك فيه واستبان في وجهه وفي لحظه وطبعت على التأني والتربص والمسالمة ما امكنت ووجدت بالانخفاض سبيلًا الى معاودة المودة فكتبت اليه شعراً منه :

وَلي فِي ٱلَّـذي أُبدي مَرَامٍ لَوَ انَّهَا

بَدَتْ مَا أَدَّعى حُسْنَ الرِّمَايَةِ وَهرْزُ

واقول مخاطباً لعبيد الله بن يحيى الجزيريّ الذي يحفظ لعمه الرسائل البليغة وكان طبع الكذب قد استولى عليه واستحوذ على عقله وألفه ألفة النفس الامل ويؤكد نقله وكذبه بالايمان المؤكدة المغلظة مجاهراً بهـا اكذب من السراب مستهتراً بالكذب مشغوفاً به لا يزال يحدث من قد صح عنده انه لا يصدقه فلا يزجره ذلك عن ان يحدث بالكذب :

بَدَا كُلُّ مَا كَتَّمْتَهُ بَيْنَ مُخْبِرٍ

وَحالٍ أَرَتْني قُبْحَ عَقْدِكَ بَيِّنَا

وَكَمْ حَالَةٍ صارَتْ بَيَاناً بِحَالَةٍ

كَمَا تُثْبِتُ ٱلأَحكَامَ بِالحَبَلِ الزِنَا

وفيه أقول قطعة منها :

أَنَمُّ مِنَ ٱلمِرْآةِ فِي كُلِّ مَا دَرَى

وَأَقْطَعُ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ قَصَبِ الهِنْدِ

أُظنُّ المَـنَايَا والزّمانَ تعلَّمَـا
تَحيُّلَهُ بالقَطْعِ بَيْنَ ذَوِي الوُدِّ

وفيه ايضاً أقول من قصيدة طويلة :

وأكْذَبُ مِنْ حُسْنِ الظُّنُونِ حديثُهُ
وَأقْبَحُ مِنْ دَيْنٍ وَفقْرٍ مُلازِمِ
أوَامِرُ رَبِّ العَرْشِ أضْيَعُ عِنْدَهُ
وأهْوَنُ مِنْ شَكْوَى إلى غَيْرِ رَاحِمِ
تَجَمَّعَ فيه كُلُّ خِزْيٍ وفَضْحَةٍ
فَلَمْ يُبْقِ شَتْماً في المَقَالِ لِشَاتِمِ
وَأثْقَلُ مِنْ عَذلٍ عَلَى غَيْرِ قَابِلٍ
وَأبْرَدُ بَرْداً مِنْ مَدِينَةِ سَالِمِ
وأبْغَضُ مِنْ بَيْنٍ وَهَجْرٍ وَرِقْبَةٍ
جُمِعْنَ عَلَى حَرّانَ حَيْرَانَ هَائِمِ

وليس من نبّه غافلًا او نصح صديقاً او حفظ مسلماً او حكى عن فاسق او حدث عن عدو ما لم يكذب ولا يكذب ولا تعمد الضغائن منقلا وهل هلك الضعفاء وسقط من لا عقل له الا في قلة المعرفة بالناصح من النمام وهما صفتان متقاربتان في الظاهر متفاوتتان في الباطن احداهما

داء والاخرى دواء والثاقب القريحة لا يخفى عليه امرهما لكن المنقل من كان تنقيله غير مرضي في الديانة ونوى به التشتيت بين الاولياء والتضريب بين الاخوان والتحريش والتوبيش والترقيش فمن خاف ان سلك طريق النصيحة ان يقع في طريق النميمة ولم يثق لنفاذ تمييزه ومضاء تقديره فيما يرده من امور دنياه ومعاملة اهل زمانه فليجعل دينه دليلاً له وسراجاً يستضيء به فحيث ما سلك به سلك وحيث ما اوقفه كفلاً له بالنظر رغماً بالاصابة ضمان الفلج والخلاص فشارع الشريعة وباعث الرسول عليه السلام ومرتب الاوامر والنواهي اعلم بطريق الحق وادرى بعواقب السلامة ومغبات النجاة من كل ناظر لنفسه بزعمه وباحث بقياسه في ظنه :

بَابُ الوَصْلِ

ومن وجوه العشق الوصل وهو حظ رفيع ومرتبة سرية ودرجة عالية وسعد طالع بل هو الحياة المجددة والعيش السني والسرور الدائم ورحمة الله عظيمة ولولا ان الدنيا دار ممر ومحنة وكدر والجنة دار جزاء وامان من المكاره لقلنا ان وصل المحبوب هو الصفاء الذي لا كدر فيه والفرح الذي لا شائبة فيه ولا حزن معه وكمال الاماني ومنتهى الاراجي ولقد جربت اللذات على تصرفها وادركت الحظوظ على اختلافها فما لدنو من السلطان ولا المال المستفاد ولا الوجود بعد العدم ولا الاوبة بعد طول الغيبة ولا الأمن بعد الخوف ولا التروح على المال من الموقع في النفس ما للوصل لا سيما بعد طول الامتناع وحلول الهجر حتى تأجج عليه الجوى ويتوقد لهيب الشوق وتتضرم نار الرجاة وما اصناف

النبات بعد غب القطر ولا اشراق الازاهير بعد اقلاع السحاب الساريات في الزمان السجسج ولا خرير المياه المتحللة لأفانين النوار ولا تأنق القصور البيض قد احدقن بها الرياض الخضر بأحسن من وصل حبيب قد رضيت اخلاقه وحمدت غرائزه وتقابلت في الحسن اوصافه وانه لمعجز ألسنة البلغاء ومقصر فيه بيان الفصحاء وعنده تطيش الالباب وتغرب الافهام وفي ذلك اقول :

وَسَائِلٍ لِيَ عَمَّا لي مِنَ ٱلعُمُرِ
وَقد رَأى الشَيْبَ فيالفَوْدَينِ والعُذُرِ

أَجبتُهُ سَاعَةً لاَ شيءَ أَحسبُهُ
عُمْراً سِوَاهَا بحُكْمِ العَقْلِ وَالنَظَرِ

فَقَالَ لي كَيْفَ ذَا بَيِّنْهُ لي فَلَقَدْ
أَخبرْتَني أَشْنَعَ الأَنْباءِ وَالخَبَرِ

فَقُلْتُ إنَّ ٱلَّتِي قَلْبي بِهاَ عَلِقٌ
قَبَّلْتُهَا قُبْلَةً يوْمــاً عَلَى خَطَرِ

فَمَا أُعدُّ وَلَوْ طَالَتْ سِنِيَّ سِوى
تِلْكَ السُوَيْعَةِ بالتَحْقِيقِ مِنْ عُمُرِي

ومن لذيذ معاني الوصل المواعيد وان للوعد المنتظر مكاناً لطيفاً من شغاف القلب وهو ينقسم قسمين احدهما الوعد بزيارة المحب لمحبوبه وفيه اقول قطعة منها :

أُسَامِرُ البَدْرَ لَمَّا أَبطَأَتْ وَأَرَى
في نُورِهِ مِنْ سَنَا إِشْرَاقِهَا عَرَضَا
فَبِتُّ مُشْتَرِطاً وَالوُدُّ مُخْتَلِطاً
وَالوَصْلُ مُنبَسِطاً وَالهَجْرُ مُنْقَبِضَا

والثاني انتظار الوعد من المحب ان يزور محبوبه وان لمبادي الوصل واوائل الاسعاف لتولجا على الفؤاد ليس لشيء من الاشياء واني لأعرف من كان ممتحناً بهوى في بعض المنازل المصاقبة فكان يصل متى شاء بلا مانع ولا سبيل الى غير النظر والمحادثة زماناً طويلاً ليلاً متى احب ونهاراً الى ان ساعدته الاقدار باجابة ومكنته باسعاد بعد يأسه لطول المدة ولعهدي به قد كاد ان يختلط عقله فرحاً وما كاد يتلاحق كلامه سروراً فقلت في ذلك :

بِرَغْبَةٍ لَوْ إِلى رَبِّي دَعَوْتُ بِهَا
لَكَانَ ذَنبِي عِنْدَ اللهِ مَغْفُورَا
وَلَوْ دَعَوْتُ بِهَا أُسْدَ الفَلَا لَغَدَا
إِضْرَارُهَا عَنْ جَمِيعِ النَّاسِ مَقْصُورَا
فَجَادَ بِاللَّثْمِ لِي مِنْ بَعْدِ مَنْعَتِهِ
فَاهْتَاجَ مِنْ لَوْعَتِي مَا كَانَ مَعْمُورَا
كَشَارِبِ المَاءِ كَي يُطْفِي الغَلِيلَ بِهِ
فَغَصَّ فَانْصَاعَ فِي الأَجْدَاثِ مَقْبُورَا

وقلت

جَرَى الحُبُّ مِنّيَ مَجْرَى النَفَسْ
وَأعطَيْتُ عَيْني عِنَانَ الفَرَسْ
وَلي سَيّدٌ لَمْ يَزَلْ نَـافِراً
وَرُبّتَمَا جَادَ لي في الخُلَسْ
فَقَبّلْتُهُ طَالِباً رَاحَـةً
فَزَادَ أَلِيـلاً بِقَلْبي اليَبَسْ
وَكَانَ فُؤادي كَنَبْتِ هَشيمٍ
يَبيسٍ رَمَى فيه رَامٍ قَبَس

ومنهـا

ويا جَوْهَرَ الصّين سُحْقاً فَقَـدْ
غَنِيتُ بياقُوتَةِ الأنْدَلُسْ

خـبر

وأني لأعرف جارية اشتد وجدها بفتى من ابناء الرؤساء وهو لاعلم عنده وكثر غمها به وطـال أسفها الى ان ضنيت بحبه وهو بعزازة الصبى لا يشعر ويمنعها من ابداء امرها اليه الحياء منه لانها كانت بكراً بخاتمها مع الاجلال له عن الهجوم عليه بما لا تدري لعله توافقه فلمـا تمادى

الامر وكان اليقين في النشأة شكت ذلك الى امرأة جزلة الرأي كانت تثق بها لتوليها تربيتها فقالت لها عرّضي له بالشعر ففعلت المرّة بعد المرّة وهو لا يأبـه في كل هذا ولقد كان لقناً ذكيا ولكنه لم يظن ذلك فيميل الى تفتيش الكلام بوهمه الى ان عيل صبرها وضاق صدرها ولم تمسك نفسها في قعدة كانت لها معه في بعض الليالي منفردين ولقد كان يعلم الله عفيفاً متصاوناً بعيداً من المعاصي فلما حان قيامها عنه إبدرت اليه فقبّلته في فمه ثم ولت في ذلك الحين ولم تكلمه بكلمة وهي تتهادى في مشيها كما اقول في ابيات لي :

كَأَنَّهَا حِينَ تَخْطُو فِي تَأَوُّدِهَا

قَضِيبُ نَرْجِسَةٍ فِي الرَّوْضِ مَيَّاسُ

كَأَنَّمَا خُلْدُهَا فِي قَلْبِ عَاشِقِهَا

فَفِيهِ مِنْ وَقْعِهَا حَفْرٌ وَوَسْوَاسُ

كَأَنَّمَا مَشْيُهَا مَشْيُ الحَمَامَةِ لاَ

كَدٌّ يُعَابُ وَلاَ بُطْؤٌ بِهِ بَاسُ

فبهت وسقط في يده وفت في عضده ووجد في كبده وعلته رحمة فما هو الا ان غابت عينه ووقع في شرك الردى واشتعلت في قلبه النار وتصعدت انفاسه وترادفت اوجاله وكثر قلقه وطال أرقه فما غمّض تلك الليلة عيناً وكان هذا بـدء الحب بينهما دهراً الى ان جذت جملتها يد النوى وان هذا لمن مصائد ابليس ودواعي الهوى التي لا يقف لهـا احد الا من عصمه الله عز وجل ومن الناس من يقول ان دوام الوصل

يودي بالحب وهذا هجين من القول انما ذلك لأهل الملل بل كلما زاد وصلًا زاد اتصالاً وعني اخبرك اني ما رويت قط من ماء الوصل ولا زادني الا ظمأ وهذا حكم من تداوى برأيه وان رفه عنه سريعاً ولقد بلغت من التمكن بمن احب ابعد الغايات التي لا يجد الانسان وراءها مرمى فما وجدتني الا مستزيداً ولقد طال بي ذلك فما أحسست بسآمة ولا رهقتني فترة ولقد ضمني مجلس مع بعض من كنت أحب فلم اجل خاطري في فن من فنون الوصل الا وجدته مقصراً عن مرادي وغير شاف وجدي ولا قاض اقل لبـــانة من لباناتي ووجدتني كلما ازددت دنوا ازددت تلوذاً وقدحت زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعي فقلت في ذلك المجلس :

وَدِدْتُ بأَنَّ القلبَ شقَّ بمُدْيَةٍ
وَأُدْخِلْتِ فيه ثُمَّ أُطبِقَ في صَدْرِي

فَأَصبَحْتِ فيه لاَ تُحَلِّينَ غَيْرَهُ
إلى مُنْقَضَى يَوْمِ القِيَامَةِ وَالحَشْرِ

تَعِيشينَ فيه مَا حَيِيتُ فَإِنْ أُمُتْ
سَكَنْتِ شُغَافَ القَلْبِ في ظُلَمِ القَبْرِ

وما في الدنيا حالة تعدل محبين اذا عدما الرقباء وأمنا الوشاة وسلما من البين ورغبـــا عن الهجر وبعدا عن الملل وفقدا العذال وتوافقا في الاخلاق وتكافيا في المحبة واتاح الله لهما رزقاً دارًّا وعيشاً قارا وزماناً

هادياً وكان اجتماعها على مايرضي الرب من الحال وطالت صحبتها واتصلت الى وقت حاول الحمام الذي لا مرد له ولا بد منه هذا عطاء لم يحصل عليه احد وحاجة لم تقض لكل طالب ولولا ان مع هذه الحـــال الاشفاق من بغتات المقادير المحكمة في غيب الله عز وجل من حاول فراق لم يكتسب واخترام منية في حال الشباب او مــا اشبه ذلك لقلت انها حال بعيدة من كل افــــة وسليمة من كل داخلة ولقد رأيت من اجتمع له هذا كله الا انه كان دهي فيمن كان يحبه بشراسة اخلاق ودالة علم المحبة فكانا لا يتهنيان العيش ولا تطلع الشمس في يوم الا وكان بينهما خلاف فيه وكلاهما كان مطبوعاً بهذا الخلق لثقة كل واحد منهما بمحبة صاحبه الى ان دنت النوى بينهما فتفرّقا بالموت المرتب لهذا العالم وفي ذلك اقول :

كَيْفَ أَذُمُّ النَوَى وَأَظْلِمُهَــــا
وَكُلُّ أَخْــلاَقِ مَنْ أُحِبُّ نَوَى

قَدْ كَانَ يَكْفِي هَوَىً أَضِيقُ بِه
فَكَيْفَ إِذْ حَلَّ بِي نَوًى وَهَوَى

وروي عن زياد بن ابي سفيان رحمه الله انه قال لجلسائه من انعم الناس عيشة قالوا امير المؤمنين فقال واين ما يلقى من قريش قيل فانت قال اين ما القى من الخوارج والثغور قيل فمن أيها الامير قال رجل مسلم له زوجة مسلمة لهما كفاف من العيش قد رضيت به ورضي بها لا يعرفنا ولا نعرفه وهل فيما وافق اعجاب المخلوقين وجلا القلوب واستمال الحواس واستهوى النفوس واستولى على الاهواء واقتطع الالباب واختلس العقول مستحسن يعدل اشفاق محب على محبوب ولقد شاهدت من هذا المعنى كثيراً وانه لمن المناظر العجيبة الباعثة على الرقــــة

الرائقة المعنى لا سيا ان كان هوى يكتتم به فلو رأيت المحبوب حين يعرض بالسؤال عن سبب تغضبه بمحبه وخجلته في الخروج بما وقع فيه بالاعتذار وتوجيهه الى غير وجهه وتحيله في استنباط معنى يقيمه عند جلسائه لرأيت عجباً ولذة مخفية لا تقاومها لذة وما رأيت اجلب للقلوب ولا اغوص على حياتها ولا انفذ للمقاتل من هذا الفعل وان للمحبين في الوصل من الاعتذار ما عجز اهل الاذهان الزكية والافكار القوية ولقد رأيت في بعض المرات هذا فقلت :

إِذَا مَزَجتُ الحَقَّ بالبَاطِلِ
جوَّزتُ مَا شِئتُ عَلىَ الغَافِلِ

وفِيهِا فَرْقٌ صَحِيـــحٌ لَهُ
عَلاَمَةٌ تَبْدُو إِلَى العَاقِـــلِ

كَالتِبْرِ إِنْ تُمْـزَجْ بِهِ فِضَّةٌ
جَازَتْ عَلىَ كُلِّ فَتىً جَاهِلِ

وَإِنْ تُصَادِفْ صَائِغاً مَاهِراً
مَيَّزَ بَيْنَ المَحْضِ وَالحَـــائِلِ

واني لأعلم فتى وجارية كان يكلف كل واحد منهما بصاحبه فكانا يضطجعان اذا حضرهما احد وبينهما المسند العظيم من المساند الموضوعة عند ظهور الرؤساء على الفرش ويلتقي رأساهما وراء المسند ويقبل كل واحد منهما صاحبه ولا يريان وكانهما انما يتمددان من الكلل ولقد كان بلغ من تكافيهما في المودة أمراً

عظيماً الى ان كان الفتى المحب ربما استطال عليها وفي ذلك أقول :

وَمِنْ أَعَاجِيبِ الزَّمَانِ الَّتِي
طَمَّتْ عَلَى السَّامِعِ وَالقَائِلِ

رَغْبَةُ مَرْكُوبٍ إِلَى رَاكِبٍ
وَذِلَّةُ المَسْؤُولِ لِلسَّائِلِ

وَطُولُ مَأْسُورٍ إِلَى آسِرٍ
وَصَوْلَةُ المَقْتُولِ لِلْقَاتِلِ

مَا إِنْ سَمِعْنَا فِي الوَرَى قَبْلَهَا
خُضُوعَ مَأْمُولٍ إِلَى آمِلِ

هَلْ هَاهُنَا وَجْهٌ تَرَاهُ سِوَى
تَوَاضُعِ المَفْعُولِ لِلْفَاعِلِ

ولقد حدثتني امرأة أثق بها انها شاهدت فتى وجارية كانت تجد كل واحد منهما بصاحبه فضل وجد قد اجتمعا في مكان على طرب وفي يد الفتى سكين يقطع بها بعض الفواكه فجرها جراً زائداً فقطع ابهامه قطعاً لطيفا ظهر فيه دم وكان على الجارية غلالة قصب خزائنية لها قيمة فصرفت يدها وخرقتها واخرجت منها فضلة شد بها ابهامه واما هذا الفعل للمحب فقليل فيما يجب

عليه وفرض لازم وشريعة مودة وكيف لا وقد بذل نفسه ووهب روحه فما يمنع بعدهما خبر وانا ادركت بنت زكرياء بن يحيى التميمي المعروف بابن برطال وعمها كان قاضي الجماعة بقرطبة محمد بن يحيى واخوه الوزير القائد الذي كان قتله غالب وقائدين اليه في الوقعة المشهورة بالثغور وهما مروان بن احمد بن شهيد ويوسف بن سعيد العكي وكانت متزوجة بيحيى بن محمد بن الوزير يحيى بن اسحق فعالجته المنايا وهما في أغض عيشهما وانضر سرورهما فبلغ من أسفها عليه ان باتت معه في دثار واحد ليلة مات وجعلته آخر العهد بـه وبوصله ثم لم يفارقها الأسف بعده الى حين موتها وان للوصل المختلس الذي يخاتل به الرقباء ويتحفظ به من الحضر مثل الضحك المستور والنحنحة وجولان الايدي والضغط بالأجناب والقرص باليد والرجل لموقعاً من النفس شهياً وفي ذلك اقول :

إنَ لِلْوَصْلِ الخَفيِّ مَحَلاًّ
لَيسَ لِلْوَصْلِ المكينِ الجَلِيّ
لَذَّةً تَمْزُجُهَا بارتقابٍ
كَتَسيرٍ في خِلاَلِ النَقيّ

خبر ولقد حدثني ثقة من اخواني جليل من اهل البيوتات انه كان علق في صباه جارية كانت في بعض دور اله وكان ممنوعاً منها فهام عقله بهـا قال لي فتنزهنا يوماً الى بعض ضياعنا بالسهلة غربي قرطبة مع بعض اعمامي فتمشينا في البساتين وابعدنا عن المنازل وانبسطنا على الانهار الى ان غيمت السماء واقبل الغيث فلم يكن بالحضرة من الغطاء ما يكفي الجميع قال فأمر عمي ببعض الاغطية فالقي عليّ وأمرها بالاكتنان معي فظُنَّ بما شئت من التمكن على اعين الملا وهم لا يشعرون ويا لك من جمع كخلاء

واحتفال كانفراد قال لي فوالله لا نسيت ذلك اليوم ابداً ولعهدي به وهو يحدثني بهذا الحديث واعضاؤه كلها تضحك وهو يهتز فرحاً على بعد العهد وامتداد الزمان ففي ذلك اقول شعراً منه :

يَضْحَكُ الرَوْضُ وَالسَحَائِبُ تَبْكي
كَحَبِيبٍ رَآهُ صَبٌّ مُعَنَّى

خبر ومن بديع الوصل ما حدثني به بعض اخواني انه كان في بعض المنازل المصاقبة له هوى وكان في المنزلين موضع مطلع من احدهما على الاخر فكانت تقف له في ذلك الموضع وكان فيه بعض البعد فتسلم عليه ويدها ملفوفة في قميصها فخاطبها مستخبراً لها عن ذلك فاجابته انه ربما احس من امرنا شيء فوقف لك غيري فسلم عليك فرددت عليه فصح الظن فهذه علامة بيني وبينك فاذا رأيت يداً مكشوفة تشير نحوك بالسلام فليست يدي فلا تجاوب وربما استحلى الوصال واتفقت القلوب حتى يقع التخلج في الوصال فلا يلتفت الى لائم ولا يستتر من حافظ ولا يبالي بناقل بل العذل حينئذ يغري وفي صفة الوصل اقول شعراً منه :

كَمْ دُرْتَ حولَ الحُبِّ حَتَّى لَقَدْ
حَصَلْتَ فيه كَحُصُولِ الفَرَاشْ

ومنـــه

تَعْشُو إِلَى الوَصلِ دَوَاعي الهَوَى
كَمَا سَرَى نَحْوَ سَنَا النَارِ عَاشْ

ومنـــه

عَلَّلَني بالوَصْلِ مِنْ سَيِّدِي
كَمِثْلِ تَعْليلِ الظَمَا العِطَاشْ

ومنـــه

لاَ تُوقِفِ العَيْنَ عَلَى غَـــايَةٍ
فَالحُسْنُ فيه مُسْتَزِيدٌ وَبَاشْ

وأقول من قصيدة لي

هَلْ لِقَتيلِ الحبِّ مِنْ وَادي
أَمْ هَلْ لِعَاني الحُبِّ مِنْ فَادِي

أَمْ هَلْ لِدَهري عَوْدَةٌ نَحْوَها
كَمِثْـــلِ يَوْمٍ مَرَّ في الوَادِي

ظَلَلْتُ فيه سَابِحاً صَـــادِياً
يَا عَجَباً لِلْسَابِـــحِ الصَّادِي

ضنيتُ يَا مَوْلاَيَ وَجْداً فَمَا
تُبْصِرُني أَلْحَاظُ عُوَّادِي

كَيْفَ اْهتَدَى الوَجْدُ إلى غَائِبٍ
عَنْ أعْيُنِ الحَاضِرِ وَالبَادِي

مَلَّ مُدَاوَاتِي طَبِيبِي فَقَدْ
يَرْحَمُنِي لِلسُّقْمِ حُسَّادِي

بابُ الهَجْرِ

ومن آفات الحب ايضاً الهجر وهو على ضروب فأولها هجر يوجبه تحفظ من رقيب حاضر وانه لأحلى من كل وصل ولولا ان ظاهر اللفظ وحكم التسمية يوجب ادخاله في هذا الباب لرجأت به عنه ولا جللته عن تسطيره فيه فحينئذ ترى الحبيب منحرفاً عن محبه مقبلاً بالحديث على غيره معرضاً لمعرض لئلا تلحق ظنه او تسبق استرابته وترى المحب ايضاً كذلك ولكن طبعه له جاذب ونفسه له صارفة بالرغم فتراه حينئذ منحرفاً كمقبل وساكتاً كناطق وناظراً الى جهة نفسه في غيرها والحاذق الفطن اذا كشف بوهمه عن باطن حديثهما علم ان الخافي غير البادي وما جهر به غير نفس الخبر وانه لمن المشاهد الجالبة للفتن والمناظر المحركة للسواكن الباعثة للخواطر المهيجة للضمائر الجاذبة للفتوة ولي ابيات في شيء من هذا

اوردتها وان كان فيها غير هذا المعنى على ما شرطنا منها :

يَلُومُ أَبو العَبَّاسِ جهْلاً بطَبْعِهِ
كَمَا عَيَّرَ الحُوتُ النَعَامَةَ بالصَدَا

ومنها

وَكَمْ صَاحِبٍ أكْرَمْتُهُ غَيْرَ طَائِعٍ
وَلاَ مُكْرَهٍ إلاَّ لأمْرٍ تَعَمَّدَا

وَمَا كَانَ ذَاكَ البِرُّ إلاَّ لِغَيْرِهِ
كَمَا نَصَبُوا لِلْطَيْرِ بالحَبِّ مِصْيَدَا

وأقول من قصيدة محتوية على ضروب من الحكم وفنون من الآداب الطبيعية :

وَسَرَّاءَ أَحشَائي لِمَنْ أَنَا مُؤْثِرٌ
وَسَرَّاءَ أَبنَائِي لِمَنْ أَتَحَبَّبُ

فَقَدْ يَشْرَبُ الصَابُ الكَرِيهُ لِعَلَّةٍ
وَيَتْرُكُ صَفْوَ الشَهْدِ وَهوَ مُحَبَّبُ

وَأعدِلُ فِي ٱجتِهَادِ نَفْسِيَ فِي ٱلَّذِي
أُرِيدُ وَإِنِّي فِيهِ أَشقَى وَأَتْعَبُ

هَلِ ٱللُّؤْلُؤُ المَكْنُونُ والدُرُّ كُلُّهُ
رَأَيتَ بِغَيْرِ الغَوْصِ فِي البَحْرِ يُطْلَبُ

وَأَصْرِفُ نَفْسِيَ عَنْ وُجُوهِ طِبَاعِهَا
إِذَا فِي سِوَاهَا صَحَّ مَا أَنَا أَرْغَبُ

كَمَا نَسَخَ ٱللهُ الشَرَائِعَ قَبْلَنَا
بِمَا هُوَ أَدْنَى لِلصَلَاحِ وَأَقْرَبُ

وَأَلْقَى سَجَايَا كُلِّ خُلْقٍ بِمِثْلِهَا
وَنَعْتُ سَجَايَايَ ٱلصَحِيحُ المُهَذَّبُ

كَمَا صَارَ لَوْنُ المَاءِ لَوْنَ إِنَائِهِ
وَفِي ٱلأَصْلِ لَوْنُ المَاءِ أَبْيَضُ مُعْجِبُ

ومنها

أَقَمْتُ دُوَى وُدِّي مَقَامَ طَبَائِعِي
حَيَاتِي بِهَا وَالمَوْتُ مِنْهُنَّ يَرْهَبُ

ومنها

وما أَنا ممَّنْ تُطيبهُ بَشاشَةٌ (١)
وَلاَ يَقْتَضي مَا في ضَميري التَجَنُّبُ

أُريدُ نَفاراً عِنْدَ ذَلِكَ بَاطِناً
وفي ظَاهِري أهْلٌ وَسهْلٌ ومَرْحبُ

فَإنّي رَأيتُ الحَرْبَ يَعلُو اشْتِعالُها
وَمَبْدَؤُها في أوَّلِ الأمْرِ مَلْعَبُ

وَلِلْحَيَّةِ الرَقْشاءِ وَشْيٌ وَلَوْنُها
عَجيبٌ وَتَحْتَ الوَشْي سَمٌّ مُرَكَّبُ

وَإنَّ فِرِنْدَ السَيْفِ أعْجَبُ مَنْظَراً
وَفيه إذَا هُزَّ الحِمَامُ المُذَرَّبُ

وأجْعَلُ ذُلَّ النَفْسِ عِزَّةَ أهْلِهَا
إذَا هِيَ نَالتْ مَا بهَا فيه مَذْهَبُ

---

١ – كذا ورد في الأصل وفيه خطأ وزني .

فَقَدْ يَضَعُ الإِنْسَانُ فِي التُّرْبِ وَجْهَهُ
لِيَأْتِي غَداً وَهْوَ المَصُونُ المُقَرَّبُ

فَذُلٌّ يَسُوقُ العِزَّ أَجْوَدُ لِلْفَتَى
مِنَ العِزِّ يَتْلُوهُ مِنَ الذُّلِّ مَرْكَبُ

وَكَمْ مَأْكَلٍ أَرْعَتْ عَوَاقِبَ غِبَّةٍ
وَرُبَّ طَوًى بِالخِصْبِ آتٍ وَمُعْقِبُ

وَمَا ذَاقَ عِزَّ النَّفْسِ مَنْ لاَ يُذِلُّهَا
فَلاَ الْتَذَّ طَعْمَ الرُّوحِ مَنْ لَيْسَ يَنْصَبُ

وُرُودُكَ بَعْدَ المَاءِ مِنْ بَعْدِ ظَمْأَةٍ
أَلَذُّ مِنَ العَلِّ المَكِينِ وَأَعْذَبُ

ومنهـا

وَفِي كُلِّ مَخْلُوقٍ تَرَاهُ تَفَاضُلٌ
فَرِدْ طَيِّباً إِنْ لَمْ يُتَحْ لَكَ أَطْيَبُ
وَلاَ تَرْضَ وِرْدَ الرِّيقِ إِلاَّ ضَرُورَةً
إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الأَرْضِ حَاشَاهُ مَشْرَبُ

وَلاَ تقْرَبَنْ مِلْحَ المِيَاهِ فإنَّهَا
شَجىً والصَدَا بالحُرِّ أوْلَى وأوْجَبُ

ومنها

فَخُذْ مِنْ جرَاهَا ما تَيَسَّرَ وَاْقْتَنِعْ
وَلاَ تَكُ مَشْغُولاً بمَنْ هُوَ يُغلَبُ
فَمَا لَكَ شَرْطٌ عِنْدَهَا لاَ وَلاَ يَدٌ
وَلاَ هِيَ إنْ حصلْتَ أُمٌّ وَلاَ ابُ

ومنها :

وَلاَ تيْأسنْ مِمَّا يُنَالُ بحِيلَةٍ
وَإنْ بَعُدَتْ فَالأمرُ ينْأى وَيَصْعُبُ

وَلاَ تَأمَنِ الإظْلاَمَ فَالفَجْرُ طَالِعٌ
وَلاَ تَلْتَبِسْ بالضَوْءِ فَالشَمْسُ تَغْرُبُ

ومنها

أَلِجِ فَإِنَّ المَاءَ يَكْدَحُ في الصَّفَا
إِذَا طَالَ مَا يَأْتِي عَلَيْهِ وَيَذْهَبُ

وَكَثِّرْ وَلاَ تَفْشَلْ وَقَلِّلْ كَثِيرَ مَا
فَعَلْتَ فَمَا المَرِءُ جَمٌّ وَيَنْضُبُ

فَلَوْ يَتَغَذَّى المَرْءُ بالسَّمِّ قَاتَهُ
وَقَامَ لَهُ مِنْهُ غِذَاءٌ مُجَرَّبُ

ثم هجر يوجبه التذلّل وهو ألذ من كثير الوصال ولذلك لا يكون الا عن ثقة كل واحد من المتحابين بصاحبه واستحكام البصيرة في صحة عقده فحينئذ يظهر المحبوب هجراناً ليرى صبر محبه وذلك لئلا يصفو الدهر البتة وليأسف المحب ان كان مفرط العشق عند ذلك لا لما حل لكن مخافة أن يترقى الأمر الى ما هو أجل يكون ذلك الهجر سبباً الى غيره أو خوفاً من آفة حادث ملل ولقد عرض لي في الصبى هجر مع بعض من كنت آلف على هذه الصفة وهو لا يلبث أن يضمحل ثم يعود فلما كثر ذلك قلت على سبيل المزاح شعراً بديهياً ختمت كل بيت منه بقسيم من أول قصيد طرفة بن العبد المعلقة وهي التي قرأناها مشروحة على أبي سعيد الفتى الجعفري عن أبي بكر المقرىء عن أبي جعفر النحاس رحمهم الله في المسجد الجامع بقرطبة وهي :

تَذَكَّرْتُ وُدّاً للحبيبِ كَأَنَّهُ
لِخَوْلَةَ أَطْلالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ
وَعَهْدي بعَهْدٍ كَانَ لي مِنْهُ ثَابِتٍ
يَلُوحُ كَبَاقِي الوَشْمِ فِي ظَاهِرِ اليَدِ
وَقَفْتُ به لاَ مُوقِنا بِرُجُوعِهِ
وَلاَ آيِساً أَبْكي وَأَبْكي إِلَى الغَدِ
إِلى أَنْ أَطَالَ النَاسُ عذْلي وَأَكْثَرُوا
يَقُولُونَ لاَ تَهْلِكْ أَسىً وَتَجَلَّدِ
كَأَنَّ فُنُونَ السُخْطِ مِمَّنْ أُحِبُّهُ
خَلاَيَا سَفِينٍ بالنوَاصِفِ مِنْ دَدِ
كَأَنَّ انْقِلاَبَ الهَجْرِ وَالوَصْلِ مَرْكَبٌ
يَجُورُ به المَلاَّحُ طَوْراً وَيَهْتَدِي
فَوَقْتُ رِضىً يَتْلُوهُ وَقْتُ تَسَخُّطٍ
كَمَا قَسَمَ التُرْبَ المُفَايِلُ باليَدِ
وَيَبْسِمُ نَحْوي وَهوَ غَضْبَانُ مُعْرِضٌ
مُظَاهِرُ سِمْطَيْ لُؤْلُؤٍ وَزَبَرْجَدِ

ثم هجر يوجبه العتاب لذنب يقع من المحب وهذا فيـــه بعض الشدة لكن فرحة الرجعة وسرور الرضى يعدل مـا مضى فان لرضى المحبوب بعد سخطه لذة في القلب لا تعدلها لذة وموقفاً من الروح لا يفوقه شيء من أسباب الدنيا وهل شاهد مشاهد أو رأت عين أو قام في فكر ألذ وأشهى من مقام قد قام عنه كل رقيب وبعد عنه كل بغيض وغاب عنه كل واش واجتمع فيه محبان قد تصارما لذنب وقع من المحب منهما وطال ذلك قليلًا وبدأ بعض الهجر ولم يكن ثم مانع من الاطـــالة للحديث فابتدأ المحب في الاعتذار والخضوع والتذلل والأدلة بحجته الواضحـة من الادلال والاذلال والتذمم بما سلف فطوراً يدل ببراءته وطوراً يرد بالعفو ويستدعي المغفرة ويقر بالذنب ولا ذنب له والمحبوب في كل ذلك ناظر الى الارض يسارقه اللحظ الخفي وربما أدامه فيه ثم يبسم مخفياً لتبسمه وذلك علامـة الرضى ثم ينجلي مجلسهما عن قبول العذر ويقبل القول وامتحت ذنوب النقل وذهب آثار السخط ووقع الجواب بنعم وذنبك مغفور ولو كان فكيف ولا ذنب وحتماً أمرهما بالوصل الممكن وسقوط العتاب والاسعاد وتفرقا على هذا هذا مكان يتقاصر دونه الصفات وتتلكن بتحديده الألسنة ولقد وطئت بساط الخلفاء وشاهدت محاضر الملوك فمـا رأيت هيبة تعـدل هيبة محب لمحبوبه ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء وتحكـّم الوزراء وانبساط مدبري الدول فما رأيت أشد تبجحاً ولا أعظم سروراً بمـــا هو فيه من محب أيقن أن قلب محبوبه عنده ووثق بميله اليه وصحة مودته له وحضرت مقـام المعتذرين بين أيدي السلاطين ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مـع المتمردين الطاغين فما رأيت أذل من موقف محب هيمان بين يدي محبوب غضبان قد غمره السخط وغلب عليه الجفاء ولقد امتحنت الأمرين وكنت في الحالة الاولى أشد من الحديد وأنفذ من السيف لا أجيب الى الدنيـة ولا أساعد على الخضوع وفي الثانية أذل من الرداء وألين من القطن أبادر الى أقصى غايات التذلل لو نفع واغتنم فرصة الخضوع لو نجع والتحلل بلساني

وأغوص على دقائق المعـــاني ببياني وأفنن القول فنوناً وأتصدى لكل ما يوجب الترضي والتجني بعـــض عواوض الهجران وهو يقع في أول الحب وآخره فهو في أوله علامة لصحة المحبة وفي آخره علامة لفتورهـا وباب السلو خبر واذكر في مثل هذا اني كنت مجتازاً في بعض الايام بقرطبة في مقبرة باب عامر في لمة من الطلاب وأصحاب الحديث ونحن نريد مجلس الشيخ أبي القاسم عبـد الرحمن بن أبي يزيد المصري بالرصـــافة استاذي رضي الله عنه ومعنا أبو بكر عبد الرحمن بن سليمان البلوي من أهل سبتة وكان شاعراً مفلقاً وهو ينشد لنفسه في صفة متجنٍ معهود ابياتـــاً له منها :

سريعٌ إلَى ظَهْرِ الطَرِيقِ وَإنَّـــهُ
إلَى نَقْضِ أسْبَابِ المَوَدَّةِ يُسْرِعُ

يَطُولُ عَلَيْنَا أنْ نُرَقِّعَ وُدَّهُ
إذَا كَانَ في تَرْقِيعِـــه يَتَقَطَّعُ

فوافق انشاد البيت الاول من هاذين البيتين خطور أبي الحسين بن علي الفاسي رحمه الله وهو يؤم ايضـــاً مجلس ابن أبي يزيد فسمعه فتبسم رحمه الله نحونا وطوانا ماشياً وهو يقول بل الى عقد المودة ان شاء الله فهو أولى هذا على جد أبي الحسين رحمه الله وفضله وتقربه وبراءتـــه ونسكه وزهده وعلمه فقلت في ذلك :

دَعْ عَنْكَ نَقْضَ مَودَّتي مُتَعَمِّداً
وَاعْقِدْ حِبَالَ وِصَالِنَا يَا ظَـــالِمُ

وَلَترْجِعَنَّ أردْتَهُ أوْ لَمْ تُرِدْ

كَرْهاً لِمَا قَالَ الفَقيـــهُ العَالِمُ

ويقع فيه الهجر والعتاب ولعمري ان فيه اذا كان قليلاً للذة وأما اذا تفاقم فهو فأل غير محمود وأمارة وبية المصدر وعلامـة سوء وهي بجمـلة الأمر ومطية الهجران وزائد الصريمة ونتيجة التجني وعنوان الثقل ورسول الانفصال وداعية القلى ومقدمة الصد وإنمـــا يستحسن اذا لطف وكان أصله الاشفاق وفي ذلك أقول :

لَعَـلَّكَ بَعـْدَ عَتْبِك أنْ تَجودَا

بمَا مِنْهُ عَتَبْتَ وَأنْ تَزيدَا

فَكَمْ يَوْمٍ رَأيْنَا فيه صَحْواً

وَأسْمَعَنَا بآخِرِهِ الرُّعودَا

وَعَادَ الصَّحْوُ بَعْدُ كمَا عَلِمْنَا

وَأنْتَ كذَاكَ نَرْجو أنْ تَعودَا

وكان سبب قولي هذه الأبيات عتاب وقع في يوم هـذه صفته من

أيام الربيع فقلتها في ذلك الوقت وكان لي في بعض الزمن صديقان وكانا أخوين فغابا في سفر ثم قدما وقد أصابني رمد فتأخرا عن عيادتي فكتبت اليهما والمخاطبة للأكبر منهما شعراً منه :

وَكُنْتُ أُعَـــدِّدُ أيضاً عَلَى
أَخيكَ بمُؤْلِمَـــةِ السَّامِعِ
وَلَكِن إِذَا ألدُّجنُ غَطَّى ذُكَا
فَمَا الظَّنُّ بالقَمَرِ الطَّـــالِعِ

ثم هجر يوجبه الوشاة وقد تقدم القول فيهم وفيما يتولد من دبيب عقاربهم وربما كان سبباً للمقاطعة البتة .

ثم هجر الملل والملل من الاخلاق المطبوعة في الانسان وأحرى لمن دهي به ألا يصفو له صديق ولا يصح له أخاً ولا يثبت على عهد ولا يصبر على إلف ولا تطول مساعدته لمحب ولا يعتقد منـــه ود ولا بغضة وأولى الأمور بالناس أن لا يغرّوه منهم وان يفرّوا عن صحبته ولقائه فلن يخلوا منـه بطائل ولذلك أبعدنا هـــذه الصفة عن المحبين وجعلناها في المحبوبين فهم بالجملة أهل التجني والتظني والتعرض للمقاطعة وأما من تزيّا باسم الحب وهو ملول فليس منهم حقه ان يبرج مذاقه وينفى عن أهل هـذه الصفة ولا يدخل في جملتهم وما رأيت قط هـذه الصفة أشد تغلباً منهـــا على أبي عامر محمد بن عامر رحمه الله فلو وصف لي

وأصف بعض ما علمته منه لما صدقته وأهل هـذا الطبـع اسرع الخلق محبة وأقلهم صبراً على المحبوب وعلى المكروه وبالضد وانقلابهم عن الود على قدر تسرعهم اليه فلا تثق بملول ولا تشغل بـه نفسك ولا تعنهـا بالرجـاء في وفائه فان دُفعت الى محبته ضرورة فعده ابن ساعته واستأنفه كل حين من احيانه بحسب ما تراه من تلونه وقابله بما يشاكله ولقد كان أبو عامر المحدث عنه يرى الجارية فلا يصبر عنها ويحيق به من الاغتمام والهم ما يكاد ان يأتي عليه حتى يملكها ولو حال دون ذلك شوك القتـاد فاذا أيقن بتصيُّرها اليه عادت المحبة نفاراً وذلك الأنس شروداً والقلق اليهـا قلقاً منها ونزاعه نحوها نزاعاً منها فيبيعها بأوكس الاثمان هـذا كان دأبه حتى اتلف فـيما ذكرنا من عشرات ألوف الدنانير عدداً عظيماً وكان رحمه الله مع هذا من أهل الادب والحذق والذكاء والنبل والحلاوة والتوقد مع الشرف العظيم والمنصب الفخم والجاه العريض واما حسن وجهه وكمال صورته فشيء تقف الحدود عنه وتكل الاوهام عن وصف أقله ولا يتعاطى أحد وصفه ولقد كانت الشوارع تخلّ من السيارة ويتعمدون الخطور على باب داره في الشارع الآخذ من النهر الصغير على باب دارنا في الجـانب الشرقي بقرطبة الى الدرب المتصل بقصر الزاهرة وفي هـذا الدرب كانت داره رحمه الله ملاصقة لنا لا لشيء إلا للنظر منه ولقد مـات من محبته جوار كن علّقن أوهامهن به وزُيّن له فخانهن مما املنه منه فصرن رهائن البلى وقتلهن الوحدة وأنا أعرف جارية منهن كانت تسمى عفراء عهدي بها لا تستتر بمحبته حيث ما جلست ولا تجف دموعها وكانت قد تصيرت من داره الى البركات الخيّال صاحب الفتيان ولقد كان رحمـه الله يخبرني عن نفسه انه يمل اسمه فضلاً عن غير ذلك واما اخوانه فانه تبدل بهم في عمره على قصره مراراً وكان لا يثبت على زي واحد كأبي براقش حيناً يكون في ملابس الملوك وحيناً في ملابس الفتاك فيجب على من امتحن بمخالطة من هذه صفته على أي وجه كان ألا يستفرغ عامة جهده في محبته وان يقيم

اليأس من دوامه خصماً لنفسه فاذا لاحت له مخائل الملل قاطعه اياماً حتى ينشط باله ويبعد به عنه ثم يعاوده فربما دامت المودة مع هذا وفي ذلك أقول :

لاَ تَرْجُونَّ مَلُولاً
لَيْسَ المَلُولُ بِعُدَّهْ

وُدُّ المَلُولِ فَدَعْهُ
عَارِيَّةٌ مُسْتَرَدَّهْ

ومن الهجر ضرب يكون متوليه المحب وذلك عندما يرى من جفاء محبوبه والميل عنه الى غيره أو لثقيل يلازمه فيرى الموت ويتجرع غصص الأسى والعض على ثقيف الحنظل أهون من رؤية ما يكره فينقطع وكبده تتقطع وفي ذلك أقول :

هَجَرْتُ مَنْ أَهْوَاهُ لاَ عَنْ قِلًى
يَا عَجَباً لِلْعَاشِقِ الهَاجِرِ

لَكِنَّ عَيْنِي لَمْ تُطِقْ نَظْرَةً
إِلَى مُحَيَّا الرَشَاءِ الغَادِرِ

فَالمَوْتُ أَحلَى مَطْمَعاً مِنْ هَوىً
يُبَاحُ لِلْوَارِدِ وَالصادِرِ

وَفي الفُؤادِ النَارُ مَذْكِيَّةٌ
فَاْعجَبْ لِصَبٍّ جَزِعٍ صَابِرِ

وَقَدْ أَبَاحَ اللّهُ في دِينِهِ
تَقِيَّةَ المَأْسُورِ لِلآسِرِ

وَقَدْ أَحلَّ الكُفْرَ خَوْفَ الرَدَى
حتَّى تَرَى المُؤْمِنَ كَالكَافِرِ

خبر ومن عجيب ما يكون فيها وشنيعه اني اعرف من هام قلبه بمتناء عنه نافر منه فقاسى الوجد زمناً ثم سنحت له الايام بسانحة عجيبة من الوصل اشرف بها على بلوغ أمله فحين لم يكن بينه وبين غاية رجائه الا كهؤلاء عاد الهجر والبعد الى اكثر ما كان قبل فقلت في ذلك :

كَانَتْ إِلَى دَهْرِي لِيَ حَاجَةٌ
مَقْرُونَةٌ في البُعْدِ بِالمُشْتَرِي

فَسَاقَهَا باللُّطْفِ حتَّى إِذَا
كَانَتْ مِنَ القُرْبِ عَلَى مَحْجِرِ

أَبْعَدَهَا عَنِّي فَعَادَتْ كَأَنْ
لَمْ تَبْدُ لِلْعَيْنِ وَلَمْ تَظْهَرِ

وقلت :

دَنَا أَمَلِي حتَّى مَدَدْتُ لأَخْذِهِ
يَداً فَانْثَنَى نَحْوَ المَجرَّةِ رَاحِلاَ

فَأَصْبَحْتُ لاَ أَرْجُو وَقَدْ كُنْتُ مُوقِناً
وَأَضْحَى مَعَ الشِعْرَى وَقَدْ كَانَ حَاصِلاَ

وَقَدْ كُنْتُ مَحْسُوداً فَأَصْبَحْتُ حَاسِداً
وَقَدْ كُنْتُ مَأْمُولاً فَأَصْبَحْتُ آمِلاَ

كَذَا الدَهْرُ في كَرَّاتِهِ وَانْتِقَالِهِ
فَلاَ يَأْمَنَنَّ الدَهْرَ مَنْ كَانَ عَاقِلاَ

ثم هجر القلى وهنا بطلت الاساطير ونفدت الحيل وعظم البلاء وهو الذي خلا العقول ذواهل فمن دهى بهذه الداهية فليتصد لمحبوب محبوبه وليتعمد ما يعرف انه يستحسنه ويجب ان يجتنب ما يدري انه يكرهه فربما عطفه ذلك عليه ان كان المحبوب ممن يدري قدر الموافقة والرغبة فيه واما من لم يعلم قدر هذا فلا طمع في استصرافه بل حسناتك عنده ذنوب فان لم يقدر المرء على استصرافه فليتعمد السلوان وليحاسب نفسه بما هو فيه من البلاء والحرمان ويسعى في نيل رغبته على أي وجه امكنه ولقد رأيت من هذه صفته وفي ذلك اقول قطعة اولها :

دُهِيتُ بِمَنْ لَوْ أَدْفَعُ المَوْتَ دُونَهُ
لَقَالَ إِذاً يَا لَيْتَنِي في المَقَابِرِ

ومنها :

وَلاَ ذَنْبَ لِي إِذْ صِرْتُ أُحْدُو رَكَائِبي
إِلَى الوِرْدِ وَالدُّنْيَا تُسِيءُ مَصَادِرِي

وَمَا ذَا عَلَى الشَّمْسِ المُنِيرَةِ بِالضُّحَى
إِذَا قَصَّرَتْ عَنْهَا ضِعَافُ البَصَائِرِ

وأقول :

ما أَقْبَحَ الهَجْرَ بَعْدَ وَصْلٍ
وَأَحْسَنَ الوَصْلَ بَعْدَ هَجْرٍ

كَالوَفْرِ تَحْوِيهِ بَعْدَ فَقْرٍ
وَالفَقْرِ يَأْتِيكَ بَعْـــدَ وَفْرِ

وأقول :

مَعْهُودُ أَخْلاَقِكَ قِسْمَانِ
وَالدَّهْرُ فِيكَ اليَوْمَ صِنْفَانِ

فَإِنَّكَ النُّعْمَانُ فِي مَا مَضَى
وَكَانَ لِلنُّعْمَانِ يَوْمَانِ

يَوْمُ نَعِيمٍ فِيهِ سَعْدُ الوَرَى
وَيَوْمُ بَأْسَاءَ وَعُدْوَانِ

فَيَوْمُ نُعْمَاكَ لِغَيْرِي وَيَوْمِي مِنْكَ ذُو بُؤْسٍ وَهِجْرَانِ

أَلَيْسَ حُبِّي لَكَ مُسْتَأْهِلاً
لأَنْ تُجَازِيهِ بِإِحْسَانِ

وأقول قطعة منها :

يَا مَنْ جَمِيعُ الحُسْنِ مُنْتَظِمٌ
فيه كَنَظْمِ الدُّرِّ في العِقْدِ

مَا بَالُ حَتْفِي مِنْكَ يَطْرُقُنِي
قَصْداً وَوَجْهُكَ طَالِعُ السَّعْدِ

وأقول قصيدة أولها :

أَسَاعَةُ تَوْدِيعِك أَمْ سَاعَةُ الحَشْرِ
وَلَيْلَةُ بَيْنِي مِنْكَ أَوْ لَيْلَةُ النَشرِ

وَهجْرُكَ تَعْذِيبُ المُوَحِّدِ يَنْقَضِي
وَيَرْجُو التَلاَقِي أَمْ عَذَابُ ذَوِي الكُفْرِ

ومنـــها :

سَقَى اللهُ أَيَّاماً مَضَتْ وَلَيَالِياً
تحَاكِي لَنَا النِيلوفَرَ الغَضَّ فِي النَشْرِ

فَأَوْرَاقُه الأَيَّامُ حُسْناً وَبَهْجَةً
وَأَوْسطُه اللَّيْلُ المُقَصِّرُ لِلعُمْرِ

لَهَوْنَا بِهَا فِي غَمْرَةٍ وَتَأَلُّفٍ
تَمُرُّ فَلاَ تَدْرِي وَتأتِي فَلاَ تَدْرِي

فَأَعْقَبَنَا مِنْهُ زَمَــــانٌ كَأَنَّه
وَلاَ شَكَّ حُسْنُ العَقْدِ أُعْقِبَ بِالغَدْرِ

ومنهـــا :

فَلاَ تَيْأَسِي يَا نَفْسُ عَلَّ زَمَانَنَا
يَعودُ بِوَجْهٍ مُقْبِلٍ غَيْرِ مُدْبِرِ

كَمَا صَرَّفَ الرَّحْمَانُ مُلْكَ أُمَيَّةٍ
إِلَيْهِمْ وَلوذِي بالتَحَمُّلِ وَالصَبْرِ

وفي هذه القصيدة أمدح أبا بكر هشام بن محمد أخا أمير المؤمنين عبد الرحمن المرتضى رحمه الله .

فأقول :

أَلَيسَ يُحِيطُ الرُوحُ فِينَا بِكُلِّ مَا
دَنَا وَتَنَاءَى وَهْوَ فِي حُجُبِ الصَدْرِ

كَذَا الدَهْرُ جِسْمٌ وَهْوَ فِي الدَّهْرِ رُوحُهُ
مُحِيطٌ بِمَا فيه وَإِنْ شِئتَ فَاسْتَبْرِي

ومنهـــا :

إتاوَتُهَا تُهْدَى إِلَيْه وَمِنَّـــةٌ
تَقَبُّلُهَا مِنْهُمْ يُقَاوَمُ بالشُكْرِ

كَذَا كُلُّ نَهْرٍ فِي البِلَادِ وَإِنْ طَمَتْ
غَزَارَتُه يَنْصَبُّ في لُجَجِ البَحْرِ

بَابُ الوَفَاءِ

ومن حميد الغرائز وكريم الشيم وفاضل الاخلاق في الحب وغيره الوفاء . وانـه لمن اقوى الدلائل واوضح البراهين على طيب الاصل وصرف العنصر وهو يتفاضل بالتفاضل اللازم للمخلوقات وفي ذلك اقول قطعـــة منها :

أَفْعَالُ كُلِّ ٱمْرِىءٍ تُنْبي بعـنْصُرِهِ
وَٱلعـَيْنُ تُغْنِيكَ عَنْ أَنْ تَطْلُبَ ٱلأثَرَا

ومنهـــا :

وَهَلْ تَرَى قَطُّ دِفْلَى أَنْبَتَتْ عِنَباً
أَوْ تَذْخَرُ النَـحْلُ في أَوْكَارِهَا الصَـبِرَا

وأول مراتب الوفاء أن يفي الانسان لمن يفي له وهذا فرض لازم وحق واجب على المحب والمحبوب لا يحول عنه الا خبيث المحتد لا أخلاق له ولا خير عنده ولولا ان رسالتنا هذه لم نقصد بها الكلام في اخلاق

ألنساء وصفاتها المطبوعة والتطبع بها وما يزيد من المطبوع بالتطبع ومـــا يضمحل من التطبـع بعدم الطبـع لزدت في هذا المكان ما يجب ان يوضع في مثله ولكنا انما قصدنا التكلم فيما رغبته من أمر الحب فقط وهذا أمر كان يطول جداً اذا الكلام فيه يتفنن كثيراً خبر ومن اشنع ما شاهدته من الوفاء في هذا المعنى وأهوله شأناً قصة رأيتها عياناً وهو اني اعرف من رضي بقطيعة محبوبه وأعز الناس عليه ومن كان الموت عنده احلى من هجر ساعة في جنب طيه لسر أودعه والتزم محبوبه يميناً غليظة ألا يكلمه ابداً ولا يكون بينهما خبر أو يفضح اليه ذلك السر على ان صاحب ذلك السر كان غائباً فأبى من ذلك وتمادى هو على كتمانه والثاني على هجرانه الى ان فرقت بينهما الايام .

ثم مرتبة ثانية وهو الوفاء لمن غدر وهي للمحب دون المحبوب وليس للمحبوب هـا هنا طريق ولا يلزمه ذلك وهي خطة لا يطيقها إلا جـلد قوي واسع الصدر حر النفس عظيم الحلم جليل الصبر خصيف العقدة ماجد الخلق سالم النية ومن قابل الغدر بمثله فليس بمستأهل للملامـة ولكن الحال التي قدمنا تفوقها جداً وتفوتها بعداً وغاية الوفاء في هذه الحال ترك مكافأة الأذى بمثله والكف عن سيء المعارضة بالفعل والقول والثاني في جر حبل الصحبة ما أمكن ورجيت الألفة وطمع في الرجعة ولاحت للعودة أدنى مخيلة وشيمت بها أقل بارقة أو توجس منها أيسر علامة فـاذا وقع اليأس واستحكم الغيظ حينئذ والسلامة من غرك والامن من ضرك والنجاة من اذاك وان يكون ذكر ما سلف مانعاً من شفاء الغيظ فيما وقع فرعي الأذمّة حق وكيد على اهل العقول والحنين الى ما مضى وألا ينسى مـا قد فرغ منه وفنيت مدته اثبت الدلائل على صحة الوفاء وهذه الصفة حسنة جـداً وواجب استعمالها في كل وجه من وجوه معاملات الناسّ فيما بينهم على أي حال كانت خبز ولعهدي برجل من صفوة اخواني قد علق بجارية فتأكد

الودّ بينهما ثم غدرت بعهده ونقضت ودّه وشاع خبرهما فوجد لذلك وجداً شديداً خبر وكان لي مرة صديق ففسدت نيته بعد وكيد مودة لا يكفر بمثلها وان علم كل واحد منا سر صاحبه وسقطت المؤنة فلما تغير عليّ أفشى كل ما اطّلع لي عليه ما كنت اطلعته منه على اضعافه ثم اتصل به ان قوله فيّ قد بلغني فجزع لذلك وخشي ان اقارضه على قبيح فعله وبلغني ذلك فكتبت اليه شعراً أؤنسه فيه واعلمه اني لا اقارضه خبر ومما يدخل في هذا الدرج وان كان ليس منه ولا هذا الفصل المتقدم من جنس الرسالة والباب ولكنه شبيه له على ما قد ذكرنا وشرطنا وذلك ان محمد بن وليد بن مكسير الكاتب كان متصلاً بي ومنقطعاً الي ايام وزارة أبي رحمة الله عليه فلما وقع بقرطبة ما وقع وتغيرت الاحوال خرج الى بعض النواحي فاتصل بصاحبها فعرض جاهه وحدثت له وجاهة وحال حسنة فحللت أنا تلك الناحية في بعض رحلتي فلم يوفني حقي بل ثقل عليه مكاني واساء معاملتي وصحبتي وكلفته في خلال ذلك حاجة لم يقم فيها ولا قعد واشتغل عنها بما ليس في مثله شغل فكتبت اليه شعراً اعاتبه فيه فجاوبني مستعتباً وعلى ذلك فما كلفته حاجة بعدها ومما لي في هذا المعنى وليس من جنس الباب ولكنه يشبهه ابيات قلتها منها :

وَلَيْسَ يُحْمَدُ كِتْمَانٌ لِمُكْتَتِمٍ
لَكِنَّ كَتْمَكَ مَا أَفْشَاهُ مُفْشِيهِ
كَالْجُودِ بِالْوَفْرِ أَسْنَى مَا يَكُونُ إِذَا
قَلَّ الوُجُودُ لَهُ أَوْ ضَنَّ مُعْطِيهِ

ثم مرتبة ثالثة وهي الوفاء مع اليأس البات وبعد حلول المنايا وفجاءات المنون وان الوفاء في هذه الحالة لأجلّ واحسن منه في الحياة ومع رجاء اللقاء خبر ولقد حدثتني امرأة اثق بها انها رأت في دار محمد بن احمد ابن وهب المعروف بابن الركيزة من ولد بدر الداخل مع الامام عبد الرحمن بن معاوية رضي الله عنه جارية رائعة جميلة كان لها مولى فجاءته المنية فبيعت في تركته فأبت ان ترضى بالرجال بعده وما جامعها رجل الى ان لقيت الله عز وجل وكانت تحسن الغناء فأنكرت علمها به ورضيت بالخدمة والخروج عن جملة المتخذات للنسل واللذة والحال الحسنة وفاء منها لمن قد دثر ووارته الارض والتأمت عليه الصفائح ولقد رامها سيدها المذكور ان يضمها الى فراشه مع سائر جواريه ويخرجها مما هي فيه فأبت فضربها غير مرة واوقع بها الادب فصبرت على ذلك كله فأقامت على امتناعها وان هذا من الوفاء غريب جداً، واعلم ان الوفاء على المحب أوجب منه على المحبوب وشرطه له ألزم لأن المحب هو البادي باللصوق والتعرض لعقد الاذمة والقاصد لتأكيد المودة والمستدعي صحة العشرة والاول في عدد طالب الاصفياء والسابق في ابتغاء اللذة باكتساب الخلة والمقيد نفسه بزمام المحبة قد علقها بأوثق عقال وخطمها بأشد خطام فمن قسره على هذا كله ان لم يرد اتمامه ومن اجبره على استجلاب المقة ان لم ينو حتمها بالوفاء لمن اراده عليها والمحبوب انما هو مجلوب اليه ومقصود نحوه ومخيّر في القبول أو الترك فان قبل فغاية الرجاء وان أبى فغير مستحق للذم وليس التعرض للوصل والالحاح فيه والتأني لكل ما يستجلب به من الموافقة وتصفية الحضرة والمغيب من الوفاء في شيء فحظ نفسه أراد الطالب وفي سروره سعي وله اختطب والحب يدعوه ويحدوه على ذلك شاء أو أبى وانما يحمد الوفاء ممن يقدر على تركه وللوفاء شروط على المحبين لازمة فأولها ان يحفظ عهد محبوبه ويرعى غيبته ويستوي علانيته وسريرته ويطوي شره وينشر خيره ويغطي على

عيوبه ويحسن افعاله ويتغافل عما يقع منه على سبيل الهفوة ويرضى بما حمله ولا يكثر عليه بما ينفر منه والا يكون طلعه ثؤوباً ولا مله طروقاً وعلى المحب ان ساواه في المحبة مثل ذلك وان كان دونه فيها فليس للمحب ان يكلفه الصعود الى مرتبته ولا له الاستشاطة عليه بأن يسومه الاستواء معه في درجته وبحسبه منه حينئذ كتمان خبره والا يقابله بما يكره ولا يخيفه به وان كانت الثالثة وهي السلامة مما يلقى بالجملة فليقنع بما وجد وليأخذ من الأمر ما استدف ولا يطلب شرطاً ولا يقترح حقداً وانما له ما سنح بجده أو ما حان بكده واعلم انه لا يستبين قبح الفعل لأهله ولذلك يتضاعف قبحه عند من ليس من ذويه ولا اقول قولي هذا ممتدحاً ولكن آخذاً بأدب الله عز وجل وأما بنعمة ربك فحدث لقد منحني الله عز وجل من الوفاء لكل من يمتّ الي بلقية واحدة ووهبني من المحافظة لمن يتذمم مني ولو بمحادثته ساعة حظاً انا له شاكر وحامد ومنه مستمد ومستزيد وما شيء اثقل علي من الغدر ولعمري ما سمحت نفسي قط في الفكرة في اضرار من بيني وبينه اقل ذمام وان عظمت جريرته وكثرت الي ذنوبه ولقد دهمني من هذا غير قليل فما جزيت على السوءى الا بالحسنى والحمد لله على ذلك كثيراً وبالوفاء افتخر في كلمة طويلة ذكرت فيها ما مضّنا من النكبات ودهمنا من الحل والترحال والتحول في الآفاق اولها :

وَلىَّ فَوَلّى جَميلُ الصَبْرِ يَتْبَعُهُ
وَصَرَّحَ الدَّمعُ مَا تُخْفِيه أضْلُعُهُ

جسْمٌ مَلُولٌ وَقَلْبٌ آلِفٌ فَإذَا
حلَّ الفِرَاقُ عَلَيْه فَهْوَ مُوجِعُهُ

لَمْ تَستَقِرَّ به دَارٌ ولاَ وَطَنٌ
ولاَ تَدَفَّأَ مِنْهُ قطُّ مَضْجَعُهُ

كَأنَّمَا صِيغَ مِنْ زَهْوِ السَحَابِ فَمَا
تزَالُ رِيحٌ إلى الآفاقِ تَدْفَعُهُ

كَأنَّمَا هُوَ تَوْحِيدٌ تَضِيقُ به
نَفسُ الكَفُورِ فتأبَى حينَ تُودَعُهُ

اوْكَوْكَبٌ قَاطِعٌ في الأفْقِ مُنْتَقِلٌ
فَالسَيْرُ يُغرِبُهُ حِيناً وَيُطلِعُهُ

أَظُنُّه لَوْ جَزَتْه أَوْ تُسَاعِدُه
أَلْقَتْ عَلَيْه انْهِمَالَ الدَمْعِ يَتْبَعُهُ

وبالوفاء ايضا افتخر في قصيدة لي طويلة اوردنها وان كان اكثرها ليس من جنس الكتاب فكان سبب قولي لها ان قوماً من مخالفي شرقوا بي فأساءوا العتب في وجهي وقذفوني باني اعضد الباطل بحجتي عجزاً منهم عن مقاومة ما اوردته من نصر الحق واهله وحسدا لي فقلت وخاطبت بقصيدتي بعض اخوان ذا فهم منها :

وَخُذْني عَصَا مُوسَى وَهَاتِ جَمِيعَهُمْ
وَلَوْ أنـهُمْ حَيَّاتُ ضَـــالٍ نَضَانِضُ

ومنهـــا :

يُرِيغونَ في عَيْنِي عَجَائِبَ جَمَّةً
وَقَدْ يُتَمَنَّى اللَّيْثُ وَاللَّيْثُ رَابِضُ

ومنهـــا :

وَيَرْجُونَ مَا لاَ يَبْلُغُونَ كَمِثْلِ مَـــا
يُرَجِّي مُحَالاً في الإِمَامِ الروَافِضُ

ومنهـــا :

وَلَوْ جَلَدِي في كُلِّ قَلْبٍ وَمُهْجَـــةٍ
لَمَا أَثَّرتْ فِيهَـــا العُيُونُ المَرَائِضُ

أَبتْ عَنْ دَنيٍّ الوَصفِ ضَرْبَةَ لازِمٍ
كَما أَبتِ الفِعْلَ الحُرُوفُ الخَوافِضُ

ومنهـــا :

ورَأْيي لَهُ في كُلِّ ما غابَ مَسلَكٌ
كَمَا تَسْلُكُ الجِسْمَ العُرُوقُ النَواقِضُ

يَبينُ مَدَبُّ النَمْلِ في غَيْرِ مُشْكِلِ
وَيُسْتَرُ عَنهُمْ لِلأُبُولِ المَرابِضُ

بَابُ الغَدْرِ

وكما أن الوفاء من سريّ النعوت ونبيل الصفات فكذلك الغدر من ذميمها ومكروهها وإنما يسمى غدراً من البادي به وأما المقارض بالغدر

على مثله وان استوى معه في حقيقة الفعل فليس بغدر ولا هو معيباً بذلك والله عز وجل يقول وجزاء سيئة سيئة مثلها وقد علمنا ان الثانية ليست بسيئة ولكن لما جانست الاولى في الشبه اوقع عليها مثل اسمها وسيأتي هذا مفسراً في باب السلو ان شاء الله ولكثرة وجود الغدر في المحبوب استغرب الوفاء منه فصار قليله الواقع منهم يقاوم الكثير الموجود في سواهم وفي ذلك اقول :

قَليلُ وَفاءِ مَنْ يُهْوَى يَجِــلُّ
وَعُظْمُ وَفاءِ مَنْ يَهْوَى يَقِلُّ

فَنَادِرَةُ الجَبَانِ أَجَــلُّ مِمَّــا
يَجيءُ به الشُجَاعُ المُسْتَقِــلُّ

ومن قبيح الغدر ان يكون للمحب سفير الى محبوبه يستريح اليــه باسراره فيسعى حتى يقبله الى نفسه ويستأثر به دونه وفيه اقول :

أَقْمتُ سَفِيراً قَاصِداً في مَطَــالِبي
وَثِقْتُ بهِ جَهْــلاً فَضَرَّبَ بَيْنَنَا

وَحلَّ عُرَى وُدِّي وَأَثْبَتَ وُدَّهُ
وَأَبْعَدَ عَنّي كُلَّ مَا كَانَ مُمْكِنَا

فَصِرْتُ شَهِيداً بَعْدَمَا كُنْتُ مُشْهِداً
وَأَصْبَحْتُ ضَيْفاً بَعْدَمَا كَانَ ضَيْفُنَا

خبر ولقد حدثني القاضي يونس بن عبد الله قال اذكر في الصبى جارية في بعض السدد يهواها فتى من اهل الادب من ابناء الملوك ونهواه ويتراسلان وكان السفير بينهما والرسول بكتبهما فتى من اترابـــه كان يصل اليها فلما عرضت الجارية للبيع اراد الذي كان يحبها ابتياعها فبدر الذي كان رسولاً فاشتراها فدخل عليها يومـاً فوجدها قد فتحت درجاً لها تطلب فيه بعض حوائجها فأتى اليها وجعل يفتش الدرج فخرج اليه كتاب من ذلك الفتى الذي كان يهواها مضمخاً بالغالية مصوناً مكرماً فغضب وقال من اين هذا يا فاسقة قالت انت سقته الي فقال اعله محدث بعد ذاك الحين فقالت مـا هو الا من قديم تلك التي تعرف قال فكانما القمته حجراً فسقط في يديه وسكت .

بَابُ البَيْنِ

وقد علمنا انه لا بد لكل مجتمع من افتراق ولكل دان من تنـــاء وتلك عادة الله في العباد والبلاد حتى يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين ومــــا شيء من دواهي الدنيا يعدل الافتراق ولو سألت الارواح به فضلًا عن الدموع كان قليلًا وبعض الحكماء سمع قائلًا الفراق

اخو الموت فقال بل الموت اخو الفراق والبين ينقسم اقساماً فأولها مدة يوقن بانصرامها وبالعودة عن قريب وانه لشجى في القلب وغصة في الحلق لا تبرأ الا بالرجعة وانا اعلم من كان يغيب من يحب عن بصره يوماً واحداً فيعتريه من الهلع والجزع وشغل البال وترادف الكرب ما يكاد يأتي عليه ثم بين منع من اللقاء وتحظير على المحبوب من ان يراه محبه فهذا ولو كان من تحبه معك في دار واحدة فهو بين لأنه بائن عنك وان هذا ليولد من الحزن والأسف غير قليل ولقد جربناه فكان مرا وفي ذلك اقول ،

أَرَى دَارَهَا فِي كُلِّ حِينٍ وَسَاعَةٍ
وَلَكِنَّ مَنْ فِي الدَّارِ عَنِّي مُغَيَّبُ

وَهَلْ نَافِعِي قُرْبُ الدِّيَارِ وَأَهْلُهَا
عَلَى وَصْلِهِمْ مِنِّي رَقِيبٌ مُرَقَّبُ

فَيَا لَكَ جَارَ الجَنْبِ أَسْمَعُ حِسَّهُ
وَأَعْلَمُ أَنَّ الصِّينَ أَدْنَى وَأَقْرَبُ

كَصَادٍ يَرَى مَاءَ الطَّوِيِّ بِعَيْنِهِ
وَلَيْسَ إِلَيْهِ مِنْ سَبِيلٍ يُسَبَّبُ

كَذَلِكَ مَنْ فِي اللَّحْدِ عَنْكَ مُغَيَّبٌ
وَمَا دُونَهُ إِلاَّ الصَّفِيحُ المُنَصَّبُ

وأقول من قصيدة مطولة:

مَتَى تَشْتَفِي نَفْسٌ أَضَرَّ بِهَا الوَجْدُ
وَتَصْقَبُ دَارٌ قَدْ طَوَى أَهْلَهَا البُعْدُ

وَعَهْدِي بِهِنْدٍ وَهْيَ جَارَةُ بَيْتِنَا
وَأَقْرَبُ مِنْ هِنْدٍ لِطَالِبِهَا الهِنْدُ

بَلَى إِنَّ فِي قُرْبِ الدِّيَارِ لَرَاحَةً
كَمَا يُمْسِكُ الظَّمْآنَ أَنْ يَدْنُوَ الوِرْدُ

ثم بين يتعمده المحب بعداً عن قول الوشاة وخوفاً ان يكون بقاؤه سبباً الى منع اللقاء وذريعة الى ان يفشو الكلام فيقع الحجاب الغليظ ثم بين يولده المحب لبعض ما يدعوه الى ذلك من آفات الزمان وغدره مقبول او مطرح على قدر الحافز له الى الرحيل خبر ولعهدي بصديق لي داره المرية فعنت له حوائج الى شاطبة فقصدها وكان نازلاً بها في منزلي مدة إقامته بها وكان له بالمرية علاقة هي اكبر همه وادهى غمه وكان يؤمل تبتيته وفراغ اسبابه وان يوشك الرجعة ويسرع الاوبة فلم يكن الا حين

لطيف بعد احتلاله عندي حتى جيش الموفق أبو الحسن مجـــاهد صاحب الجزائر الجيوش وقرب العساكر ونابـذ خيران صاحب المرية وعزم على استئصاله فانقطعت الطرق بسبب هذه الحرب وتحوميت السبل واحترست البحر بالاساطيل فتضاعف كربه اذ لم يجد الى الانصراف سبيلاً البتة وكاد يطفأ أسفاً وصار لا يأنس بغير الوحدة ولا يلجأ الا الى الزفير والوجوم ولعمري لقد كان ممن لم اقدر قط فيه ان قلبه يذعن للود ولا شراسة طبعه تجيب الى الهوى واذكر اني دخلت قرطبـــة بعد رحيلي عنها ثم خرجت منصرفاً عنها فضمني الطريق مع رجل من الكتاب قد رحل لامر مهم وتخلف سكني له فكان يرتمض لذلك واني لاعلم من علق بهوى له وكان في حال شظف وكانت له في الارض مذاهب واسعة ومناديح رحبة ووجوه متصرف كثيرة فهان عليه ذلك وآثر الاقامة مع من يحب وفي ذلك اقول شعراً منه .

لَكَ في البِلاَدِ مَنَادِحٌ مَعْلُومَةٌ
وَالسَّيْفُ قُفلَ أوْ يَبِينُ قِرَابُه

ثم بين رحيل وتباعد ديار ولا يكون من الاوبة فيه على يقين خبر ولا يحدث تلاق وهو الخطب الموجع والهم المفظع والحادث الاشنع والداء الدوي واكثر ما يكون الهلع فيه اذا كان النائي هو المحبوب وهو الذي قالت فيه الشعراء كثيراً وفي ذلك اقول قصيدة منها .

وَذِي عِلَّةٍ أعْنَى الطَّبِيبَ عِلاَجُهَا
سَتُورِدُنِي لاَ شَكَّ مَنْهَلَ مَصْرَعِي

رَضيتُ بأنْ أُضْحَى قَتيلَ وَدادِهِ
كَجَارِعِ سَمٍّ في رَحيقٍ مُشَعْشَعِ

فَمَا لِلَّيَالي مَا أقَلَّ حَيَاءَهَا
وَأوْلَعَهَا بالنَفْسِ مِنْ كُلِ مُولَعِ

كَأَنَّ زَمَانِي عَبْشَميٌّ يَخَالُني
أعَنْتُ عَلَى عُثْمَانَ أهْلَ التَشَيُّعِ

واقول من قصيدة :

أظُنُّكَ تِمْثَالَ الجِنَانِ أبَاحَهُ
لِمُجْتَهِدِ النُسَّاكِ مِنْ أوْلِيَائِهِ

واقول من قصيدة :

لِأبْرِدَ باللُقْيَا غَليلاً مِنَ الهَوَى
تَوَقَّعَ نِيرَانَ الغَضَى هَيَمَانُهُ

واقول شعراً منه :

خَفيتُ عَنِ ٱلأَبصَارِ وَالوَجدُ ظَاهِرٌ
فَأَعجِبْ بِأَعرَاضٍ تَبينُ ولاَ شَخْصُ

غَدَا الفَلَكُ الدَوّارُ حَلْقَةَ خَاتِمٍ
مُحِيطٍ بِمَا فِيهِ وَأَنتَ لَهُ فِصٌّ

واقول من قصيدة :

غَنِيتَ عَنِ ٱلتَّشْبِيهِ حُسْناً وَبَهْجَةً
كَمَا غَنِيَتْ شَمْسُ السَمَاءِ عَنِ ٱلحُلِيِ

عَجِبْتُ لِنَفْسِي بَعْدَهُ كَيْفَ لَمْ تَمُتْ
وَهِجْرَانُه دَفْني وَفِقْدَانُه نَعْيي

وَلِلْجَسَدِ الغَضِّ المُنَعَّمِ كَيْفَ لَمْ
تُذِبْهُ يَدٌ خَشْنَاءُ بِالبري

وان للأوبة من البين الذي تشفق منه النفس لطول مسافته وتكاد تيأس من العودة فيه لروعة تبلغ ما لاحد وراءه وربما قتلت وفي ذلك اقول .

لِلتَّلاَقي بَعْـدَ الفِراقِ سُرورٌ
كَسُرُورِ المُفبقِ حِينَتْ وَفَاتُهْ

فَرْحَـةٌ تُبْهِمُ النُفُوسَ وَتُحْيِي
مَنْ دَنَا مِنْهُ بالفِرَاقِ مَمَاتُـهْ

رُبَّمَا قَدْ تَكُونُ دَاهِيَةَ المَوْتِ
وَتُودِي بأَهْـلِهِ هَجَمَاتُهْ

كَمْ رَأَيْنَا مَنْ عَبَّ في المَاءِ عَطْشَانُ
فَزَارَ الحِمَامَ وَهْوَ حَيَـاتُهْ

واني لأعلم من نأت دار محبوبه زمناً ثم تيسرت له اوبة فلم يكن الا بقدر التسليم واستيفائه حتى دعته نوى ثانية فكاد ان يهلك وفي ذلك اقول .

أَطَلْتَ زَمَانَ البُعْدِ حَتَّى إِذَا انْقَضَى
زَمَانُ النَوَى بِالقُرْبِ عُدْتُ إِلَى البُعْدِ

فَلَمْ يَكُ إلاَّ كَرَّةَ الطَرْفِ قُرْبُكُمْ
وَعَاوَدَكُمْ بُعْدِي وَعَاوَدَنِي وَجْدِي

كذا حائرٌ في اللّيل ضاقت وجوهه
رأى البرقَ في داجٍ من الليل مسودِّ
فأخلفه منهُ رجاءُ دوامه
وبعضُ الأراجي لا تفيدُ ولا تجدي

وفي الاوبة بعد الفراق اقول قطعة منها .

لقد قرّت العينان بالقرب منكُمُ
كما سخنت أيام يطويكمُ البعدُ
فلله فيما قد مضى الصبرُ والرضى
ولله فيما قد قضى الشكرُ والحمدُ

خبر ولقد نعي الي بعض من كنت احب من بلدة نازحة فقمت فاراً بنفسي نحو المقابر وجعلت امشي بينها واقول .

وددتُ بأنّ ظهرَ الأرضِ بطنٌ
وأنّ البطنَ منها صارَ ظهرا

وَأَنّي مُتُّ قَبْلَ وُرُودِ خَطْبٍ
أَتَى فَأَثَارَ فِي الأَكْبَادِ جَمْرَا

وَأَنَّ دَمِي لِمَنْ بَانَ غُسْلٌ
وَأَنَّ ضُلُوعَ صَدْرِي كُنَّ قَبْرَا

ثم اتصل بعد حين تكذيب ذلك الخبر فقلت :

بُشْرَى أَتَتْ وَاليَأْسُ مُسْتَحْكِمٌ
وَالقَلْبُ فِي سَبْعٍ طِبَاقٍ شِدَادْ

كَسَتْ فُؤَادِي خُضْرَةً بَعْدَمَا
كَانَ فُؤَادِي لاَبِساً لِلْحِدَادْ

جَلَى سَوَادُ الغَمِّ عَنِّي كَمَا
يُجْلَى بِلَوْنِ الشَمْسِ لَوْنُ السَوَادْ

هَذَا وَمَا آمُلُ وَصْلاً سِوَى
صِدْقٍ وَفَاءٍ بِقَدِيمِ الوِدَادْ

فَالمُزْنُ قَدْ تَطْلُبُ لاَ لِلْحَيَا
لَكِنْ لِظِلٍّ بَارِدٍ ذِي امْتِدَادْ

ويقع في هذين الصنفين من البين الوداع اعني رحيل المحب او رحيل

المحبوب وانه لمن المناظر الهائلة والمواقف الصعبة التي تفتضح فيها عزيمة كل ماضي العزائم وتذهب قوة كل ذي بصيرة وتسكب كل عين جمود ويظهر مكنون الجوى وهو فصل من فصول البين يجب التكلم فيه كالعتاب في باب الهجر ولعمري لو ان ظريفاً يموت في ساعة الوداع لكان معذوراً اذا تفكر فيما يحل بـه بعد ساعة من انقطاع الامال وحلول الاوجال وتبدل السرور بالحزن وانها ساعة ترق القلوب القاسية وتلين الافئدة الغلاظ ان حركة الرأس وادمان النظر والزفرة بعد الوداع هاتكة حجاب القلب ومرسلة اليه من الجزع بمقدار ما تفعل حركة الوجه في ضد هذا والاشارة بالعين والتبسم ومواطن الموافقة والوداع ينقسم قسمين احدهما لا يتمكن فيه الا بالنظر والاشارة والثاني يتمكن فيه بالعناق والملازمة وربما لعله كان لا يمكن قبل ذلك البتة مع تجاوز المحال وامكان التلاقي ولهذا تمنى بعض الشعراء البين ومدحوا يوم النوى وما ذاك بحسن ولا بصواب من الرأي ولا بالأصيل من الرأي فما يفي سرور ساعة بحزن ساعات فكيف اذا كان البين اياماً وشهوراً وربما اعواماً وهذا سوء من النظر ومعوج من القياس وانما اثنيت على النوى في شعري تمنياً لرجوع يومها فيكون في كل يوم لقاء ووداع على ان تحتمل مضض هذا الاسم الكريه وذلك عند ما يمضي من الايام التي لا التقاء فيها فحينئذ يرغب المحب من يوم الفراق لو ان امكنه في كل يوم وفي الصنف الاول من الوداع اقول شعراً منه .

تَنُوبُ عَنْ بَهْجَةِ الأَنْوَارِ بَهْجَتُهُ
كَمَا تَنُوبُ عَنِ النِّيرَانِ أَنْفَاسِي

وفي الصنف الثاني من الوداع اقول شعراً منه .

وَجْهٌ تَخِرُّ لَهُ الأَنْوَارُ سَاجِدَةً
وَالوَجهُ تِمٌّ فَلَمْ يَنْقُصْ وَلَمْ يَزِدِ

دِفءٌ وَشَمْسُ الضُّحَى بِالجَدْيِ نَازِلَةٌ
وَبَارِدٌ نَاعِمٌ وَالشَّمْسُ فِي الأَسَدِ

ومنه

يَوْمُ الفِرَاقِ لَعَمْرِي لَسْتُ أَكْرَهُهُ
أَصْلاً وَإِنْ شَتَّتَ شَمْلُ الرُّوحِ عَنْ جَسَدِي

فَفِيهِ عَانَقْتُ مَنْ أَهْوَى بِلاَ جَزَعٍ
وَكَانَ مِنْ قَبْلِهِ إِنْ سِيلَ لَمْ يَجُدِ

أَلَيْسَ مِنْ عَجَبٍ وَ ..... عَبْرَتُهَا
يَوْمُ الوِصَالِ لِيَوْمِ البَيْنِ ذُو حَسَدِ

وهل هجس في الافكار او قام في الظنون اشنع واوجع من هجر عتاب وقع بين محبين ثم فجأتها النوى قبل حلول الصلح وانحلال عقدة الهجران فقاما الى الوداع وقد نسي العتاب وجاء ما طم على القوى واطار الكرى وفيه اقول شعراً منه .

وَقَدْ سَقَطَ العَتْبُ المُقَدَّمُ وَامَّحَى
وَجَاءَتْ جُيُوشُ البَيْنِ تَجْرِي وَتُسْرِعُ

وَقَدْ ذَعَرَ البَيْنُ الصُدُودَ فَرَاعَه
فَوَلَّى فَمَا يُدْرَى لَهُ اليَوْمَ مَوْضِعُ

كَذِئْبٍ خَلاَ بالصيْدِ حَتَّى أَضَلَّه
هِزَبْرٌ لَهُ مِنْ جَانِبِ الغِيلِ مَطْلَعُ

لَئِنْ سَرَّنِي في طَرْدِهِ الهَجْرُ إِنَّنِي
لإِبْعَادِهِ عَنِّي الحَبِيبَ لَمُوجَعُ

وَلاَ بُدَّ عِنْدَ المَوْتِ مِنْ بَعْضِ رَاحَةٍ
وَفِي غِبِّهَا المَوْتُ الوَحِيُّ المُصَرِّعُ

واعرف من اتي ليودع محبوبه يوم الفراق فوجده قد فات فوقف على آثاره ساعة وتردد في الموضع الذي كان فيه ثم انصرف كئيباً متغير اللون كاسف البال فما كان بعد ايام قلايل حتى اعتل ومات رحمه الله وان للبين في اظهار السرائر المطوية عملاً عجيباً ولقد رأيت من كان حبه مكتوماً وبما يجد مستتراً حتى وقع حادث الفراق فباح المكنون وظهر الخفي وفي

ذلك اقول قطعة منها .

بَذَلْتَ مِنَ ٱلوُدِّ ما كُنْتَ قَبْلُ
مَنَعْتَ وَأعْطَيْتَنِيه جُزَافَا

وَمَا لِي به حَاجَةٌ عِنْدَ ذَاكَ
وَلو جُدْتَ قَبْلُ بَلَغْتَ الشِغَافَا

وَمَا يَنْفَعُ الطِبُّ عِنْدَ الحِمَامِ
وَيَنْفَعُ قَبْلَ الرَدَى مَنْ تَلاَفَا

واقول :

الآنَ إذْ حلَّ الفِرَاقُ جُدْتَ لي
بخفيِّ حبٍّ كُنْتَ تُبْدي بُخْلَهُ

فَزِدتني في حَسْرَتِي أَضْعَافَهَا
وَيْحي فَهَلاَّ كَانَ هذَا قَبْلَهُ

ولقد اذكرني هذا اني خطبت في بعض الازمان مودة رجل من

وزراء السلطان أيام جاهه فاظهر بعض الامتساك فتركته حتى ذهبت ايامه وانقضت دولته ابدا لي من المودة والاخوة غير قليل فقلت .

بَذَلْتَ لِيَ الإِعْرَاضَ وَالدَّهْرُ مُقْبِلُ
وَتَبْذُلُ لِيَ الإِقْبَالَ وَالدَّهْرُ مُعْرِضُ

وَتَبْسُطُني إِذْ لَيْسَ يَنْفَعُ بَسْطُكُمْ
فَهَلاَّ أَبَحْتَ البَسْطَ إِذْ كُنْتَ تَقْبِضُ

ثم بين الموت وهو الفوت وهو الذي لا يرجى له إياب وهو المصيبة الحالة وهو قاسمة الظهر وداهية الدهر وهو الويل وهو المغطي على ظلمة الليل وهو قاطع كل رجاء وماحي كل طمع والمؤيس من اللقاء وهنا حارت الالسن وانجزم حبل العلاج فلا حيلة الا الصبر طوعاً او كرهاً وهو اجل ما يبتلى به المجنون فما لمن دهي به الا النوح والبكاء الى ان يتلف او يمل فهي القرحة التي لا تنكي والوجع الذي لا يغني وهو الغم الذي يتجدد على قدر بلاء من اعتمدته في الثرى وفيه اقول .

كُلُّ بَيْنٍ وَاقِـــعٍ
فَمُرَجّى لَمْ يَفُتْ

لاَ تُعَجِّــلْ قَنَطاً
لَمْ يَفُتْ مَنْ لَمْ يَمُتَ

وَالَّذي قَدْ مَاتَ فَاليَأْسُ عَنْهُ قَــدْ ثَبَتْ

وقد رأينا من عرض له هذا كثيراً وعني اخبرك اني احد من دهي بهذه الفادحة وتعجات له هذه المصيبة وذلك اني كنت اشد الناس كلفاً واعظمهم حباً بجارية لي كانت فيا خــلا اسمها نعم وكانت امنية المتمني وغاية الحسن خلقاً وخلقاً وموافقة لي وكنت انا عذرها وكنا قد تكافانا المودة ففجعتني بهـــا الاقدار واخترمتها الليـالي ومر النهار وصارت ثالثة التراب والاحجار وسني حين وفاتها دون العشرين سنة وكانت هي دوني في السن فلقد اقمت بعدها سبعة اشهر لا اتجرد عن ثيــابي ولا تفتر لي دمعة على جمود عيني وقـلة اسعادها وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن ولو قبل فداء لفديتها بكل ما املك من تالد وطارف وببعض اعضـــاء جسمي العزيزة علي مسارعاً طائعـاً وما طاب لي عيش بعدها ولا نسيت ذكرها ولا أنست بسواها ولقد عفا حبي لها على كل ما قبله وحرم ما كان بعده ومما قلت فيها .

مُهَذَّبَةٌ بَيْضَاءُ كَالشَّمْسِ إِنْ بَدَتْ
وَسَائِرُ رَبَّاتِ الحِجَالِ نُجُومُ

أَطَارَ هَوَاهَا القَلْبَ عَنْ مُسْتَقَرِّهِ
فَبَعْدَ وُقُوعٍ ظَلَّ وَهْوَ يَحُومُ

ومن مراثي فيها قصيدة منها :

كَأَنّي لَمْ آنَسْ بأَلْفَاظِكِ الَّتي
عَلَى عُقَدِ الأَلْبَابِ هُنَّ نَوَافِثُ

ولَمْ أَتَحَكَّمْ في الأَمَـــاني كَأَنَّني
لإِفْرَاطِ مَا حُكِّمْتُ فِيهِنَّ عَابِثُ

ومنهـــا :

وَيُبْدِينَ إِعْرَاضاً وَهُنَّ أَوَالِفُ
وَيُقْسِمْنَ في هَجْرِي وَهُنَّ حَوَانِثُ

واقول ايضاً في قصيدة اخاطب فيها ابن عمي ابا المغيرة عبد الوهاب احمد بن عبد الرحمن بن حزم بن غالب واقرضه فاقول .

قِفَا فَاسْأَلاَ الأَطْلاَلَ أَيْنَ قَطِينُهَا
أَمَرَّتْ عَلَيْهَا بالبِلَى المَلَوَانِ

عَلَى دَارِسَاتٍ مُقْفِرَاتٍ عَوَاطِلٍ
كَأَنَّ المَغَاني في الخَفَاءِ مَعَـــانِي

واختلف الناس في أي الامرين اشد البين ام الهجر وكلاهما مرتقى صعب وموت احمر وبلية سوداء وسنة شهباء وكل يستبشع من هذين ما ضادّ طبعه فاما ذو النفس الابية الالوف الحنّانة الانوف الثابتة على العهد فلا شيء يعدل عنده مصيبة البين لانه اتي قصداً وتعمدته النوائب عمداً فلا يجد شيئاً يسلي نفسه ولا يصرف فكرته في معنى من المعاني الا وجد باعثاً على صبابته ومحركاً لاشجانه وعليه لا له وحجة لوجده وحاضاً على البكاء على الفه واما الهجر فهو داعية السلو ورائد الاقلاع واما ذو النفس التواقة الكثيرة النزوع والتطلع القلوق العزوف فالهجر داؤه وجالب حتفه والبين له مسلاة ومنساة واما انا فالموت عندي اسهل من الفراق وما الهجر الا جالب للكمد فقط ويوشك ان دام ان يحدث ايضاراً وفي ذلك اقول .

وَقَالُوا أرْتَحِلْ فَلَعَـــلَّ السُلُوّ
يَكُونُ وَتَرْغَبُ أنْ تَرْغَبَـــهْ

فَقُلْتُ الرَدَى لِيَ قَبْـــلَ السُلُوّ
وَمَنْ يَشْرَبُ السمَّ عَنْ تَجْرِبَهْ

وأقول :

سَبَى مُهْجَتِي هَوَاهُ   وَأَوْدَتْ بِهَا نَوَاهُ

كَأَنَّ الغَـرَامَ صَيفٌ وَرُوحِي غَدَا قِرَاهُ

ولقد رأيت من يستعمل هجر محبوبه ويتعمده خوفاً من مرارة يوم البين وما يحدث به من لوعة الاسف عند التفرق وهذا وان لم يكن عندي من المذاهب المرضية فهو حجة قاطعة على ان البين اصعب من الهجر وكيف لا وفي الناس من يلوذ بالهجر خوفاً من البين ولم اجد احداً في الدنيا يلوذ بالبين خوفاً من الهجر وإنما يأخذ الناس ابداً الاسهل ويتكلفون الاهون وانما قلنا انه ليس من المذاهب المحمودة لان اصحابه قد استعجلوا البلاء قبل نزوله وتجرعوا غصة الصبر قبل وقتها ولعل ما تخوفوه ألا يكون ولعل من يتعجل المكروه وهو على غير يقين مما له يتعجل تحكيم وفيه اقول شعراً منه .

لَبِسَ الصَبُّ لِلصَّبَابَةِ بَيْناً
لَيْسَ مِنْ جَانِبِ الأَحِبَّةِ مَنَّا

كَغَنِيٍّ يَعِيشُ عَيْشَ فَقِيرٍ
خَوْفَ فَقْرٍ وَفَقْرُهُ قَدْ أَبَنَّا

واذكر لابن عمي ابي المغيرة هذا المعنى من ان البين اصعب من الصد ابياتاً من قصيدة خاطبني بها وهو ابن سبعة عشر عاماً او نحوها وهي .

أَجزِعتَ أَنْ أَزِفَ الرَحيلُ
وَوَلِهْتَ أَنْ نُصَّ الذَمِيلُ

كَلاَّ مَصَابُــكَ فَادِحٌ
وَأَجلْ فِرَاقُهُمُ جَلِيلُ

كَذَبَ ٱلأُلَى زَعَمُوا بأَنَّ
الصَدَّ مَرْتَعُهُ وَبِيــلُ

لَمْ يَعْرِفُوا كُنْهَ الغَلِيلِ وَقَدْ تَحَمَّلَتِ ٱلحُمُولُ
أَمَّــا الفِرَاقُ فَإِنَّهُ
لِلمَوْتِ إِنْ أَهْوَى دَلِيلُ

ولي في هذا المعنى قصيدة مطولة أولها :

لاَ مِثْلُ يَوْمِك ضَحْوَةُ التَنْعِيمِ
في مَنْظَرٍ حَسَنٍ وَفي تَنْعِيمِ
قَدْ كَانَ ذَاكَ اليَوْمُ نَدْرَةَ عَاقِرٍ
وَصَوَابَ خَاطِئَةٍ وَوَلْدَ عَقِيمِ

أيَّامُ بَرْقِ الوَصْلِ لَيْسَ بِخُلَّبٍ
عِنْدِي وَلاَ رَوْضُ الهَوَى بِهَشِيمِ

مِنْ كُلِّ غَانِيَةٍ يَقُولُ ثُدِيُّهَا
سِيرِي أَمَامَكِ وَالإِزَارُ أَقِيمِي

كُلٌّ يُجَاذِبُهَا فَحُمْرَةُ خَدِّهَا
خَجَلٌ مِنَ التَّأْخِيرِ وَالتَّقْدِيمِ

مَا بِي سِوَى تِلْكَ العُيُونِ وَلَيْسَ فِي
بُرْئِي سِوَاهَا في الوَرَى بِزَعِيمِ

مِثْلُ الأَفَاعِي لَيْسَ فِي شَيْءٍ سِوَى
أَجْسَادِهَا إِبْرَاءُ لَدْغِ سَلِيمِ

والبين ابكى الشعراء على المعـــاهد فادروا على الرسوم الدموع وسقوا الديار ماء الشوق وتذكروا ما قد سلف لهم فيها فاعولوا وانتحبوا واحيت الآثار دفين شوقهم فناحوا وبكوا ولقد اخبرني بعض الرواد من قرطبة وقد استخبرته عنها انه رأى دورنا ببلاط مغيث في الجانب الغربي منها وقد امحت رسومها وطمست أعلامها وخفيت معاهدها وغيرها البلى وصارت

صحاري مجدبة بعد العمران وفيافي موحشة بعد الأنس وخرائب منقطعة بعد الحسن وشعاباً مفزعة بعد الامن ومأوى للذياب ومعازف للغيلان وملاعب للجان ومكامن للوحوش بعد رجال كالليوث وخرائد كالدمى تفيض لديهم النعم الفاشية تبدد شملهم فصاروا في البلاد ايادي سبأ فكان تلك المحـــارب المنمقة والمقاصير المزينة التي كانت تشرق اشراق الشمس ويجلو الهموم حسن منظرها حين شملها الخراب وعمّها الهدم كافواه السباع فاغرة تؤذن بفناء الدنيا وتريك عواقب اهلها وتخبرك عما يصير اليه كل من تراه قائماً فيها وتزهد في طلبها بعد ان طـال ما زهدت في تركها وتذكرت ايامي بها ولذاتي فيها وشهور صباي لديها مع كواعب الى مثلهن صبـــا الحليم ومثلت لنفسي كونهن تحت الثرى وفي الآثـــار النائية والنواحي البعيدة وقد فرّقتهن يد الجلاء ومزّقتهن أكف النوى وخيل الى بصري بقـاء تلك النصبة بعد ما علمته من حسنها وغضارتها والمراتب المحكمة التي نشأت فيها لديها وخلا تلك الافنية بعد تضايقها باهلها وأوهمت سمعي صوت الصدا والهام عليها بعد حركة تلك الجماعات التي ربيت بينهم فيها وكان ليلها تبعاً لنهارها في انتشار ساكنها والتقاء عمّارها فعاد نهارها تبعاً لليلها في الهدّو والاستيحاش فابكى عيني وأوجع قلبي وقرع صفاه كبدي وزاد في بلاء لبّي فقلت شعراً منه .

لَئِنْ كَانَ أَظْمَانَا فَقَدْ طَالَ مَا سَقَى

وَإِنْ سَاءَنَا فِيهَا فَقَدْ طَالَ مَا سَرَّا

والبين يولد الحنين والاهتياج والتذكر وفي ذلك اقول :

لَيْتَ الغُرَابَ يُعيدُ اليَوْمَ لي فعَسَى
يُبِينُ بَيْنَهُمْ عَنِّي فقَــدْ وَقَفَا

أَقولُ وَاللَيْلُ قَدْ أَرْخَى أَجِلَّتَهُ
وَقَدْ تَآلَّـى بأَنْ لاَ يَنْقَضي فوَفَا

والنّجْمُ قَدْ حارَ في أُفْقِ السَّماءِ فَمَا
يَمْضي وَلاَ هُوَ لِلتَخْيِيرِ مُنْصَرِفَا

تَخَالُهُ مُخْطِئاً أَوْ خائِفاً وَجِلا
أَوْ رَاِئباً مُوعِداً أَوْ عاشِقاً دَنِفاً

بَابُ القُنوعِ

ولا بد المحب اذا حرم الوصل من القنوع بما يجد وان في ذلك لمتعللاً للنفس وشغلاً للرجاء وتجديداً للمنى وبعض الراحة وهو مراتب على

قدر الاصابة والتمكن فأولها الزيارة وانها لأمل من الآمال ومن سري ما يسنح في الدهر مع ما تبدي من الخفر والحياء لما يعلمه كل واحد منهما بما في نفس صاحبه وهي على وجهين احدهما ان يزور المحب محبوبه وهذا الوجه واسع والوجه الثاني ان يزور المحبوب محبه ولكن لا سبيل الى غير النظر والحديث الظاهر وفي ذلك اقول .

فَإِنْ تَنْــأَ عَنِّي بالوِصَــالِ فَإِنَّني
سَأَرْضَى بِلَحْظِ العَيْنِ إِنْ لَمْ يَكُنْ وَصْلُ

فَحَسْبِي أَنْ أَلْقَــاكَ في اليَوْمِ مَرَّةً
وَمَا كُنْتُ أَرْضَى ضِعْفَ ذَا مِنْكَ لي قَبْلُ

كَذَا هِمَّةُ الوَالِي تَكُونُ رَفِيعَــةً
وَيَرْضَى خَلاَصَ النَّفْسِ إِنْ وَقَعَ العَزْلُ

واما رجع السلام والمخاطبة فامل من الامال وان كنت انا اقول في قصيدة لي :

فَهَأَنَا ذَا أُخْفِي وَأَقْنَعُ رَاضِياً
بِرَجْعِ سَلاَمٍ إِنْ تَيَسَّرَ في الحِينِ

فانما هذا لمن ينتقل من مرتبة الى ما هو أدنى منها وانمــا يتفاضل

المخلوقات في جميع الاوصاف على قدر اضافتها الى ما هو فوقها او دونها واني لاعلم من كان يقول لمحبوبه عدني واكذب قنوعاً بان يسلي نفسه في وعده وان كان غير صادق فقلت في ذلك :

إنْ كَانَ وَصْلُك لَيْسَ فيه مَطْمَعٌ
وَالقُرْبُ مَمْنُوعٌ فَعِدْني وَاكْذِبِ

فَعَسَى التَعَلُّلَ بِٱلْتِقَائِك مُمْسِكٌ
لِحَيَــاةِ قَلْبٍ بالصُدُودِ مُعَذَّبِ

فَلَقَدْ يُسَلِّي المُجْدِبِينَ إِذَا رَأَوْا
في ٱلأُفْقِ يَلْمَعُ ضَوْءُ بَرْقٍ خُلَّبِ

ومما يدخل في هذا الباب شيء رأيته ورآه غيري معي ان رجلاً من اخواني جرحه من كان يحبه بمدية فلقد رأيته وهو يقبل مكان الجرح ويندبه مرة بعد مرّة فقلت في ذلك :

يَقُولُونَ شَجَّك مَنْ هِمْتَ فِيهِ
فَقُلْتُ لَعَمْرِيَ مــا شَجَّني

وَلَكِنْ أَحسَّ دَمِي قُرْبَــهُ
فَطَارَ إِلَيْــه وَلَمْ يَنْثَنِ

فَيَا قَاتِلي ظَالِماً مُحْسِناً

فَدَيْتُكَ مِنْ ظَالِمٍ مُحْسِنِ

ومن القنوع ان يسرّ الانسان ويرضى ببعض آلات محبوبه وان له من النفس لموقعاً حسناً وان لم يكن فيه الا ما نص الله تعالى علينا من ارتداد يعقوب بصيراً حين شمّ قميص يوسف عليهما السلام وفي ذلك اقول :

لَمَّا مُنِعْتُ القُرْبَ مِنْ سَيِّدي

وَلَجَّ فِي هَجْرِي وَلَمْ يُنْصِفِ

صِرْتُ بِإِبْصَارِيَ أَثْوَابَه

أَوْ بَعْضَ مَا قَدْ مَسَّهُ أَكْتَفِي

كَذَاكَ يَعْقُوبُ نَبِيُّ الهُدَى

إِذْ شَفَّهُ الحُزْنُ عَلَى يُوسُفِ

شَمَّ قَمِيصاً جَاءَ مِنْ عِنْدِهِ

وَكَانَ مَكْفُوفاً فَمِنْهُ شُفِي

وما رأيت قط متعاشقين الا وهما يتهاديان خصل الشعر مبخرّة بالعنبر مرشوشة بماء الورد وقد جمعت في اصلها بالمصطكى وبالشمع الابيض المصفى ولفت في تطاريف الوشي والخزّ وما اشبه ذلك لتكون تذكرة عند البين واما تهادي المساويك بعد مضغها والمصطكى اثر استعمالها فكثير بين كل متحابين قد حظر عليهما اللقاء وفي ذلك اقول قطعة منها :

أَرَى رِيقَهَا مَاءَ الحَيَــاةِ تَيَقُّناً
عَلَى أَنَّهَا لَمْ تُبْقِ لي في الهَوَى حَشَا

خبر واخبرني بعض اخواني عن سليمان بن احمد الشاعر انه رأى ابن سهل الحاجب بجزيرة صقلية وذكر انه كان غاية في الجمال فشاهده يوماً في بعض المتنزهات ماشياً وامرأة خلفه تنظر اليه فلما ابعد اتت الى المكان الذي قــد أثر فيه مشيه فجعلت تقبله وتلثم الارض التي فيها اثر رجله وفي ذلك اقول قطعة اولها :

يَلُومُونَني في مَوْطِىءِ خُفِّهِ جَفَاً
وَلَوْ عَلِمُوا عَادَ ٱلَّذِي لاَمَ يَحْسُدُ

فَيَأَهْلَ أَرْضٍ لاَ تَجُودُ سَحَابُهَا
خُذُوا بوَصَاتي تَسْتَقِلُّوا وَتُحْمَدُوا

خذُوا مِنْ تُرَابٍ فيهِ مَوْضعُ وَطْئِهِ
وَأَضْمَنُ أَنَّ المَحْلَ عَنْكُمْ يُبَعَّدُ

فَكُلُّ تُرَابٍ وَاقِعٍ فيه رِجْلُهُ
فَذَاكَ صعيدٌ طَيِّبٌ لَيْسَ يُجْحَدُ

كَذَلِكَ فِعْلُ السَّامِرِيِّ وَقَدْ بَدَا
لِعَيْنَيْهِ مِنْ جِبْرِيلَ إِثْرٌ مُمَجَّدُ

فَصَيَّرَ جَوْفَ العِجْلِ مِنْ ذَلِكَ الثَّرَى
فَقَامَ لَهُ مِنْهُ خُوَارٌ مُمَدَّدُ

وأقول :

لَقَدْ بُورِكَتْ أَرْضٌ بِهَا أَنْتَ قَاطِنٌ
وَبُورِكَ مَنْ فِيهَا وَحَلَّ بِهَا السَّعْدُ

فَأَحْجَارُهَا دُرٌّ وَسَعْدَانُهَا وَرْدٌ
وَأَمْوَاهُهَا شَهْدٌ وَتُرْبَتُهَا نَد

ومن القنوع الرضى بزار الطيف وتسليم الخيال وهذا انما يحدث عن ذكر لا يفارق وعهد لا يحول وفكر لا ينقضي فاذا نامت العيون

وهدأت الحركات سري الطيف وفي ذلك اقول :

زَارَ الخَيَالُ فَتىً طَالَتْ صَبَابَتُهُ
عَلَى ٱحْتِفَاظٍ مِنَ الحُرَّاسِ وَالحَفَظَهْ

فَبِتُّ فِي لَيْلَتِي جَذْلاَنَ مُبْتَهِجاً
وَلَذَّةُ الطَّيْفِ تُنْسِي لَذَّةَ اليَقَظَهْ

وأقول :

أَتَى طَيْفُ نُعْمٍ مَضْجَعِي بَعْدَ هَدْأَةٍ
وَلِلَّيْلِ سُلْطَانٌ وَظِلٌّ مُمَدَّدُ

وَعَهْدِي بِهَا تَحْتَ التُّرَابِ مُقِيمَةً
وَجَاءَتْ كَمَا قَدْ كُنْتُ قَبْلَهُ أَعْهَدُ

فَعُدْنَا كَمَا كُنَّا وَعَادَ زَمَانُنَا
كَمَا قَدْ عَهِدْنَا قَبْلُ وَالعَوْدُ أَحْمَدُ

وللشعراء في علة مزار الطيف اقاويل بديعة بعيدة المرمى مخترعة كل

سبق الى معنى من المعاني فابو أسحق بن سيار النظام رأس المعتزلة جعل علة مزار الطيف خوف الارواح من الرقيب المرقّب على بهاء الابدان وابو تمام حبيب بن اوس الطائي جعل علته ان نكاح الطيف لا يفسد الحب ونكاح الحقيقة يفسده والبحتري جعل علة اقباله استضاءته بنار وجده وعلة زواله خوف الغرق في دموعه وانا اقول من غير ان امثل شعري باشعارهم فلهم فضل التقدم والسابقة وانما نحن لاقطون وهم الحاصدون ولكن اقتداء بهم وجرياً في ميدانهم وتتبعاً لطريقتهم التي نهجوا واوضحوا ابياتاً بينت فيها مزار الطيف مقطعة :

أَغارُ عَلَيْكَ مِنْ إِدْرَاكِ طَرْفي
وَأُشفِقُ أَنْ يُذيبَكَ لَمْسُ كَفّي

فَأَمْتَنِعُ اللِقَاءَ حِذَارَ هَــذَا
وَأَعْتَمِدُ التَّلاقِيَ حِينَ أُغْفي

فَروُحي إِنْ أَنَمْ بكَ ذُو ٱنفِرَادٍ
مِنَ ٱلأَعْضَاءِ مُستَتِرٌ وَمُخْفي

وَوَصْلُ الرُّوحِ أَلطَفُ فيكَ وَقْعاً
مِنَ ٱلجِسْمِ المُوَاصِلِ أَلفَ ضِعْفِ

وحال المزور في المنــــام ينقسم اقساماً اربعة احدها محب مهجور قد

تطاول غمه ثم رأى في هجعته ان حبيبه وصله فسر بذلك وابتهج ثم استيقظ فأسف وتلهف حيث علم ان ما كان فيه اماني النفس وحديثها وفي ذلك اقول :

أنتَ في مَشْرِقِ النَهَــارِ بَخِيلٌ
وَإِذَا اللَّيْلُ جنَّ كُنْتَ كَرِيمَا

تَجْعَلُ الشَمْسَ مِنْك لي عِوَضاً هيْهاتَ ماذَا الفَعَالُ مِنْكَ قَوِيمَا

زَارَني طَيْفُكَ البَعِيدُ فَيَأْتي
وَاصِلاً لي وَعَائِداً وَنَدِيمَا

غَيرَ أنّي مَنَعْتَني مِنْ تَمَامِ العَيْشِ لَكِنْ أَبَحْتَ لي ٱلتَّشْمِيَا

فَكَأَنّي مِنْ أَهلِ ٱلأَعْرَافِ لاَ الفِرْ
دَوْسُ دَارِي وَلاَ أَخَافُ الجَحِيمَا

والثاني محب مواصل مشفق من تغير يقع قد رأى في وسنه ان حبيبه يهجره فاهتم لذلك همـا شديداً ثم هب من نومه فعلم ان ذلك باطل وبعض وساوس الاشفاق والثالث محب داني الديار يرى ان التنائي قد فدحه فيكترث ويوجل ثم ينتبه فيذهب ما بـه ويعود فرحاً وفي ذلك اقول قطعة منها :

رَأيتُكَ في نَوْمِي كَأَنَّكَ رَاحِلٌ
وَقُمْنَا إلى التَوْدِيعِ وَالدَمْعُ هَامِلُ

وَزَالَ الكَرَى عَنِّي وَأنتَ مُعَانِقِي
وَغَمِّي إذا عَايَنْتُ ذَلِكَ زَائِلُ

فَجَدَّدتُ تَعْنِيقاً وَضَمّاً كَأنَّني
عَلَيْكَ مِنَ البَيْنِ المُفَرِّقِ قَابِلُ

والرابع محب نائي المزار يرى ان المزار قد دنا والمنازل قد تصاقبت فيرتاح ويأنس الى فقد الأسى ثم يقوم من سنته فيرى ان ذلك غير صحيح فيعود الى اشد ما كان فيه من الغم وقد جعلت في بعض قولي علة النوم الطمع في طيف الخيال فقلت :

طَافَ الخَيَالُ عَلَى مُسْتَهْتَرٍ كَلِفِ
لَوْلاَ ارْتِقَابُ مَزَارِ الطَيْفِ لَمْ يَنَمِ

لاَ تَعْجَبُوا إذْ سَرَى وَاللَّيْلُ مُعْتَكِرٌ
فَنُورُهُ مُرْهِبٌ في الأرْضِ لِلظُّلَمِ

ومن القنوع ان يقنع المحب بالنظر الى الجدران ورؤية الحيطان التي تحتوي على من يحب وقد رأينا من هذه صفته ولقد حدثني ابو الوليد احمد بن محمد بن اسحق الخازن رحمه الله عن رجل جليل انه حدث عن نفسه بمثل هذا ومن القنوع ان يرتاح المحب الى ان يرى من رأى محبوبه ويأنس به ومن اتى من بلاده وهذا كثير وفي ذلك اقول :

تَوَحَّشَ مِنْ سُكَّانِه فَكَأَنَّهُمْ
مَسَاكِنُ عَادٍ أَعْقَبَتْــــهُ ثَمُودُ

وبما يدخل في هذا الباب ابيات لي موجبها اني تنزهت انا وجماعة من اخواني من اهل الادب والشرف الى بستان لرجل من اصحابنا فجلنـــا ساعة ثم افضى بنا القعود الى مكان دونه يتمني فتمددنا في رياض اريضة وارض عريضة للبصر فيها منفسح وللنفس لديها مسرح بين جداول تطرد كاباريق اللجين واطيار تغرد بالحان تزري بما أبدعه معبد وابن الغريض وثمـــار مهدلة قد ذللت للايدي وذللت للمتناول وظلال مظلة تلاحظنا الشمس من بينها فتتصور بين ايدينا كرقاع الشطرنج والثياب المدبجة ومـــاء عذب يوجدك حقيقة طعم الحياة وانهار متدفقة تنساب كبطون الحيات لها خرير يقوم ويهدي ونواوير مؤنقة مختلفة الالوان تصفقها الرياح الطيبة النسيم وهواء سجسج واخلاق جلاّس تفوق كل هذا في يوم ربيعي ذي شمس ذليلة تارة يغطيها الغيم الرقيق والمزن اللطيف وتارة تنجلي فهي كالعذراء الخفرة والخريدة الخجلة تتراءى لعاشقها من بين الاستار ثم تغيب فيها حذر عين مراقبة وكان بعضنا مطرقاً كانـه يحادث اخرى وذلك لسرّ كان له فعرض لي بذلك وتداعبنا حيناً فكلفت ان اقول على لسانه شيئاً في ذلك فقلت بديهة وما كتبوها الا من تذكرنا بعد انصرافنا وهي :

وَلَمَّا تَرَوَّحْنَـــا بأَكْنَافِ رَوْضَةٍ
مُهَدَّلَةِ ٱلأَفْنَـــانِ في تُرْبِهَا النَّدِي

وَقَدْ ضَحِكَتْ أَنْوَارُهَا وَتَضَوَّعَتْ
أَسَاوِرُهَا في ظِلِّ فَيْءٍ مُمَدَّدِ

وَأَبْدَتْ لَنَا ٱلأَطْيَارُ حُسْنَ صَرِيفِهَا
فَمِنْ بَيْنِ شَاكٍ شَجْوَهُ وَمُغَرِّدِ

وَلِلْمَاءِ فِيمَـا بَيْنَنَا مُتَصَرَّفٌ
وَلِلْعَيْنِ مُرْتَادٌ هُنَاكَ وَلِلْيَدِ

وَمَا شِئْتَ مِنْ أَخْلاَقِ أَرْوَعَ مَاجِدٍ
كَرِيمِ السَّجَايَا لِلفَخَارِ مُشَيِّدِ

تَنَغَّصَ عِنْدِي كُلُّ مَا قَدْ وَصَفْتُهُ
وَلَمْ يَهْنِنِي إِذْ غَابَ عَنِّي سَيِّدِي

فَيَا لَيْتَنِي في السِّجْنِ وَهْوَ مُعَانِقِي
وَأَنْتُمْ مَعاً في قَصْرِ دَارِ المُجَدَّدِ

فَمَنْ رَامَ مِنَّا أنْ يُبَدِّلَ حالَه
بِحَالِ أخيـه أَوْ بِمُلْكٍ مُخَلَّدِ

فَلاَ عَاشَ إلاَّ في شَقَاءٍ وَنَكْبَةٍ
وَلاَ زَالَ في بُؤْسَى وَخِزْيٍ مُرَدَّدِ

فقال هو ومن حضر امين امين وهذه الوجوه التي عددت واوردت في حقائق القناعة الموجودة في اهل المودة بلا تزيد ولا اعياء وللشعراء فن من القنوع ارادوا فيه اظهار غرضهم وابانة اقتدارهم على المعاني الغامضة والمرامي البعيدة وكل قال على قدر قوة طبعه الا انه تحكم باللسان وتشدق في الكلام واستطال بالبيان وهو غير صحيح في الاصل فمنهم من قنع بان السماء تظله هو ومحبوبه والارض تقلها ومنهم من قنع باستوائها في احاطة الليل والنهار بهما ومن اشباه هذا وكل مبادر الى احتواء الغاية في الاستقصاء واحراز قصب السبق في التدقيق ولي في هذا المعنى قول لا يمكن المتعقب الى ان يجد بعده متناولاً ولا وراءه مكاناً مع تبييني علة قرب المسافة البعيدة وهو :

وَقَالُوا بَعِيداً قُلْتُ حَسْبِي بِأَنَّهُ
مَعي في زَمَانٍ لاَ يُطِيقُ مَحِيدَا

تَمُرُّ عَلَيَّ الشَّمْسُ مِثْلَ مُرُورِهَا
به كُلَّ يَوْمٍ يَسْتَنِيرُ جَدِيدَا

فمَنْ لَيْسَ بَيْني في المَسيرِ وَبَيْنَه
سِوَى قَطْعِ يَوْمٍ هَلْ يَكُونُ بَعيدَا

وَعِلْمُ إلـٰهِ الخَلْقِ يَجْمَعُنَا مَعـاً
كَفَى ذَا التَدَاني مَا أُريدُ مَزِيدَا

فبيّنت كما ترى اني قانع بالاجتماع مع من احب في علم الله الذي السموات والافلاك والعوالم كلها وجميع الموجودات لا تنتسب منه ولا تتجزأ فيه ولا يشذ عنه شيء ثم اقتصرت من علم الله تعالى على انه في زمان وهذا اعم مما قاله غيري في احاطة الليل والنهار وان كان الظاهر واحداً في البادي الى السامع لان كل المخلوقات واقعة تحت الزمان وانما الزمان اسم موضع لمرور الساعات وقطع الفلك وحركاته واجرامه والليل والنهار متولدان عن طلوع الشمس وغروبها وهما متناهيان في بعض العالم الاعلى وليس هكذا الزمان فانها بعض الزمان وان كان لبعض الفلاسفة قول ان الظل متماد فهذا يخطيه العيان وعلل الرد عليه بينة ليس هذا موضعها ثم بينت انه وان كان في اقصى المعمور من المشرق وانا في اقصى المعمور من المغرب وهذا طول السكنى فليس بيني وبينه الا مسافة يوم اذ الشمس تبدو في اول النهار في اول المشارق وتغرب في آخر النهار في آخر المغارب ومن القنوع فصل اورده واستعيذ بالله منه ومن اهله واحمده على ما عرف نفوسنا من منافرته وهو ان يضل العقل جملة وتفسد القريحة ويتلف التمييز ويهون الصعب وتذهب الغيرة وتعدم الانفة فيرضى الانسان بالمشاركة في من يحب وقد عرض هذا لقوم اعاذنا الله من البلاء وهذا لا يصح الا مع كلبية في الطبع وسقوط من العقل الذي

هو عيار على ما تحته وضعف حس ويؤيد هذا كله حب شديد معم فاذا اجتمعت هذه الاشياء وتلاحقت بمزاج الطبائع ودخول بعضها في بعض نتج بينها هذا الطبع الخسيس وتولدت هذه الصفة الرذلة وقام منها هذا الفعل المقذور والقبيح واما رجل معه اقل همة وايسر مروءة فهذا منه ابعد من الثريا ولو مات وجداً وتقطع حباً وفي ذلك اقول زارياً على بعض المسامحين في هذا الفصل :

رَأَيْتُكَ رَحْبَ الصَدْرِ تَرْضى بمَا أَتى
وَأَفْضَلُ شَيْءٍ أَنَ تَلينَ وَتَسْمَحَا

فَحَظُّك مِنْ بَعْضِ السَّوَاني مُفَضَّلٌ
عَلىَ أنْ يَحُوزَ الملْكُ مِنْ أَصْلِهَا الرَحَا

وَعُضْوَ بَعيرٍ فيه في الوَزْنِ ضعْفُ مَا
تُقَدِّرُهُ في الجَدْيِ فَاْعصِ ٱلَّذي لحَا

وَلَعْبُ ٱلَّذي تَهْوَى بسَيْفَيْنِ مُعْجِبٌ
فَكُنْ نَاحِياً في نَحْوهِ كَيْفَ مَا نَحَا

بابُ الضَنَى

ولا بد لكل محب صادق المودة ممنوع الوصل اما ببين واما بهجر واما بكتمان واقع لمعنى من ان يؤول الى حد السقام والضنى والنحول وربما اضجعه ذلك وهذا الامر كثير جداً موجود ابداً والاعراض الواقعة من المحبة غير العلل الواقعة من هجمات العلل ويميزها الطبيب الحاذق والمتفرّس الناقد وفي ذلك اقول :

يَقُولُ لِيَ الطَّبيبُ بغَيْرِ عِلْمٍ
تَداوَ فأَنْتَ يا هَذَا عليلُ

وَدَائِي لَيسَ يَدْرِيه سِوائِي
ورَبٌّ قادِرٌ مَلِكٌ جَليلُ

أأَكْتُمُهُ وَيَكْشِفُهُ شَهِيقٌ
يُلازِمُني وَإِطْرَاقٌ طَوِيلُ

وَوَجْهٌ شَاهِدَاتُ الحُزْنِ فيه
وَجِسْمٌ كالخَيَالِ ضَنٍ نَحيلُ

وَأَثْبَتُ مَا يَكُونُ الأَمْرُ يَوْماً
بِلاَ شَكٍّ إِذَا صَحَّ الدَلِيلُ

فَقُلْتُ لَهُ أَبِنْ عنّي قَلِيــــلاً
فَلاَ وَاللهِ تَعْرِفُ مَا تَقُولُ

فَقَالَ أَرَى نُحُولاً زَادَ جِداً
وَعِلَّتُكَ الَّتِي تَشْكُو ذُبُولُ

فَقُلتُ لَهُ الذُبُولُ تَعِلُّ مِنْهُ الجَوَارِحُ وَهِيَ حُمَّى تَسْتَحِيلُ

وَمَا أَشْكُوهُ لَعَمْرُ اللهِ حُمَّى
وَإِنَّ الحَرَّ فِي جِسْمِي قَلِيلُ

فَقَالَ أَرَى الْتِفَاتاً وَارْتِقَاباً
وَأَفْكَاراً وَصَمْتاً لا يَزُولُ
وَأَحسَبُ أَنَّهَا السَّوْدَاءُ فَانْظُرْ
لِنَفْسِكَ إِنَّهَا عَرَضٌ ثَقِيــلُ

فَقُلْتُ لَهُ كَلاَمُكَ ذَا مُحَالٌ
فَمَا لِلدَّمعِ مِنْ عَيْنِي يَسيلُ
فَأَطْرَقَ بَاهِتاً مِمَّـــا رَآهُ
ألا في مِثْلِ ذَا بُهِتَ النَبيـــلُ
فَقلت لَهُ دَوَائي مِنْهُ دَائي
أَلاَ فِي مِثْلِ ذَا ضَلَّتْ عُقُولُ
وَشَاهِدُ مَا أَقُولُ يُرَى عِيَاناً
فُرُوعُ النَبْتِ إِنْ عُكِسَتْ أُصُولُ
وَتِرْيَاقُ الأَفَاعِي لَيْسَ شَيْءٌ
سِوَاهُ بِبرْءِ مَا لَدَغَتْ كَفِيلُ

وحدثني ابو بكر بن محمد بن بقي الحجري وكان حكيم الطبع عاقلاً فهيماً عن رجل من شيوخنا لا يمكن ذكره انه كان ببغداد في خان من خاناتها فرأى ابنة لوكيلة الخان فاحبها وتزوجها فلما خلا بها نظرت اليه وكانت بكراً وهو قـــد تكشف لبعض حاجته فراعها كبر أيره ففرّت الى امها وتفادت منه فرام بها كل من حواليها ان ترد اليه فأبت وكادت ان تموت ففارقها ثم ندم ورام ان يراجعها فـــلم يمكنه واستعان بالابهري وغيره فلم يقدر احد منهم على حيلة في امره فاختلط عقله واقام في المارستان يعاني مدة طويلة حتى نقه وسلا وما كاد ولقد كان اذا ذكرها يتنفس الصعداء وقد تقدم في اشعاري المذكورة في هذه الرسالة من صفة النحول مفرقاً ما استغنيت به عن ان اذكرها هنا من سواها شيئاً خوف الاطالة والله المعين والمستعان وربما ترقت الى ان يغلب

المرء على عقله ويحال بينه وبين ذهنه فيوسوس خبر واني لاعرف جارية من ذوات المناصب والجمال والشرف من بنات القوآد وقد بلغ بها حب فتى من اخواني جداً من ابناء الكتاب مبلغ هيجان المرار الاسود وكادت تختلط واشتهر الامر وشاع جداً حتى علمناه وعلمه الاباعد الى ان تدوركت بالعلاج وهذا انما يتولد عن ادمان الفكر فاذا غلبت الفكرة وتمكن الخلط السوداوي خرج الامر عن حد الحب الى حـــد الوله والجنون واذا أغفل التداوي في الاول الى المعاناة قوي جداً ولم يوجد له دواء سوى الوصال ومن بعض ما كتبت اليه قطعة منها :

قَدْ سَلَبْتَ الفُؤَادَ مِنّي اخْتِلاَساً
أيُّ خَلْقٍ يَعِيشُ دُونَ فُؤَادِ

فَأغِثْهَا بالوَصْلِ تَحْيَ شَرِيفاً
وَتَفُزْ بالثَوَابِ يَوْمَ المَعَاد

وَأرَاهَا تَعْتَاضُ إنْ دَامَ هَذَا
مِنْ خَلاَخِيلِهَا حُلَى الأقْيَادِ

أنتَ حقّاً مُتَيَّمُ الشَمْسِ حَتّى
عِشقُهَا بَيْنَ ذَا الوَرَى لَكَ بَادِي

خبر وحدثني جعفر مولى احمد بن محمد بن جدير المعروف بالبلبيني ان سبب اختلاط مروان بن يحي بن احمد بن جدير وذهاب عقله اعتلاقه بجارية لاخيه فمنعها منه واباعها لغيره وما كان في اخوته مثله ولا اتم ادباً منه واخبرني ابو العافية مولى محمد بن عباس بن ابي عبدة ان سبب جنون يحيى بن محمد بن احمد بن عباس بن ابي عبدة بيع جارية له كان يجد بها وجداً شديداً كانت امه اباعتها وذهبت الى انكاحه من بعض العامريات فهذان رجلان جليلان مشهوران فقدا عقولها واختلطا وصارا في القيود والاغلال فاما مروان فاصابته ضربة مخطئة يوم دخول البربر قرطبة وانتهائهم اليها فتوفي رحمه الله واما يحيى بن محمد فهو حي على حالته المذكورة في حين كتابتي لرسالتي هذه وقد رأيته انا مراراً وجالسته في القصر قبل ان يمتحن بهذه المحنة وكان استاذي واستاذه الفقيه ابو الخيار اللغوي وكان يحيى لعمري حلواً من الفتيان نبيلًا واما من دون هذه الطبقة فقد رأينا منهم كثيراً ولكن لم نسمهم لخفائهم وهذه درجة اذا بلغ المشغوف اليها فقد انبت الرجاء وانصرم الطمع فلا دواء له بالوصل ولا بغيره اذ قد استحكم الفساد في الدماغ وتلفت المعرفة وتغلبت الآفة اعاذنا الله من البلاء بطوله وكفانا النقم بمنه :

بابُ السُّلُوِّ

وقد علمنا ان كل ما له اول فلا بدّ له من آخر حاشى نعيم الله عز وجل بالجنة لاوليائه وعذابه بالنار لاعدائه واما اعراض الدنيا فنافدة فانية

وزائلة مضمحلة وعاقبة كل حب الى احد امرين اما اختزام منية واما سلو حادث وقد نجد النفس تغلب عليها بعض القوى المصرّفة معها في الجسد فكما نجد نفساً ترفض الراحات والملاذ للعقل في طاعة الله تعالى وللرياء في الدنيا حتى تشتهر بالزهد فكذلك نجد نفساً تنصرف عن الرغبة في لقاء شكلها للانفة المستحكمة المنافرة للغدر او استمرار سوء المكافاة في الضمير وهذا اصح السلو وما كان من غير هذين الشيئين فليس الا مذموماً والسلو المتولد عن الهجر وطوله انما هو كاليأس يدخل على النفس من بلوغها الى املها فيفتر نزاعها ولا يقوي رغبتها ولي في ذمّ السلو قصيدة منها :

إذَا مَا رَنَتْ فَالحَيُّ مَيْتٌ بَلَحْظِهَا
وَإِنْ نَطَقَتْ قُلْتُ السَّلاَمُ رِطَابُ

كَأَنَّ الهَوَى ضَيفٌ أَلَمَّ بِمُهْجَتِي
فَلَحْمِي طَعَامٌ وَالنَجِيعُ شَرابُ

ومنها :

صبُورٌ عَلىَ ٱلأزْمِ ٱلَّذي ٱلعِزُّ خلْقَهُ
وَلَوْ أَمطَرَتْهُ بالحَرِيقِ سَحَابُ

جَزُوعاً مِنَ الرَّاحَاتِ إِنْ أَنْتَجَتْ لَهُ
خُمُولاً وَفِي بَعْضِ النَّعِيمِ عَذَابُ

والسلوّ في التجربـــة الجميلة ينقسم قسمين سلوٌ طبيعي وهو المسمى بالنسيان يخلو به القلب ويفرغ بـــه البال ويكون الانسان كانه لم يحب قط وهذا القسم ربما لحق صاحبه الذم لانـــه حادث عن اخلاق مذمومة وعن اسباب غير موجبة استحقاق النسيان. وسيأتي مبينه ان شاء الله تعالى وربمـا لم تلحقه اللائمـة لعذر صحيح والثاني سلو تطبعي قهر النفس وهو المسمى بالتصبر فترى المرء يظهر التجلد وفي قلبه اشد لدغـــاً من وخز الاشفى ولكنه يرى بعض الشر اهون من بعض او يحاسب نفسه بحجة لا تصرف ولا تكسر وهذا قسم لا يذم آتيه ولا يلام فاعله لانه لا يحدث الا عن عظيمة ولا يقع الا عن فادحة امـــا لسبب لا يصبر على مثله الاحرار واما لخطب لا مرد له تجري به الاقدار وكفاك من الموصوف به انـــه ليس بناس لكنه ذاكر وذو حنين واقف على العهد ومتجرع مرارات الصبر والفرق العامي بين المتصبر والناسي انك ترى المتصبر وان ابدى غاية الجلد واظهر سب محبوبه والتحمل عليه لا يحتمل ذلك من غيره وفي ذلك اقول قطعة منها :

دَعُـــونِي وَسَبِّي لِلْحَبِيبِ فَإِنَّنِي
وَإِنْ كُنْتُ أُبْدِي الهَجْرَ لَسْتُ مُعَادِيَا

وَلَكِنَّ سَبِّي لِلْحَبِيبِ كَقَوْلِهِمْ
أَجَادَ فَلَقَّاهُ ٱلإِلٰهُ الدَّوَاهِيَـــا

والناس ضد هذا وكل هذا فعلى قدر طبيعة الانسان واجابتها وامتناعها وقوة تمكن الحب من القلب او ضعفه وفي ذلك اقول وسميت السالي فيه المتصبر قطعة منها :

نَاسِي ٱلأَحِبَّةِ غَيْرُ مَنْ يَسْلُوهُمُ
حُكْمُ المُقَصِّرِ غَيْرُ حُكْمِ المُقْصِرِ

مَــا قَاصِرٌ لِلنَفْسِ غَيْرَ مُجِيبِهَا
مَــا الصَابِرُ المَطْبُوعُ كَٱلمُتَصَبِّرِ

والاسباب الموجبـــة للسلو المنقسم هذين القسمين كثيرة وعلى حسبها وبمقدار الواقع منها يعذر السالي ويذم فمنها الملل وقد قدمنا الكلام عليه وان من كان سلوه عن ملل فليس حبه حقيقة والمتوسم به صاحب دعوى زائفة وانما هو طالب لذة ومبادر شهوة والسالي من هذا الوجـــه ناس مذموم ومنها الاستبدال وهو وان كان يشبه الملل ففيه معنى زائد وهو بذلك المعنى اقبح من الاول وصاحبه احق بالذم ومنها حيـــاء مركب يكون في المحب يحول بينه وبين التعريض بمـــا يجد فيتطاول الامر وتتراخى المدة ويبلى جديد المودة ويحدث السلو وهذا وجـــه ان كان السالي عنه ناسياً فليس بمنصف اذ منه جاء سبب الحرمان وان كان متصبراً فليس بملوم اذ آثر الحياء على لذة نفسه وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال الحياء من الايمان والبذاء من النفاق وحدثنا احمد ابن محمد عن احمد بن مطرف عن عبد الله بن يحيى عن ابيـــه عن ملـــك عن سلمة بن صفوان الزرقي عن زيد بن طلحة بن ركانـــة يرفعه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لكل دين خلق وخلق الاسلام

الحياء فهذه الأسباب الثلاثة أصلها من المحب وابتداؤهــا من قبله والذم لاصق به في نسيانه لمن يحب عنها ثم اسباب اربعة هن من قبل المحبوب واصلها عنده فمنها الهجر وقد مرّ تفسير وجوهه ولا بد لنا ان نورد منه شيئاً في هذا الباب يوافقه والهجر اذا تطاول وكثر العتاب واتصلت المفارقة يكون باباً الى السلو وليس من وصلك ثم قطعك لغيرك من باب الهجر في شيء لأنه الغدر الصحيح ولا من مال الى غيرك دون ان يتقدم لك معه صلة من الهجر ايضاً في شيء انمــا ذلك هو النفار وسيقع الكلام في هذين الفصلين بعد هذا ان شاء الله تعالى لكن الهجر بمن وصلك ثم قطعك لتثقيل واشٍ أو لذنب واقع أو لشيء قام في النفس ولم يمل الى سواك ولا أقــام أحداً غيرك مقامك والناسي في هذا الفصل من المحبين ملوم دون سائر الاسباب الواقعة من المحبوب لأنه لا يقع حالة تقيم العذر في نسيانه وانما هو راغب عن وصلك وهو شيء لا يلزمه وقـد تقدم من أذمة الوصال وحق أيامه ما يلزم التذكر ويوجب عهــد الالفة ولكن السالي على جهة التصبر والتجلد ها هنا معذور اذا رأى الهجر متمادياً ولم ير للوصال علامة ولا للمراجعة دلالة وقد استجاز كثير من الناس ان يسموا هذا المعنى غدراً إذ ظاهرهما واحد ولكن علتيهما مختلفتان فلذلك فرقنــا بينهما في الحقيقة وأقول ذلك شعراً منه :

فَكُونوا كَمَنْ لَمْ أدْرِ قطُّ فإنَّني
كآخرَ لَمْ تَــدْرُوا ولَمْ تَصلوهُ

أَنَا كَالصَّدَا مَا قَالَ كُلٌّ أُجِيبهُ
فَمَا شِئْتُمُوهُ اليَوْمَ فَاعْتَمِدُوهُ

وأقول ايضاً قطعة ثلاثة ابيات قلتها وانا نائم واستيقظت فأضفت اليها البيت الرابع :

أَلاَ لِلَّهِ دَهرٌ كُنْتَ فِيه
أعزَّ عَلَيَّ مِنْ رُوحِي وَأَهْلي

فَمَا بَرِحت يَدُ الهِجْرَانِ حَتَّى
طَوَاكَ بَنَانُهَا طَيَّ السِّجِلِّ

سَقَاني الصَبْرَ هَجْرُكُمُ كَمَا قَدْ
سَقَاني الحُبَّ وَصْلُكُمُ بِسَجْلِ

وَجَدتُ الوَصلَ أَصلَ الوَجْدِ حَقّاً
وَطُولَ الهَجْرِ أَصْلاً لِلتَّسَلِّي

وأقول أيضاً منها :

لَوْ قِيلَ لي مِنْ قَبْلِ ذَا
أنْ سَوْفَ تَسْلُو مَنْ تَوَدُّ ،

فَحَلَفْتُ أَلْفَ قَسَامَــةً
لاَ كَانَ ذَا أَبَدَ ٱلأَبَدْ

وَإِذَا طَوِيلُ الهَجْرِ مَا
مَعَهُ مِنَ ٱلسُّلْوَانِ بُدٌّ

لِلّهِ هَجْرُكَ إِنَّهُ
سَاعٍ لِبُرْئِي مُجْتَهِــدْ

فَٱلآنَ أَعْجَبُ لِلسُّلُوِّ وَكُنْتُ أَعْجَبُ لِلجَــلَدْ

وَأَرَى هَوَاكَ كَجَمْرَةٍ
تَحْتَ الرَّمَادِ لَهَا مَدَدْ

وأقول :

كَانَتْ جَهَنَّمُ في الحَشَى مِنْ حُبِّكُمْ
فَلَقَدْ أَرَاهَــا نَارَ إِبْرَاهِيَا

ثم الاسباب الثلاثة الباقية التي هي من قبل المحبوب فالمتصبر من الناس فيها

غير مذموم لما سنورده أن شاء الله في كل فصل منها فمنها نفار يكون في المحبوب وانزواء قاطع للاطماع خبر واني لأخبرك عني اني ألفت في ايام صباي ألفة المحبة جارية نشأت في دارنا وكانت في ذلك الوقت بنت ستة عشر عاماً وكانت غاية في حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرها ودماثتها عديمة الهزل منيعة البذل بديعة البشر مسبلة الستر فقيدة الذام قليلة الكلام مغضوضة البصر شديدة الحذر نقية من العيوب دائمة القطوب حلوة الاعراض مطبوعة الانقباض مليحة الصدود رزينة القعود كثيرة الوقار مستلذة النفار لا توجه الاراجي نحوها ولا تقف المطامع عليها ولا معرس للأمل لديها فوجهها جالب كل القلوب وحالها طارد من أمها تزدان في المنع والبخل ما لا يزدان غيرها بالسماحة والبذل موقوفة على الجد في أمرها غير راغبة في اللهو على انها كانت تحسن العود احساناً جيداً فجنحت اليها واحببتها حباً مفرطاً شديداً فسعيت عامين أو نحوهما ان تجيبني بكلمة واسمع من فيها لفظة غير ما يقع في الحديث الظاهر الى كل سامع بأبلغ السعي فما وصلت من ذلك الى شيء البتة فلعهدي بمصطنع كان في دارنا لبعض ما يصطنع له في دور الرؤساء تجمعت فيه دخلتنا ودخلة أخي رحمه الله من النساء ونساء فتياننا ومن لاث بنا من خدمنا ممن يخف موضعه ويلطف محله فلبثن صدراً من النهار ثم تنقلن الى قصبة كانت في دارنا مشرفة على بستان الدار ويطلع منها على جميع قرطبة وفحوصها مفتحة الأبواب فصرن ينظرن من خلال الشراجيب وانا بينهن فاني لأذكر اني كنت اقصد نحو الباب الذي هي فيه انساً بقربها متعرضاً للدنو منها فما هو الا أن تراني في جوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره في لطف الحركة فأتعمد أنا القصد الى الباب الذي صارت اليه فتعود الى مثل ذلك الفعل من الزوال الى غيره وكانت قد علمت كلفي بها ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه لأنهن كن عدداً كثيراً وإذ كلهن يتنقلن من باب الى باب لسبب الاطلاع من بعض الابواب على جهات لا يطلع من غيرها

عليها وأعلم أن قيافة النساء في من يميل اليهن انفذ من قيافة مدلج في الآثار ثم نزلن الى البستان فرغب عجائزنا وكرائمنا الى سيدتها في سماع غنائها فأمرتها فأخذت العود وسوته بخفر وخجل لا عهد لي بمثله وان الشيء يتضاعف حسنه في عين مستحسنه ثم اندفعت تغني بأبيات العباس ابن الاحنف حيث يقول :

إنّي طَرِبْتُ إلى شَمْسٍ إذَا غَرَبَتْ
كَانَتْ مَغَارِبَهَا جَوْفَ المَقَاصِيرِ

شَمْسٌ مُمَثَّلَةٌ في خَلْقِ جَارِيَةٍ
كَأَنَّ أَعْطَافَهَا طَيُّ الطَّوَامِيرِ

لَيْسَتْ مِنَ الأنْسِ إلاَّ في مُنَاسَبَةٍ
وَلاَ مِنَ الجِنِّ إلاَّ في التَّصَاوِيرِ

فَالوَجْهُ جَوْهَرَةٌ وَالجِسْمُ عَبْهَرَةٌ
وَالرِيحُ عَنْبَرَةٌ والكُلُّ مِنْ نُورِ

كَأَنَّهَا حِينَ تَخْطُو في مَجَاسِدِهَا
تَخْطُو عَلَى البِيضِ أوْ حَدِّ القَوَارِيرِ

فلعمري لكان المضراب انما يقع على قلبي ومـا نسيت ذلك اليوم ولا أنساه الى يوم مفارقتي الدنيا وهذا اكثر ما وصلت اليه من التمكن من رؤيتها وسماع كلامها وفي ذلك اقول :

لاَ تَلُمْهَا عَلى النِفَارِ وَمنْعِ الوَصْلِ مَا ذَاكُمُ لهَا بنَكيرِ

هَلْ يَكونُ الهِلاَلُ غَيْرَ بَعيدٍ
أوْ يَكونُ الغَزَالُ غَيْرَ نَفُورِ

وأقول :

مَنَعْتِ جَمالَ وَجْهِـكِ مُقْلَتَيَّا
وَلَفْظُكِ قَدْ ضَنَنْتِ به عَلَيَّا

أرَاكِ نَذَرْتِ لِلرَّحْمٰنِ صَوْماً
فَلَسْتِ تُكَلِّمِينَ اليَوْمَ حَيَّا

وَقَدْ غَنَّيْتِ لِلعَبَّاسِ شِعْراً
هَنِيئاً ذَا لِعَبَّـاسٍ هَنِيَّاً

فلوْ يَلْقَاكِ عَبَّاسٌ لَأضحَى
لِفَوْزٍ قَالِياً وَبِكُمْ شَجِيَّا

ثم انتقل الوزير أبي رحمه الله من دورنا المحدث بالجانب الشرقي من قرطبة في ربض الزاهرة الى دورنا القديمة في الجانب الغربي من قرطبة ببلاط مغيث في اليوم الثالث من قيام امير المؤمنين محمد المهدي بالخلافة وانتقلت أنا بانتقاله وذلك في جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلثمائة ولم تنتقل هي بانتقالنا لأمور أوجبت ذلك ثم شُغلنا بعد قيام امير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات وباعتداء ارباب دولته وامتحنّا بالاعتقال والترقيب والاغرام الفادح والاستتار وارزمت الفتنة وألقت باعها وعمت النـاس وخصتنا الى ان توفي أبي الوزير رحمه الله ونحن في هـذه الأحوال بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتـا من ذي القعدة عـام اثنتين واربعمائة واتصلت بنا تلك الحال بعده الى ان كانت عندنا جنازة لبعض اهلنـا فرأيتها وقد ارتفعت الواعية قائمة في المأتم وسط النساء في جملة البواكي والنوادب فلقد اثارت وجداً دفيناً وحركت ساكناً وذكرتني عهداً قديماً وحباً تليداً ودهراً ماضياً وزمناً عافياً وشهوراً خوالي واخبـاراً بوالي ودهوراً فواني واياماً قد ذهبت وآثاراً قـد دثرت وجددت احزاني وهيجت بلابلي على اني كنت في ذلك النهار مرزءاً مصاباً من وجوه وما كنت نسيت ولكن زاد الشجا وتوقدت اللوعة وتأكد الحزن وتضاعف الاسف واستجلب الوجد ما كان منه كامناً فلباه مجيباً فقلت قطعة منها :

يبَكّي لِمَيْتٍ مَاتَ وَهْوَ مُكَرَّمٌ
وَللْحَيُّ أوْلَى بالدُمُوعِ الذَوَارِفِ

فَيَا عَجَباً مِنْ آسِفٍ لاَمْرِيءٍ ثَوَى

وَمَـــا هُوَ لِلْمَقْتُولِ ظُلْماً بِآسِفِ

ثم ضرب الدهر ضرباته وأجلينا عن منازلنا وتغلب علينا جند البربر فخرجت عن قرطبة اول المحرم سنة اربع واربعمائة وغابت عن بصري بعد تلك الرؤية الواحدة ستة عوام واكثر ثم دخلت قرطبة في شوال سنة تسع واربعمائة فنزلت على بعض نسائنا فرأيتها هنالك وما كدت ان اميزها حتى قيل لي هذه فلانة وقد تغير اكثر محاسنها وذهبت نضارتها وفنيت تلك البهجة وغاض ذلك الماء الذي كان يُرى كالسيف الصقيل والمرآة الهندية وذبل ذلك النوّار الذي كان البصر يقصد نحوه متبوّراً ويرتاد فيه متخيراً وينصرف عنه متحيراً فلم يبق الا البعض المنبيء عن الكل والخبر المخبر عن الجميع وذلك لقلة اهتبالها بنفسها وعدمها الصيانة التي كانت غذيت بها ايام دولتنا وامتداد ظلنا ولتبدلها في الخروج فيما لا بد لها منه بما كانت تصان وترفع عنه قبل ذلك وانما النساء رياحين متى لم تتعاهد نقصت وبنية متى لم يهتبل بها استهدمت ولذلك قال من قال ان حسن الرجال اصدق صدقا واثبت اصلا واعتق جودة لصبره على ما لو لقي بعضه وجوه النساء لتغيرت اشد التغير مثل الهجير والسموم والرياح واختلاف الهواء وعـــدم الكن واني لو نلت منها اقل وصل وانست لي بعض الانس لخولطت طرباً او لمتُّ فرحاً ولكن هذا النفار الذي صبرني واسلاني وهذا الوجه من اسباب السلو صاحبه في كلا الوجهين معذور وغير ملوم اذ لم يقع تثبت يوجب الوفاء ولا عهد يقتضي المحافظة ولا سلف ذمام ولا فرط تصادق يلام على تضييعه ونسيانه ومنها جفاء يكون من المحبوب فاذا افرط فيه واسرف وصادف من المحب نفساً لها بعض الانفة والعزة تسلى واذا كان الجفـاء يسيراً منقطعاً او دائماً او كبيراً منقطعـــاً احتمل واغضي عليه حتى اذا

كثر ودام فلا بقاء عليه ولا يلام الناسي لمن يحب في مثل هذا ومنها الغدر وهو الذي لا يحتمله احد ولا يغضي عليه كريم وهو المسلاة حقاً ولا يلام السالي عنه على اي وجه كان ناسياً او متصبراً بل اللائمة لاحقة لمن صبر عليه ولولا ان القلوب بيد مقلبها لا إله إلا هو ولا يكلف المرء صرف قلبه ولا احالة استحسانه ولولا ذلك لقلت ان المتصبر في سلوه مع الغدر يكاد ان يستحق الملامة والتعنيف ولا أدعى الى السلو عند الحر النفس وذوي الحفيظة والسري السجايا من الغدر فما يصبر عليه الا دني المروءة خسيس النفس نذل الهمة ساقط الانفة وفي ذلك اقول قطعة منها :

هَوَاكِ فَلَسْتُ أَقْرَبُهُ غُرُورُ
وَأَنتِ لِكُلِّ مَا يَأْتِي سَرِيرُ

وَمَا إِنْ تَصْبِرِينَ عَلَى حَبِيبٍ
فَحَوْلَكِ مِنْهُمُ عَدَدٌ كَثِيرُ

فَلَوْ كُنْتِ ٱلأَمِيرَ لَمَا تَعَاطَى
لِقَاءَكِ خَوْفَ جَمْعِهِمُ ٱلأَمِيرُ

رَأَيْتُكِ كَٱلأَمَانِي مَا عَلَى مَنْ
يَلَمُّ بِهَا وَلَوْ كَثُرُوا غُرُورُ

وَلاَ عَنْهَا لِمَنْ يَأتِي دِفَاعٌ
وَلَوْ حَشَدَ ٱلأَنَامَ لَهُمْ نَفِيرُ

ثم سبب ثامن وهو لا من المحب ولا من المحبوب ولكنه من الله تعالى وهو اليأس وفروعه ثلاثة اما موت واما بين لا يرجى معه اوبة واما عارض يدخل على المتحابين بعلة المحب التي من اجلها وثق المحبوب فيغيرها وكل هذه الوجوه فمن اسباب السلو والتصبر وعلى المحب الناسي في هذا الوجه المنقسم الى هذه الاقسام الثلاثة من الغضاضة والذم واستحقاق اسم اللوم والغدر غير قليل وان لليأس لعملًا في النفوس عجيباً وثلجاً لحر الاكباد كبيراً وكل هذه الوجوه المذكورة اولا واخراً فالتأني فيها واجب والتربص على اهلها حسن فيما يمكن فيه التأني ويصح لديه التربص فاذا انقطعت الاطماع وانحسمت الامال فحينئذ يقوم العذر وللشعراء فن من الشعر يذمون فيه الباكي على الدمن ويثنون على المثابر على اللذات وهذا يدخل في باب السلو ولقد اكثر الحسن بن هانيء في هذا الباب وافتخر به وهو كثيراً ما يصف نفسه بالغدر الصريح في اشعاره تحكما بلسانه واقتداراً على القول وفي مثل هذا اقول شعراً منه :

خَلِّ هَذَا وَبَادِرِ ٱلدَّهرَ وَٱرْحَلْ
فِي رِيَاضِ الرُّبى مَطِيَّ القِفَارِ

وَٱحْدُهَا بِالبَدِيعِ مِنْ نَغَمَاتِ العُودِ كَيْمَا تُحَثَّ بِالمِزْمَارِ

إنَّ خيراً مِنَ ٱلوُقوفِ عَلَى الدا
رِ وُقوفُ البَنَانِ بالأَوْتارِ

وَبَدَا النَّرْجِسُ البَدِيعُ كَصَبٍّ
حَائِرِ الطَّرْفِ مَائِلاً كَالمُدَارِ

لَوْنُهُ لَوْنُ عَاشِقٍ مُسْتَهَامٍ
وَهْوَ لاَ شَكَّ هَائِمٌ بالبَهَارِ

ومعاذ الله ان يكون نسيان ما درس لنا طبعاً ومعصية الله بشرب الراح لنا خلقاً وكساد الهمة لنا صفة ولكن حسبنا قول الله تعالى ومن اصدق من الله قيلاً في الشعراء ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون فهذه شهادة الله العزيز الجبـــار لهم ولكن شذوذ القائل للشعر عن مرتبة الشعر خطأ وكان سبب هذه الابيات ان ضنـــا العامرية احدى كرائم المظفر عبد الملك بن ابي عامر كلفتني صنعتها فاجبتها وكنت أجلها ولها فيها صنعة في طريقة النشيد والبسيط رائقة جداً ولقد انشدتها بعض اخواني من اهل الادب فقال سروراً بها يجب ان توضع هذه في جملة عجائب الدنيا فجميع فصول هذا الباب كما ترى ثمانية منها ثلاثة هي من المحب اثنان منها يذم السالي فيها على كل وجه وهما الملل والاستبدال وواحد منها يذم السالي فيه ولا يذم المتصبر وهو الحياء كما

قدمنا واربعة من المحبوب منها واحد يذم الناسي فيه ولا يذم المتصبر وهو الهجر الدائم وثلاثة لا يذم السالي فيها على اي وجه كان ناسياً او متصبراً وهي النفار والجفاء والغدر ووجه ثامن وهو من قبل الله عز وجل وهو اليأس اما يموت او بين او آفة تزمن والمتصبر في هذه معذور وعني اخبرك اني جبلت على طبيعتين لا يهنني معهما عيش ابداً واني لابرم بحياتي باجتماعهما واود التثبت من نفسي احياناً لافقد ما انا بسببه من النكد من اجلهما وهما وفاء لا يشوبه تلون قد استوت فيه الحضرة والمغيب والباطن والظاهر تولده الالفة التي لم تعرف بها نفسي عن ما دريته ولا تتطلع الى عدم من صحبته وعزة نفس لا تقر على الضيم مهتمة لاقل ما يرد عليها من تغير المعارف مؤثرة للموت عليه فكل واحدة من هاتين السجيتين تدعو الى نفسها واني لأجفي فاحتمل واستعمل الانـــاة الطويلة والتلوم الذي لا يكاد يطيقه فاذا افرط الامر وحميت نفسي تصبرت وفي القلب ما فيه وفي ذلك اقول قطعة منها .

لي خَلَّتَانِ أذَاقَانِي ٱلأَسَى جُرَعاً
وَنَغَّصَا عِيشَتِي وَٱسْتَهْلَكَا جَلَدِي

كِلاَهُما ..... نَحْوَ جِبِلَّتِهَا
كَالصَّيْدِ يَنْشَبُ بَيْنَ الذئبِ وَالأَسَدِ

وَفَاءُ صِدْقٍ فَمَا فَارَقْتُ ذَا مِقَةٍ
فَزَالَ حُزْنِي عَلَيْهِ آخِرَ الأَبَدِ

وَعِزَّةٌ لاَ يَحِلُّ الضَيْمُ سَاحَتَهَا

صَرَّامَةً فيــه بالأَمْوالِ وَالوَلَدِ

وبما يشبه ما نحن فيه وان كان ليس منه ان رجلًا من اخواني كنت حللته من نفسي محلها وأسقطت المؤونة بيني وبينه واعددته ذخراً وكنزاً وكان كثير السمع من كل قائل فدب ذو النميمة بيني وبينه فحاكوا فيـه وانجح سعيهم عنده فانقبض عما كنت اعهده فتربصت عليه مدة في مثلها أوب الغائب ورضى العاتب فلم يزد إلا انقباضاً فتركته وحاله .

بَابُ المَوْتِ

وربمـا تزايـد الأمر ورق الطبـع وعظم الاشفاق فكان سبباً للموت ومفارقة الدنيا وقد جاء في الآثار من عشق فعف فمات فهو شهيد وفي ذلك أقول قطعة منها :

فَإِنْ أَهْلِكْ هَوىً أَهْلِكْ شَهِيداً

وَإِنْ تَمْنُنْ بَقِيتُ قَرِيرَ عَيْنِ

رَوَى هذَا لَنَــا قَوْمٌ ثِقَاتٌ

ثَوَوْا بالصِدْقِ عَنْ جَوْحٍ وَمَيْنِ

ولقد حدثني أبو السري عمار بن زياد صاحبنا عمن يثق بـه ان الكاتب ابن قزمـان امتحن بمحبة اسلم بن عبـد العزيز اخي الحاجب هاشم بن عبد العزيز وكان اسلم غاية في الجمال حتى اضجعه لمــا به وأوقعه في اسباب المنية وكان اسلم كثير الالمام به والزيارة له ولا علم له بأنه اصل دائه الى ان توفي اسفاً ودنفاً قال المخبر فأخبرت اسلم بعد وفاته بسبب علته وموته فتأسف وقال هلا اعلمتني فقلت ولِمَ ؟ قال كنت والله ازيد في صلته وما اكاد افارقه نما عليّ في ذلك ضرر وكان اسلم هذا من أهل الأدب البارع والتفنن مع حظ من الفقه وافر وذا بصارة في الشعر وله شعر جيد وله معرفة بالأغاني وتصرفها وهو صاحب تأليف في طرائق غناء زرياب واخبـاره وهو ديوان عجيب جداً وكان أحسن الناس خَلقـاً وخُلقاً وهو والد أبي الجعد الذي كان ساكناً بالجانب الغربي من قرطبة وأنا اعلم جارية كانت لبعض الرؤساء فعزف عنها لشيء بلغه في جهتها لم يكن يوجب السخط فباعها فجزعت لذلك جزعاً شديداً وما فارقها النحول والأسف ولا بان عن عينها الدمع الى أن سُلت وكان ذلك سبب موتها ولم تعش بعد خروجها عنه إلا أشهراً ليست بالكثيرة ولقد أخبرتني عنها امرأة أثق بها انها لقيتها وهي قد صارت كالخيال نحولاً ورقة فقالت لها احسب هذا الذي بك من محبتك افلان فتنفست الصعداء وقالت والله لا نسيته ابداً وان كان جفاني بلا سبب وما عاشت بعد هذا القول إلا يسيراً وأنا اخبرك عن أبي بكر أخي رحمه الله وكان متزوجاً بعاتكة بنت قند صاحب الثغر الأعلى أيام المنصور ابي عامر محمد بن عامر وكانت التي لا مرمى وراءهـا في

جمالها وكريم خلالها ولا تأتي الدنيا بمثلها في فضائلها وكانا في حد الصبى وتمكن سلطانه يغضب كل واحد منهما الكلمة التي لا قدر لها فكانا لم يزالا في تغاضب وتعاتب مدة ثمانية اعوام وكانت قد شفها حبه وأضناها الوجد فيه وأنحلها شدة كلفها به حتى صارت كالخيال المترسم دنفاً لا يلهيها من الدنيا شيء ولا تسر من أموالها على عرضها وتكاثرها بقليل ولا كثير إذ فاتها اتفاقه معها وسلامته لها الى ان توفي أخي رحمه الله في الطاعون الواقع بقرطبة في شهر ذي القعدة سنة احدى واربعمائة وهو ابن اثنين وعشرين سنة فما انفكت منذ بان عنها من السقم الدخيل والمرض والذبول الى ان ماتت بعده بعام في اليوم الذي أكمل هو فيه تحت الارض عاماً ولقد اخبرتني عنها أمها وجميع جواريها انها كانت تقول بعده ما يقوي صبري ويمسك رمقي في الدنيا ساعة واحدة بعد وفاته إلا سروري وتيقني انه لا يضمه وامرأة مضجع ابداً فقد أمنت هذا الذي ما كنت اتخوف غيره وأعظم امالي اليوم اللحاق به ولم يكن له قبلها ولا معها امرأة غيرها وهي كذلك لم يكن لها غيره فكان كما قدرت غفر الله لها ورضي عنها واما خبر صاحبنا أبي عبد الله محمد ابن يحيى بن محمد بن الحسين التميمي المعروف بابن الطبني فانه كان رحمه الله كأنه قد خلق الحسن على مثاله أو خلق من نفس كل من رآه لم اشاهد له مثلا حسناً وجمالاً وخلقاً وعفة وتصاوناً وادباً وفهماً وحلماً ووفاء وسؤدداً وطهارة وكرماً ودماثة وحلاوة ولباقة وصبراً وإغضاء وعقلاً ومروءة وديناً ودراية وحفظاً للقرآن والحديث والنحو واللغة وشاعراً مفلقاً وحسن الخط وبليغاً مفنناً مع حظ صالح من الكلام والجدل وكان من غلمان أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد الازدي استاذي في هذا الشأن وكان بينه وبين أبيه اثنا عشر عاماً في السن وكنت انا وهو متقاربين في الاسنان وكنا أليفين لا نفترق وخدنين لا يجري الماء بيننا صفاء الى ان القت الفتنة جرانها وارخت غزاليها ووقع انتهاب جند البربر

منازلنـــا في الجانب الغربي بقرطبة ونزولهم فيها وكان مسكن أبي عبد الله في الجانب الشرقي ببلاط مغيث وتقلبت بي الامور الى الخروج عن قرطبة وسكني مدينة المرية فكنا نتهادى النظم والنثر كثيراً وآخر ما خاطبني به رسالة في درجها هذه الابيات :

لَيْتَ شِعْري عَنْ حَبْلِ وُدِّكَ هَلْ يُمْسي
جديداً لديَّ غَـــيرَ رثيثِ
وَأَرَاني أَرَى مُحَيَّاكَ يَوْماً
وَأُنَاجِيكَ في بَلاَطِ مُغِيثِ
فَلَوَ أَنَّ الدِيَارَ يُنْهِضُهَا الشَوْقُ
أَتاكَ البَلاَطُ كَالمُسْتَغِيثِ
وَلَوْ أَنَّ القُلُوبَ تَسْطِيعُ سَيْراً
سَارَ قَلْبِي إِلَيْكَ سَيْرَ الحَثِيثِ
كُنْ كَمَا شِئْتَ لي فَإِنِّي مُحِبٌّ
لَيسَ لي غَيْرُ ذِكْرِكُمْ مِنْ حَدِيثِ
لَكَ عِنْدي وَإِنْ تَنَاسَيْتَ عَهْدٌ
في صَمِيمِ الفُؤَادِ غَيْرُ نَكِيثِ

فكنا على ذلك الى ان انقطعت دولة بني مروان وقتل سليمان الظافر

أمير المؤمنين وظهرت دولة الطالبية وبويع علي بن حمود الحسني المسمى بالناصر بالخلافة وتغلب على قرطبة وتملكها واستمر في قتاله اياها بجيوش المتغلبين والثوار في اقطار الاندلس وفي أثر ذلك نكبني خيران صاحب المرية إذ نقل اليه من لم يتق الله عز وجل من الباغين وقد انتقم الله منهم عني وعن محمد بن اسحق صاحبي انا نسعى في القيام بدعوة الدولة الاموية فاعتقلنا عند نفسه اشهراً ثم اخرجنا على جهة التغريب فصرنا الى حصن القصر ولقينا صاحبه أبو القسم عبد الله بن محمد بن هذيل النجيبي المعروف بابن المقفّل فأقمنا عنده شهوراً في خير دار اقامة وبين خير أهل وجيران وعند أجلّ الناس همة وأكملهم معروفاً وأتمهم سيادة ثم ركبنا البحر قاصدين بلنسية عند ظهور أمير المؤمنين المرتضى عبد الرحمن بن محمد وسكناه بها فوجدت ببلنسية أبا شاكر عبد الرحمن بن محمد بن موهب العنبري صديقنا فنعى الي أبا عبد الله بن الطبني واخبرني بموته رحمه الله ثم اخبرني بعد ذلك بمديدة القاضي ابو الوليد يونس بن محمد المرادي وابو عمرو أحمد بن محرّز ان أبا بكر المصعب بن عبد الله الازدي المعروف بابن الفرضي حدثهما وكان والد المصعب هذا قاضي بلنسية ايام امير المؤمنين المهدي وكان المصعب لنا صديقاً وأخاً وأليفاً أيام طلبنا الحديث على والده وسائر شيوخ المحدثين بقرطبة قالا قال لنا المصعب سألت أبا عبد الله بن الطبني عن سبب علته وهو قد نحل وقد خفيت محاسن وجهه بالضنى فلم يبق إلا عين جوهرها المخبر عن صفاتها السالفة وصار يكاد ان يطيره النفس وقرب من الانحناء والشجا باد على وجهه ونحن منفردان فقال لي نعم اخبرك اني كنت على باب داري بقديد الشماس في حين دخول علي بن حمود قرطبة والجيوش واردة عليها من الجهات تتسارب فرأيت في جملتهم فتى لم اقدر أن للحسن صورة قائمة حتى رأيته فغلب على عقلي وهام به لبي فسألت عنه فقيل لي هذا فلان ابن فلان من سكان جهة كذا ناحية قاصية عن قرطبة بعيدة المأخذ فيئست عن رؤيته بعد ذلك ولعمري يا أبا بكر لا

فارقني حبه أو يوردني رمسي فكان كذلك وأنا أعرف ذلك الفتى وادريه وقد رأيته ولكني اضربت عن اسمه لأنه قد مات والتقى كلاهما عند الله عز وجل عفا الله عن الجميع هذا على ان أبا عبد الله اكرم الله نزله ممن لم يكن له ولد قط ولا فارق الطريقة المثلى ولا وطىء حراماً قط ولا قارف مسكراً ولا أتى منهياً عنه يخل بدينه ومروءته ولا قارض من جفا عليه وما كان في طبقتنا مثله ثم دخلت أنا قرطبة في خلافة القاسم ابن حمود المأمون فلم اقدم شيئاً على قصد ابي عمرو القاسم بن يحيى التميمي أخي أبي عبد الله رحمه الله فسألته عن حاله وعزيته عن اخيه وما كان أولى بالتعزية عنه مني ثم سألته عن اشعاره ورسائله اذ كان الذي عندي منه قد ذهب بالنهب في السبب الذي ذكرته في صدر هذه الحكاية فأخبرني عنه انه لما قوبت وفاته وأيقن بحضور المنية ولم يشك في الموت دعا بجميع شعره وبكتبي التي كنت خاطبته أنا بها فقطعها كلها ثم أمر بدفنها قال عمرو فقلت له يا أخي دعها تبقى فقال اني اقطعها وأنا أدري اني اقطع فيها أدباً كثيراً ولكن لو كان أبو محمد بعيني حاضراً لدفعتها اليه تكون عنده تذكرة لمودتي ولكني لا اعلم أي البلاد أضمرته ولا أحي هو أم ميت وكانت نكبتي اتصلت به ولم يعلم مستقري ولا الى ما آل أمري فمن مراثي له قصيدة منها :

لَئِنْ سَتَرَتْـكَ بُطُونُ اللُّحُودِ
فَوَجْدِيَ بَعْـدَكَ لاَ يَسْتَتِرْ

قَصَدتُ دِيَارَكَ قَصْدَ المَشُوقِ
وَلِلدَّهرِ فِينَا كُرُورٌ وَمَرّْ

فَأَفْنَيْتُهَا مِنْكَ قَفْراً خَــلاَءً
فَأَسْكَبْتُ عَيْنِي عَلَيْكَ العِبَرْ

وحدثني أبو القاسم الهمداني رحمه الله قــال كان معنا ببغــداد أخ لعبد الله بن يحيى بن احمد بن دحُّون الفقيه الذي عليه مدار الفتيا بقرطبة وكان اعلم من اخيه وأجل مقداراً ما كان في اصحابنا ببغداد مثله وانــه اجتاز يومــاً بدرب قطنه في زقاق لا ينفذ فدخل فيه فرأى في اقصاه جارية واقفة مكشوفة الوجه فقالت له يا هذا ان الدرب لا ينفذ قال فنظر اليها فهام بها قال وانصرف الينا فتزايد عليه امرها وخشي الفتنة فخرج الى البصرة فمات بها عشقاً رحمه الله وكان فيما ذكر من الصالحين حكاية لم أزل اسمعها عن بعض ملوك البرابر ان رجلاً اندلسياً باع جارية كان يجد بها وجداً شديداً لفاقة اصابته من رجل من اهل ذلك البلد ولم يظن بائعها ان نفسه تتبعها ذلك التتبع فلمــا حصلت عند المشتري كادت نفس الاندلسي تخرج فاتى الى الذي ابتاعها منه وحكمه في مــاله اجمع وفي نفسه فابى عليه فتحمل عليه باهل البلد فلم يسعف منهم احد فكاد عقله ان يذهب ورأى ان يتصدى الى الملك فتعرض له وصــاح فسمعه فامر بادخاله والملك قاعد في علية له مشرفة عالية فوصل اليه فلما مثل بين يديه اخبره بقصته واسترحمه وتضرع اليه فرق له الملك فأمر باحضار الرجل المبتــاع فحضر فقيل له هذا رجل غريب وهو كما تراه وانا شفيعه اليك فابى المبتاع وقال انا اشد حباً لها منه واخشى ان صرفتها اليه ان استغيث بك غداً وانا في اسوأ من حالته فرام به الملك ومن حواليه في اموالهم فابي ولج واعتذر بمحبته لها فلما طال المجلس ولم يروا منه البتة جنوحاً الى الاسعاف قال للاندلسي يا هذا ما لك بيدي اكثر مما ترى وقد جهدت لك بابلغ سعي وهو تراه يعتذر بانه فيها احب منك وانه يخشى على نفسه

شراً مما انت فيه فاصبر لما قضى الله عليك فقال له الاندلسي فما لي بيدك حيلة قال له وهل هاهنا غير الرغبة والبذل ما استطيع لك اكثر فلما يئس الاندلسي منها جمع يديه ورجليه وانصب من اعلى العلية الى الارض فارتاع الملك وصرخ فابتدر اليه الغلمان من اسفل فقضي انه لم يتـأذ في ذلك الوقوع كبير أذى فصعد به الى الملك فقال له ماذا اردت بهذا فقال ايها الملك لا سبيل لي الى الحيـاة بعدها ثم هم ان يرمي نفسه ثانيه فمنع فقال الملك الله اكبر قد ظهر وجـه الحكم في هذه المسألة ثم التفت الى المشتري فقال يا هذا انك ذكرت انك اود لها منه وتخاف ان تصير في مثل حاله فقال نعم قال فـان صاحبك هذا ابدى عنوان محبته وقذف بنفسه يريد الموت لولا ان الله عز وجل وقـاه فانت قم فصحح حبك وترام من اعلى هذه القصبة كما فعل صاحبك فان متّ فبأجلك وان عشت كنت اولى بالجارية اذ هي في يدك ويمضي صاحبك عنك وان ابيت نزعت الجارية منك رغماً ودفعتها اليه فتمنع ثم قال أترامى فلما قرب من الباب ونظر الى الهوى تحته رجع القهقرى فقال له الملك هو والله مـا قلت فهم ثم نكل فلما لم يقدم قال له الملك لا تتلاعب بنا يا غلمان خذوا بيديه وارموا بـه الى الارض فلما رأى العزيمة قال ايها الملك قد طابت نفسي بالجارية فقال له جزاك الله خيراً فاشتراها منه ودفعها الى بائعهـا وانصرفا .

بَابُ قُبْحِ المَعْصيةِ

قال المصنّف رحمه الله تعالى وكثير من الناس يطيعون انفسهم ويعصون عقولهم ويتبعون اهواءهم ويرفضون اديانهم ويتجنبون ما حضّ الله تعالى عليه ورتبه في الالباب السليمة من العفة وترك المعاصي ومقارعة الهوى ويخالفون الله ربهم ويوافقون ابليس فيما يحبه من الشهوة المعطبة فيواقعون المعصية في حبهم وقد علمنا ان الله عز وجل ركب في الانسان طبيعتين متضادتين احداهما لا تشير الا بخير ولا تحض الا على حسن ولا يتصور فيها الا كل امر مرضي وهي العقل وقائده العدل والثانية ضد لها لا تشير الا الى الشهوات ولا تقود الا الى الردى وهي النفس وقائدها الشهوة والله تعالى يقول ان النفس لأمارة بالسوء وكني بالقلب عن العقل فقال إن في ذلك لذكرى لمن له قلب او القى السمع وهو شهيد وقال تعالى وحبب اليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وخاطب اولو الالباب فهاتان الطبيعتان قطبان في الانسان وهما قوتان من قوى الجسد الفعال بهما ومطرحان من مطارح شعاعات هذين الجوهرين العجيبين الرفيعين العلويين ففي كل جسد منها حظه على قدر مقابلته لهما في تقدير الواحد الصمد تقدست اسماؤه حين خلقه وهيأه فهما يتقابلان ابداً ويتنازعان دأباً فاذا غلب العقل النفس ارتدع الانسان وقمع عوارضه المدخولة واستضاء بنور الله واتبع العدل و اذا غلبت النفس العقل عميت البصيرة ولم يصح الفرق بين الحسن

والقبيح وعظم الالتباس وتردى في هوّة الردى ومهواة الهلكة وبهذا حسن الامر والنهي ووجب الاكتال وصح الثواب والعقاب واستحق الجزاء والروح واصل بين هاتين الطبيعتين وموصل ما بينها وحامل الالتقاء بهما وان الوقوف عند حد الطاعة لمعدوم الا مع طول الرياضة وصحة المعرفة ونفاذ التمييز ومع ذلك اجتناب التعرض للفتن ومداخلة الناس جملة والجلوس في البيوت وبالحرا أن يقع السلامة المضمونة او يكون الرجل حصوراً لا ارب له في النساء ولا جارحة له تعينه عليهن قديماً ولقد من وُقي شر لقلقه وقبقبه وذبذبه فقد وقي شر الدنيا بجذافيرها واللقلق اللسان والقبقب البطن والذبذب الفرج ولقد اخبرني ابو حفص الكاتب هو من ولد روح بن زنباع الجذامي انه سمع بعض المتسمين باسم الفقه من اهل الرواية المشاهير وقد سئل عن هذا الحديث فقال القبقبة البطيخ وحدثنا احمد بن محمد بن احمد ثنا وهب بن مسرة ومحمد بن ابي دليم عن محمد بن وضاح عن يحيى بن يحيى عن ملك بن انس عن زيد بن اسلم عن عطاء بن يسار ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث طويل من وقاه الله شر اثنتين دخل الجنة فسئل عن ذلك فقال ما بين لحييه وما بين رجليه واني لاسمع كثيراً ممن يقول الوفاء في قمع الشهوات في الرجال دون النساء فاطيل العجب من ذلك وان لي قولاً لا احول عنه الرجال والنساء في الجنوح الى هذين الشيئين سواء وما رجل عرضت له امرأة جميلة بالحب وطال ذلك ولم يكن ثم مانع الا وقع في شرك الشيطان واستهوته المعاصي واستفزه الحرص وتغوله الطمع وما امرأة دعاها رجل بمثل هذه الحالة الا وامكنته حتماً مقضياً وحكما نافذاً لا محيد عنه البتة ولقد اخبرني ثقة صدق من اخواني من اهل التمام في الفقه والكلام والمعرفة وذو صلابة في دينه انه احب جارية نبيلة اديبة ذات جمال بارع قال فعرضت لها فنفرت ثم عرضت فابت فلم يزل الامر يطول وحبها يزيد وهي مما لا تطيع البتة الى ان حملني فرط حبي لها مع عمي

الصبي على أن نذرت اني متى نلت منها مرادي ان اتوب الى الله توبة صادقة قال فما مرت الايام والليالي حتى اذعنت بعد شماس ونفار فقلت له أبو فلان وفيت بعهدك فقال اي والله فضحكت وذكرت بهذه الفعلة ما لم يزل يتداول اسماعنا من ان في بلاد البربر التي تجاور اندلسنا يتوب الفاسق على انه اذا قضى وطره ممن أراد ان يتوب الى الله فلا يمنع من ذلك وينكرون على من تعرض له بكلمة ويقولون له أتحرّم رجلا مسلماً التوبة قال ولعهدي بها تبكي وتقول والله لقد بلغتني مبلغاً ما خطر قط لي ببال ولا قدرت أن اجيب اليه احداً ولست أبعدُ أن يكون الصلاح في الرجال والنساء موجوداً وأعوذ بالله أن أظن غير هذا واني رأيت الناس يغلطون في معنى هذه الكلمة أعني الصلاح غلطاً بعيداً والصحيح في حقيقة تفسيرها ان الصالحة من النساء هي التي إذا ضبطت انضبطت وإذا قطعت عنها الذرائع امتسكت والفاسدة هي التي إذا ضبطت لم تنضبط وإذا حيل بينها وبين الاسباب التي تسهل الفواحش تحيلت في ان تتوصل اليها بضروب من الحيل والصالح من الرجال من لا يداخل أهل الفسوق ولا يتعرض من المناظرة الجالبة للاهواء ولا يرفع طرفه الى الصور البديعة التركيب والفاسق من يعاشر اهل النقص وينشر بصره الى الوجوه البديعة الصنعة ويتصدى للمشاهد المؤذية ويحب الخلوات المهلكات والصالحان من الرجال والنساء كالنار الكامنة في الرماد لا تحرق من جاورها الا بان تحرك والفاسقان كالنار المشتعلة تحرق كل شيء واما امرأة مهملة ورجل متعرّض فقد هلكا وتلفا ولهذا حرم على المسلم الالتذاذ بسماع نغمة امرأة اجنبية وقد جعلت النظرة الاولى لك والاخرى عليك وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تأمل امرأة وهو صائم حتى يرى حجم عظامها فقد افطر وان في ما ورد عن النهي عن الهوى بنص التنزيل لشيئاً مقنعاً وفي ايقاع هذه الكلمة اعني الهوى اسماً على معان واشتقاقها عند العرب وذلك دليل على ميل النفوس وهويها الى هذه المقامات وان

المتمسك عنها مقارع لنفسه محارب لها وشيء اصفه لك تراه عياناً وهو اني ما رأيت قط امرأة في مكان تحس ان رجلا يراهـــا او يسمع حسها الا واحدثت حركة فاضلة كانت عنها بمعزل واتت بكلام زايد كانت عنه في غنية مخالفين لكلامها وحركتها قبل ذلك ورأيت التهمم لمخارج لفظها وهيئة تقلبها لائحاً فيها ظاهراً عليها لا خفـــاء به والرجال كذلك اذا احسوا بالنساء وأمـــا اظهار الزينة وترتيب المشي وايقاع المزح عند خطور المرأة بالرجل واجتياز الرجل بالمرأة فهذا اشهر من الشمس في كل مكان والله عز وجل يقول قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ويحفظوا فروجهم وقـــال تقدست اسماؤه ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن فلولا علم الله عز وجل برقـــة اغماضهن في السعي لايصال حبهن الى القلوب ولطف كيدهن في التحيل لاستجلاب الهوى لما كشف الله عن هذا المعنى البعيد الغامض الذي ليس وراءه مرمى وهذا حد التعرض فكيف بما دونه ولقد أطلعت من سر معتقد الرجال والنساء في هذا على أمر عظيم وأصل ذلك أني لم أحسن قط بأحد ظناً في هذا الشأن مـع غيرة شديدة ركبت فيّ وحدّثنا أبو عمر أحمد بن محمد بن أحمد ثناء أحمد ثنـاء محمد بن عليّ بن رفاعة حدثنا عليّ بن عبد العزيز حدثنا أبو عبيد القاسم بن سلام عن شيوخه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الغيرة من الايمان فلم أزل باحثـاً عن اخبارهنّ كاشفاً عن اسرارهنّ وكنّ قـد أنسن مني بكتمان فكن يطلعنني على غوامض أمورهنّ ولولا ان أكون منبهاً على عورات يستعاذ بالله منها لأوردت من تنبههنّ في الشر ومكرهنّ فيه عجائب تذهل الألباء واني لأعرف هذا واتقنه ومع هذا يعلم الله وكفى به عليمـــاً اني بريء الساحة سليم الأديم صحيح البشرة نقي الحجرة واني اقسم بالله أجل الأقسام اني ما حللت ميزري على فرج حرام قط ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنا مذ عقلت الى يومي هذا والله المحمود على ذلك والمشكور فيما مضى والمستعصم فيما بقي حدثنا القاضي أبو عبد الرحمن بن عبدالله بن عبد الرحمن بن حجـاف

المعافري وانه لأفضل قاض رأيته عن محمد بن ابراهيم الطليطلي عن القاضي بمصر بكر بن العلاء في قول الله عز وجل وأما بنعمة ربك فحدث ان لبعض المتقدمين فيه قولاً وهو ان المسلم يكون مخبراً عن نفسه بما أنعم الله تعالى به عليه من طاعة ربه التي هي أعظم النعم ولا سيا في المفترض على المسلمين اجتنابه واتباعه وكان السبب فيا ذكرته اني كنت وقت تأجج نار الصبى وشرّة الحداثة وتمكن غرارة الفتوة مقصوراً محظوراً عليّ بين رقباء ورقائب فلما ملكت نفسي وعقلت صحبت أبا علي الحسين بن علي الفاسي في مجلس ابي القاسم عبد الرحمن بن ابي يزيد الأزدي شيخنا واستاذي رضي الله عنه وكان أبو علي المذكور عاقلاً عاملاً عالماً ممن تقدم في الصلاح والنسك الصحيح في الزهد في الدنيا والاجتهاد للآخرة واحسبه كان حصوراً لأنه لم تكن له امرأة قط وما رأيت مثله جملة علماً وعملاً وديناً وورعاً فنفعني الله به كثيراً وعلمت موقع الاساءة وقبح المعاصي ومات أبو علي رحمه الله في طريق الحج ولقد ضمني المبيت ليلة في بعض الأزمان عند امرأة من بعض معارفي مشهورة بالصلاح والخير والحزم ومعها جارية من بعض قراباتها من اللاتي قد ضمها معي النشأة في الصبى ثم غبت عنها أعواماً كثيرة وكنت تركتها حين أعمرت ووجدتها قد جرى على وجهها ماء الشباب ففاض وانساب وتفجرت عليها ينابيع الملاحة فترددت وتحيرت وطلعت في سماء وجهها نجوم الحسن فأشرقت وتوقدت وانبعثت في خديها أزاهير الجمال فتمت واعتمت فأتت كما أقول :

خَرِيدَةٌ صَاغَهَا الرَّحْمٰنُ مِنْ نُورِ
جَلَّتْ مَلَاحَتُهَا عَنْ كُلِّ تَقْدِيرِ
لَوْ جَاءَنِي عَمَلِي فِي حُسْنِ صُورَتِهَا
يَوْمَ الحِسَابِ وَيَوْمَ النَّفْخِ فِي الصُّورِ

لَكُنْتُ أحظَى عِبَادِ اللهِ كُلِّهِمُ
بالجَنَّتَيْنِ وَقُرْبِ الخُرَّدِ الحُورِ

وكانت من أهل بيت صباحة وقد ظهرت منه صورة تعجز الوصاف وقد طبق وصف شبابها قرطبة فبتُّ عندها ثلاث ليال متوالية ولم تحجب عني على جاري العادة في التربية فلعمري لقد كاد قلبي ان يصبو ويثوب اليه مرفوض الهوى ويعاوده منسي الغزل ولقد امتنعت بعد ذلك من دخول تلك الدار خوفاً على لبّي ان يزدهيه الاستحسان ولقد كانت هي وجميع أهلها ممّن لا تتعدى الأطماع اليهنّ ولكن الشيطان غير مأمون الغوائل وفي ذلك أقول :

لاَ تُتْبِعِ ٱلنَّفْسَ الهَوَى
وَدَعِ ٱلتَّعَرُّضَ لِلْمِحَنْ

إبْلِيسُ حَيٌّ لَمْ يَمُتْ
وَالعَيْنُ بَابٌ لِلْفِتَنْ

وأقول :

وَقَائِلٍ لِيَ هَذَا
ظَنٌّ يُرِيدُكَ غَيَّا

فَقُلْتُ دَعْ عَنْكَ لَوْمي

أَلَيْسَ إِبْليسُ حَيًّا

وما أورد الله تعالى علينا من قصة يوسف بن يعقوب وداود بن يشى رسل الله عليهم السلام الا ليعلمنا نقصاننا وفاقتنا الى عصمته وان بنيتنا مدخولة ضعيفة فإذا كانا صلى الله عليهما وهما نبيّان رسولان ابناء انبياء رسل ومن أهل بيت نبوّة ورسالة متكررين في الحفظ مغموسين في الولاية محفوفين بالكلاءة مؤيدين بالعصمة لا يجعل للشيطان عليهما سبيل ولا فتح لوسواسه نحوهما طريق وبلغا حيث نص الله عز وجل علينا في قرآنه المنزل بالجبلة الموكلة والطبع البشري والخلقة الأصيلة لا بتعمد الخطيئة ولا القصد اليها إذ النبيّون مبرؤون من كل ما خالف طاعة الله عز وجل لكنه استحسان طبيعي في النفس الصور فمن ذا الذي يصف نفسه بملكها ويتعاطى ضبطها إلا بحول الله وقوته وأول دم سفك في الأرض فدم أحد ابني آدم على سبب المنافسة في النساء ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول باعدوا بين أنفاس الرجال والنساء وهذه امرأة من العرب تقول وقد حبلت من ذي قرابة لها حين سئلت ما ببطنك يا هند فقالت قرب الوساد وطول السواد وفي ذلك أقول شعراً منه .

لَا تَلُمْ مَنْ عَرَّضَ النَّفْسَ لِمَا

لَيْسَ يَرْضَى غَيْرَهُ عِنْدَ المِحَنْ

لَا تُقَرِّبْ عَرْفَجاً مِنْ لَهَبٍ

وَمَتَى قَرَّبْتَهُ قَامَتْ دُخَنْ

لاَ تُصَرِّفْ ثِقَةً فِي أَحَـــدٍ
فَسَدَ النَّاسُ جَمِيعاً وَالزَمَنْ

خُلِقَ النِسْوَانُ لِلْفَحْلِ كَمَا
خُلِقَ الفَحْلُ بِـــلاَ شَكٍّ لَهُنْ

كُلُّ شَكْلٍ يَتَشَهَّى شَكْلَهُ
لاَ تَكُنْ عَنْ أَحَدٍ تَنْفِي الظَنَنْ

صِفَةُ الصَالِحِ مَنْ إنْ صُنْتَهُ
عَنْ قَبِيحٍ أَظْهَرَ الطَوْعَ الحَسَنْ

وَسِوَاهُ مَنْ إذَا ثَقَّفْتَـــهُ
أَعْمَلَ الحِيلَةَ فِي خَلْعِ الرَسَنْ

واني لأعلم فتى من أهل الصيانة قد أولع بهوى له فاجتاز بعض اخوانه فوجده قاعداً مع من يحب فاستجلبـه الى منزله فأجابه الى منزله بامتثـال المسير بعده فمضى داعيه الى منزله وانتظره حتى طـــال عليه التربص فلم يأته فلما كان بعـــد ذلك اجتمع به داعيه فعدّد عليه وأطال لومـه على إخلافه موعده فاعتذر وورّى فقلت أنا للذي دعاه أنا اكشف عذره صحيحاً

من كتاب الله عز وجل إذ يقول : ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فضحك من حضر وكلفت أن أقول في ذلك شيئاً فقلت :

وَجَرْحكَ لي جُرْحَ جبَّار ٍفَلاَ تَلُمْ
وَلَكِنَّ جُرْحَ الحُبِّ غيرُ جبَّارِ

وَقَدْ صارَتِ الخيلانُ وَسْطَ بيَاضِهِ
كَنبلُوفَرٍ حفَّتْهُ رَوْضُ بَهَارِ

وَكَمْ قَالَ لي مَنْ متُّ وَجداً بحبِّهِ
مَقَالَةَ محْلُولِ المقَــالَةِ زَارِي

وَقَدْ كَثُرَتْ مِنِّي إِلَيْهِ مَطَالِبُ
أُلِحُّ علَيْــهِ تارَةً وَ أُدَارِي

أَمَا في ٱلتوَانِي مَا يُبَرِّدُ غُلَّةً
وَيُذْهِبُ شَوْقاً في ضُلوعِك سَارِي

فَقُلْتُ لَهُ لَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ تَكُنْ
عدَاوَةُ جارٍ في ٱلأَنَامِ لجَــارِ

وَقَدْ تَتَرَاءَى العَسْكَرَانِ لَدَا الوَغى

وَبَيْنَهُمَا لِلْمَوْتِ سُبْلُ بَوَارِ

ولي كلمتان قلتهما معرضاً بل مصرحاً برجل من اصحابنا كنا نعرفه كلنا من اهل الطلب والعناية والورع وقيــــام الليل واقتفاء اثار النساك وسلوك مذاهب المتصوفين القدماء باحثاً مجتهداً ولقد كنا نتجنب المزاح بحضرته فلم يمض الزمن حتى مكن الشيطان من نفسه وفتك بعد لباس النساك وملك ابليس من خطامه فسول له الغرور وزين له الويل والثبور واجره رسنه بعد اباء واعطاه ناصيته بعد شماس فخب في طـاعته واوضع واشتهر بعد ما ذكرته في بعض المعاصي القبيحة الوضرة ولقد اطلت ملامه وتشددت في عذله اذ اعلن بالمعصية بعد استتار الى ان افسد ذلك ضميره علي وخبثت نيته لي وتربص في الدوائر السوء وكان بعض اصحابنا يساعده بالكلام استجراراً اليه فيأنس به ويظهر له عداوتي الى ان اظهر الله سريرته فعلمها البادىء والحاضر وسقط من عيون الناس كلهم بعد ان كان مقصداً للعلماء ومنتاباً للفضلاء ورذل عند اخوانه جملة اعاذنا الله من البلاء وسترنا في كفايته ولا سلبنا ما بنا من نعمته فياسوءتاه لمن بــــدأ بالاستقامة ولم يعلم ان الخذلان يحل به وان العصمة ستفارقه لا اله الا الله ما اشنع هذا وافظعه لقد دهمته احدى بنات الحرس والقت عصاها به أم طبق من كان لله اولا ثم صار للشيطان آخراً ومن احدى الكلمتين :

أَمَّا الغُلَامُ فَقَدْ حَانَتْ فَضِيحَتُهُ

وَإِنَّهُ كَانَ مَسْتُوراً وَقَدْ هُتِكَا

مَا زَالَ يَضْحَكُ مِنْ أَهلِ الهَوَى عَجَباً
فَالآنَ كُلُّ جَهُولٍ مِنْهُ قَدْ ضَحِكَا

إِلَيْكَ لاَ تَلْحُ صَبًّا هَائِماً كَلِفاً
يَرَى التَهَتُّكَ فِي دِينِ الهَوَى نُسُكَا

قَدْ كَانَ دَهراً يُعَانِي النُسْكَ مُجْتَهِداً
يُعَدُّ فِي نُسْكِهِ كُلُّ إِمْرِىءٍ نَسَكَا

ذُو مَخْبَرٍ وَكِتَابٍ لاَ يُفَارِقُهُ
نَحْوَ المُحَدِّثِ يَسْعَى حَيْثُ مَا سَلَكَا

فَاعْتَاضَ مِنْ سُمْرِ أَقْلاَمٍ بَنَانَ فَتىً
كَأَنَّهُ مِنْ لُجَيْنٍ صِيغَ أَوْ سُبِكَا

يَا لاَئِمِي سَفهاً فِي ذَاكَ قِلْ فَلَمْ
تَشْهَدْ جَبِينَيْنِ يَوْمَ المُلْتَقَى اُشْتَبَكَا

دَعْنِي وَوِرْدِي فِي الآبَارِ أَطْلُبُهُ
إِلَيْكَ عَنِّي كَذَا لاَ أَبْتَغِي البِرَكَا

إِذَا تَعَفَّفْتَ عَفَّ الحُبُّ عَنْكَ وَإِنْ
تَرَكْتَ يَوْماً فَإِنَّ الحُبَّ قَدْ تَرَكَا

وَلاَ تَحُلَّ مِنَ الهِجْرَانِ مُنْعَقِداً
إِلاَّ إِذَا مَا حَلَلْتَ الإِزرَ وَالتِّكَكَا

وَلاَ تُصَحِّحُ لِلسُّلْطَانِ مَمْلَكَةً
أَوْ تَدْخُلُ البُرْدُ عَنْ إِنْفَاذِهِ السِّكَكَا

وَلاَ بِغَيْرِ كَثِيرِ المَسْحِ يَذْهَبُ مَا
يَعْلُو الحَدِيدَ مِنْ الإِصْدَاءِ إِنْ سَبِكَا

وكان هذا المذكور من اصحابنا قد احكم القراآت احكاما جيدا واختصر كتاب الانباري في الوقف والابتداء اختصارا حسناً اعجب به من رآه من المقرئين وكان دائباً على طلب الحديث وتقييده واكثر ذهنه هو المتولي لقراءة ما يسمعه على الشيوخ المحدثين مثابرا على النسخ مجتهداً به فلما امتحن بهذه البلية مع بعض الغلمان رفض ما كان معتنياً به وباع اكثر كتبه واستحال استحالة كلية نعوذ بالله من الخذلان وقلت فيه كلمة وهي التالية للكلمة التي ذكرت منها في اول خبره ثم تركتها وقد ذكر ابو الحسين احمد بن يحيى بن اسحق الرويدي في كتاب اللفظ

والاصلاح أن ابراهيم بن سيار النظام رأس المعتزلة مع علو طبقته في الكلام وتمكنه وتحكمه في المعرفة تسبب الى ما حرم الله عليه من فتى نصراني عشقه بان وضع له كتاباً في تفضيل التثليث على التوحيد فيا غوثاه عياذك يا رب من تولج الشيطان ووقوع الخذلان وقد يعظم البلاء وتكلب الشهوة ويهون القبيح ويرق الدين حتى يرضى الانسان في جنب وصوله الى مراده بالقبائح والفضائح كمثل ما دهم عبيد الله بن يحيى الازدي المعروف بابن الجزيري فانه رضي باهمال داره واباحة حريمه والتعريض باهله طمعاً في الحصول على بغيته من فتى كان علقه نعوذ بالله من الضلال ونسأله الحياطة وتحسين اثارنا واطابة اخبارنا حتى لقد صار المسكين حديثاً تعمر به المحافل وتصاغ فيه الأشعار وهو الذي تسميه العرب الديوث وهو مشتق من التدييث وهو التسهيل وما بعد تسهيل من تسمح نفسه بهذا الشأن تسهيل ومنه بعير مديث أي مذلل ولعمري ان الغيرة لتوجد في الحيوان بالخلقة فكيف وقد اكدتها عندنا الشريعة وما بعد هذا مصاب ولقد كنت اعرف هذا المذكور مستوراً الى ان استهواه الشيطان ونعوذ بالله من الخذلان وفيه يقول عيسى بن محمد بن محمل الخولاني :

يَا جَاعِلاً إِخْرَاجَ حُرِّ نِسَائِه
شَرَكاً لِصَيْدِ جَاذِرِ الغِزْلاَنِ

إِنِّي أَرَى شَرَكاً يُمَزَّقُ ثُمَّ لاَ
تَحْظَى بِغَيْرِ مَذَلَّةِ الحِرْمَانِ

وأُقول أنا أيضاً :

أَباحَ أبُو مَرْوَانَ حُرَّ نِسَائِـــه
لِيَبْلُغَ مَا يَهْوَى مِنَ الرَّشَاءِ الفَرْدِ

فَعَاتَبْتُهُ الدَيُّوثَ في قُبْـــحِ فِعْلِهِ
فَأَنْشَدَني إِنْشَادَ مُسْتَبْصِرٍ جَلْدِ

لَقَدْ كُنْتُ أَدْرَكْتُ المُنَى غَيْرَ أَنَّني
يُعَيِّرُني قَوْمي بإدْرَاكِهَا وَحْدِي

وأقول أيضاً :

رَأَيْتُ الجَزِيريَّ فِيما يُعَـــاني
قَليلَ الرَّشَادِ كَثِيرَ السَّفَاهِ

يَبيعُ وَيَبْتَـاعُ عِرْضاً بعرْضٍ
أُمورٌ وَجدِّكَ ذَاتَ اشْتبَاهِ

وَيَأْخُذُ مِياً بإعطاءِ هَــاْءٍ
أَلاَ هَكَذَا فَلْيَكُنْ ذُو النَّوَاهِي

وَيَبْدُلُ أرْضاً تُغَذِّي النَّبَاتَ
بأَرْضٍ تُحَفُّ بشَوْكِ العِضَاهِ

لَقَدْ خابَ في تَجْرِه ذُو ٱبْتِيَاعٍ
مَهَبَّ الرِّيَاحِ بمَجْرَى المِيَاهِ

ولقد سمعته في المسجد الجامع يستعيذ بالله من العصمة كما يستعاذ بـه من الخذلان ومما يشبه هذا اني اذكر اني كنت في مجلس فيه اخوان لنا عند بعض مياسير اهل بلدنا فرأيت بين بعض من حضر وبين من كان بالحضرة ايضـاً من اهل صاحب المجلس امراً انكرته وغمزاً استبشعته وخلوات الحين بعد الحين وصاحب المجلس كالغائب أو النائم فنبهته بالتعريض فلم ينتبه وحركته بالتصريح فلم يتحرك فجعلت اكرر عليه بيتين قديمين لعله يفطن وهما هذان :

إنَّ إِخْوَانَهُ ٱلْمُقِيمِينَ بالأَمْسِ أَتَوْا لِلزِّنَاءِ لاَ لِلْغِنَاءِ
قَطَعُوا أَمْرَهُمْ وَأَنْتَ حِمَــارٌ
مُوقَرٌ مِنْ بَلاَدَةٍ وَعَيَاءِ

واكثرت من أنشادهن حتى قال لي صاحب المجلس قد أمللتنا من سماعها فتفضل بتركها أو انشاد غيرها فأمسكت وأنا لا ادري اغافل هو أم متغافل وما اذكر اني عدت الى ذلك المجلس بعدهـا وقلت فيه قطعة منها :

أَنتَ لاَ شَكَّ أَحسَنُ النَاسِ ظَنّاً
وَيَقيناً وَ نِيَّةً وَ ضَميراً

فَاْنتَبِهْ إِنَّ بَعضَ مَنْ كَانَ بالأَمسِ جَليساً لَنَا يُعَاني كَبيرَا

لَيسَ كُلُّ الرُكوعِ فَاْعلَمْ صَلاَةً
لاَ وَلاَ كُلُّ ذِي لِحَاظٍ بَصيرَا

وحدثني ثعلب بن موسى الكلاذاني قال حدثني سليمان بن احمد الشاعر قال حدثتني امرأة اسمها هند كنت رأيتها في المشرق وكانت قد حجت خمس حجات وهي من المتعبدات المجتهدات قال سليمان فقالت لي يابن أخي لا تحسن الظن بامرأة قط فاني اخبرك عن نفسي بما يعلمه الله عز وجل ركبت البحر منصرفة من الحج وقد رفضت الدنيا وأنا خامسة خمس نسوة كلهن قد حججن وصرنا في مركب في بحر القلزم وفي بعض ملاحي السفينة رجل مضمر الخلق مديد القامة واسع الاكتاف حسن التركيب فرأيته أول ليلة قد أتى الى احدى صواحبي فوضع احليله في يدها وكان ضخماً جداً فأمكنت في الوقت من نفسها ثم مر عليهن كلهن في ليال متواليات فلم يبق له غيرها تعني نفسها قالت فقلت في نفسي لانتقمن منك فأخذت موسى وامسكتها بيدي

فأتى في الليل على جاري عادته فلما فعل كفعله في سائر الليالي سقطت الموسى عليـــه فارتاع وقام لينهض قالت فأشفقت عليه وقلت له وقد امسكته لا زلت أو آخـذ نصيبي منك قالت العجوز فقضى وطره واستغفر الله وان للشعراء من لطف التعريض عن الكناية لعجباً ومن بعض ذلك قولي حيث اقول :

أَتَانِي وَمَاءُ المُزْنِ فِي الجَوِّ يُسْفَكُ
كَمَحْضِ لُجَيْنٍ إِذْ يُمَدُّ وَيُسْبَكُ

هِلاَلُ الدَّيَاجِي أُنْحَطَّ مِنْ جَوِّ أُفْقِه
فَقُلْ فِي مُحِبٍّ نَالَ مَا لَيْسَ يُدْرَكُ

وَكَانَ ٱلَّذِي إِنْ كُنْتَ لِي عَنْهُ سَائِلاً
فَمَا لِي جَوَابٌ غَيْرَ أَنِّي أَضْحَكُ

لِفَرْطِ سُرُورِي خِلْتُنِي عَنْهُ نَائِمـاً
فَيَـا عَجَباً مِنْ مُوقِنٍ يَتَشَكَّكُ

وأقول أيضاً قطعة منها :

أَتَيْتَنِي وَهِلاَلُ الجَـوِّ مُطَّلِعٌ
قُبَيْلَ قَرْعِ النَّصَارَى لِلنَّوَاقِيسِ

كَحَاجِبِ الشَيْخِ عَمَّ الشَيْبُ أَكْثَرَهُ
وَأَخْمَصِ الرِجْلِ في لُطْفٍ وتَقْوِيسِ

وَلاَحَ في ٱلأُفْقِ قَوْسُ اللهِ مُكْتَسِياً
مِنْ كُلِّ لَوْنٍ كَأَذْنَابِ الطَوَاوِيسِ

وان فيا يبدو الينا من تعادي المتواصلين في غير ذات الله تعالى بعد الألفة وتدابرهم بعد الوصال وتقاطعهم بعد المودة وتباغضهم بعد المحبة واستحكام الضغائن وتأكد السخائم في صدورهم لكاشفاً ناهياً لو صادف عقولاً سليمة وآراء نافذة وعزائم صحيحة فكيف بما أعد الله لمن عصاه من النكال الشديد يوم الحساب وفي دار الجزاء ومن الكشف على رؤوس الخلائق يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد جعلنا الله ممن يفوز برضاه ويستحق رحمته ولقد رأيت امرأة كانت مودتها في غير ذات الله عز وجل فعهدتها أصفى من الماء وألطف من الهواء وأثبت من الجبال وأقوى من الحديد وأشد امتزاجاً من اللون في الملون وأنفذ استحكاماً من الاعراض في الاجسام وأضوأ من الشمس وأصح من العيان وأثقب من النجم وأصدق من كدر القطا وأعجب من الدهر وأحسن من البر وأجمل من وجه أبي عامر وألذ من العافية وأحلى من المنى وأدنى من النفس وأقرب من النسب وأرسخ من النقش في الحجر ثم لم ألبث أن رأيت تلك المودة قد استحالت عداوة افظع من الموت وأنفذ من السهم وأمر من السقم وأوحش من زوال النعم وأقبح من حلول النقم وأمضى من عقم الرياح وأضر من الحمق وأدهى من غلبة العدو وأشد من الأسر

وأقسى من الصخر وابغض من كشف الاستار وانأى من الجوزاء واصعب من معاناة السماء واكبر من رؤية المصاب واشنع من خرق العادات واقطع من فجأة البلاء وابشع من السم الذعاف وما لا يتولد مثله عن الدخول والتراث وقتل الابـاء وسبي الامهات وتلك عـادة الله في اهل الفسق القاصدين سواه الآمين غيره وذلك قوله عز وجل ياليتني لم اتخذ فلانـا خليلًا لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني فيجب على اللبيب الاستجارة بالله مما يورط فيه الهوى فهذا خلف مولى يوسف بن قمقـام القائد المشهور كان احد القـايمين مع هشام بن سليمان بن الناصر فلمـا امر هشام وقتل وهرب الذين وازروه فر خلف في جملتهم ونجـا فلما اتى القسطلات لم يطق الصبر عن جـارية كانت له بقرطبة فكر راجعاً فظفر بـه امير المؤمنين المهدي فأمر بصلبه فلعهدي به مصاوباً في المرج على النهر الأعظم وكأنه القنفذ من النبل ولقد اخبرني أبو بكر محمد بن الوزير عبد الرحمن ابن الليث رحمه الله ان سبب هروبه الى محلة البرابر ايام تحولهم مع سليمان الظافر انما كان لجارية يكلف بهـا تصيرت عند بعض من كان في تلك الناحية ولقد كاد ان يتلف في تلك السفرة وهذان الفصلان وان لم يكونا من جنس الباب فانهما شاهدان على ما يقود اليه الهوى من الهلاك الحاضر الظاهر الذي يستوي في فهمه العـالم والجاهل فكيف من العصمة التي لا يفهمهـا من ضعفت بصيرته ولا يقولن امرء خلوت فهو وان انفرد فبمرأى ومسمع من علام الغيوب الذي يعلم خائنة الأعين ومـا تخفي الصدور ويعلم السر وأخفى وما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا اكثر إلا هو معهم اينما كانوا وهو عليم بذات الصدور وهو عالم الغيب والشهادة ويستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم وقال واقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد وليعلم المستخف

بالمعاصي المتكل على التسويف المعرض عن طاعة ربه ان أبليس كان في الجنـــة مع الملائكة المقربين فلمعصية واحدة وقعت منه استحق لعنـة الأبد وعذاب الخلد وصيّر شيطاناً رجيماً وأبعد عن رفيـع المكان وهذا آدم صلى الله عليه وسلم بذنب واحد أخرج من الجنة الى شقاء الدنيـــا ونكدها ولولا أنه تلقى من ربه كلمات وتاب عليه لكان من الهالكين افترى هذا المغتر بالله ربه وباملائه ليزداد إثما يظن انه أكرم على خالقه من أبيه آدم الذي خلقه بيده ونفخ فيه من روحه واسجد له ملائكتـه الذين هم أفضل خلقه عنده أو عقابه أعز عليه من عقوبته أياه كلا ولكن استعذاب التمني واستيطاء مركب العجز وسخف الرأي قائدة أصحابها الى الوبال والخزي ولو لم يكن عند ركوب المعصية زاجر من نهي الله تعالى ولا حام من غليظ عقابه لكان في قبيح الأحدوثة عن صاحبه وعظيم الظلم الواقع في نفس فاعله اعظم مانع وأشد رادع لمن نظر بعين الحقيقة واتبـع سبيل الرشد فكيف والله عز وجل يقول ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق اثامـــاً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً حدثنا الهمداني في مسجد القمري بالجانب الغربي من قرطبة سنة احدى واربعمائة حدثنـــا ابن سبويه وابو اسحق البلخي بخراسان سنة خمس وسبعين وثلثمائة قالا ثنا محمـــد بن يوسف ثنا محمـــد ابن اسمعيـــل ثنا قتيبة بن سعيد ثنا جرير عن الأعمش عن أبي وائل عن عمرو بن شرحبيل قال قال عبد الله وهو ابن مسعود قال رجل يا رسول الله أي الذنب اكبر عند الله قال ان تدعو لله نداً وهو خلقك قال ثم أي قال ان تقتل ولدك ان يطعم معك قال ثم أي قال ان تزاني حليلة جارك فأنزل الله تصديقها والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون الآية وقال عز وجل الزانيـة والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ان كنتم تؤمنون بالله الآية حدثنا الهمداني عن ابي اسحق البلخي وابن

سبويه عن محمد بن يوسف عن محمد بن اسمعيل عن الليث عن عقيل عن ابن شهاب الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام وسعيد بن المسيب المخزوميين وأبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن وبالسند المذكور الى محمد بن اسمعيل عن يحيى بن بكير عن الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن أبي سلمة وسعيد بن المسيب عن ابي هريرة قال أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد فقال يا رسول الله اني زنيت فأعرض عنه ثم رد عليه اربع مرات فلما شهد على نفسه اربع شهادات دعاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبك جنون قال لا قال فهل احصنت قال نعم فقال النبي صلى الله عليه وسلم اذهبوا به فارجموه قال ابن شهاب فأخبرني من سمع جابر بن عبد الله قال كنت فيمن رجمه فرجمناه بالمصلى فلما أذلقته الحجارة هرب فأدركناه بالحرة فرجمناه حدثنا ابو سعيد مولى الحاجب جعفر في المسجد الجامع بقرطبة عن أبي بكر المقرىء عن أبي جعفر بن النحاس عن سعيد بن بشر عن عمر ابن رافع عن منصور عن الحسن عن حطان بن عبد الله الرقاشي عن عبادة بن الصامت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلًا البكر بالبكر جلد وتغريب سنة والثيب بالثيب جلد مائة والرجم فيا لشنعة ذنب انزل الله وحيه مبيناً بالتشهير بصاحبه والعنف بفاعله والتشديد لمقترفه وتشدد في ان لا يرجم الا بحضرة اوليائه عقوبة رجمه وقد اجمع المسلمون اجماعاً لا ينقضه الا ملحدان الزاني المحصن عليه الرجم حتى يموت فيا لها قتلة ما اهولها وعقوبة ما أفظعها وأشد عذابها وأبعدها من الاراحة وسرعة الموت وطوائف من أهل العلم منهم الحسن بن أبي الحسن وابن راهويه وداود واصحابه يرون عليه مع الرجم جلد مائة ويحتجون عليه بنص القرآن وثبات السنّة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبفعل

عليّ رضي الله عنه بأنه رجم امرأة محصنة في الزنا بعد ان جلدها مائــة وقال جلدتها بكتاب الله ورجمتهـــا بسنّة رسول الله والقول بذلك لازم لأصحاب الشافعي لأن زيادة العدل في الحديث مقبولة وقد صح في اجماع الأمة المنقول بالكافة الذي يصحبه العمل عند كل فرقة وفي أهل كل نحلة من نحل أهل القبلة حاشى طائفة يسيرة من الخوارج لا يعتد بهم انه لا يحل دم امرء مسلم إلا بكفر بعد إيمان أو نفس بنفس او بمحاربة لله ورسوله يشهر فيها سيفه ويسعى في الارض فساداً مقبلًا غير مدبر وبالزنا بعد الاحصان فإن حد ما جعل الله مع الكفر بالله عز وجل ومحاربته وقطع حجته في الأرض ومنابذته دينه لجرم كبير ومعصية شنعاء والله تعالى يقول: إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ان ربك واسع المغفرة وان كان اهل العلم اختلفوا في تسميتها فكلهم مجمع مما اختلفوا فيه منها ان الزنا يقدم فيها لا اختلاف بينهم في ذلك ولم يوعد الله عز وجل في كتابه بالنار بعد الشرك إلا في سبع ذنوب وهي الكبائر الزنا احدها وقذف المحصنات ايضاً منها منصوصاً ذلك كله في كتاب الله عز وجل وقد ذكرنا انه لا يجب القتل على أحد من ولد آدم إلا في الذنوب الاربعة التي قد تقدم ذكرها فأما الكفر منها فان عاد صاحبه الى الاسلام أو بالذمة ان لم يكن مرتداً قبل منه ودرىء عنه الموت وأمــا القتل فان قبل الولي الدية في قول بعض الفقهاء أو عفا في قول جميعهم سقط عن القاتل القتل بالقصاص واما الفساد في الارض فان تاب صاحبه قبل ان .... . هدر عنه القتل ولا سبيل في قول احد موالف أو مخلف في ترك رجم المحصن ولا وجه لرفع الموت عنه البتة ومما يدل على شنعة الزنا مــا حدثنا القاضي أبو عبد الرحمن ثنا القاضي أبو عيسى عن عبد الله بن يحيى عن ابيه يحيى ابن يحيى عن الليث عن الزهري عن القاسم بن محمد بن ابي بكر عن عبيد بن عمير ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه اصاب في زمانه ناساً من

هذيل فخرجت جارية منهم فاتبعها رجل يريدها عن نفسها فرمته بحجر فقضت كبده فقال عمر هذا قتيل الله والله لا يودي ابداً وما جعل الله عز وجل فيه اربعة شهود وفي كل حكم شاهدين الا حياطة منه ألا تشيع الفاحشة في عباده لعظمها وشنعتها وقبحها وكيف لا تكون شنيعة ومن قذف بها أخاه المسلم أو اخته المسلمة دون صحة علم أو تيقن معرفة فقد أتى كبيرة من الكبائر استحق عليها النار غداً ووجب عليه بنص التنزيل ان تضرب بشرته بثمانين سوطاً وملك رضي الله عنه يرى ان لا يؤخذ في شيء من الاشياء حد بالتعريض دون التصريح الا في قذف وبالسند المذكور عن الليث بن سعد عن يحيى بن سعيد عن محمد بن عبد الرحمن عن أمه عمرة بنت عبد الرحمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه أمر أن يجلد الرجل قال لآخر ما أبي بزان ولا أمي بزانية في حديث طويل وباجماع من الأمة كلها دون خلاف من أحد نعلمه انه اذا قال رجل لآخر يا كافر أو يا قاتل النفس التي حرم الله لما وجب عليه حد احتياطاً من الله عز وجل إلا بثبت هذه العظيمة في مسلم ولا مسلمة ومن قول ملك رحمه الله ايضاً انه لا حد في الاسلام إلا والقتل يغني عنه وينسخه إلا حد القذف فانه ان وجب على من قد وجب عليه القتل ُحد ثم ُقتل قال الله تعالى: « والذين يرمون المحصنات ثم لم يتوبوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة ابداً وأولئك هم الفاسقون الا الذين تابوا» . الآية وقال تعالى: « إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم » . وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال الغضب واللعنة المذكورين في اللعان انهما موجبتان حدثنا الهمداني عن أبي إسحق عن محمد بن يوسف عن محمد بن اسمعيل عن عبد العزيز بن عبد الله قال ثنا سليمان عن ثور ابن يزيد عن أبي الغيث عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اجتنبوا السبع الموبقات قالوا وما هن يا رسول الله قال الشرك

بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات وان في الزنا من إباحة الحريم وافساد النسل والتفريق بين الازواج الذي عظم الله امره ما لا يهون على ذي عقل أو من له اقل خلاق ولولا مكان هذا العنصر من الانسان وانه غير مأمون الغلبة لما خفف الله عن البكرين وشدد على المحصنين وهذا عندنا وفي جميع الشرائع القديمة النازلة من عند الله عز وجل حكماً باقياً لم ينسخ ولا أزيل فيترك الناظر لعباده الذي لم يشغله عظيم ما في خلقه ولا يحيف قدرته كبير ما في عوالمه عن النظر لحقير ما فيها فهو كما قال عز وجل الحي القيوم لا تأخذه سنّة ولا نوم وقال يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء وان اعظم ما يأتي به العبد هتك ستر الله عز وجل في عباده وقد جاء في حكم أبي بكر الصديق رضي الله عنه في ضربه الرجل الذي ضم صبياً حتى أمنى ضرباً كان سبباً للمنية ومن اعجاب ملك رحمه الله باجتهاد الامير الذي ضرب صبياً مكن رجلاً من تقبيله حتى أمنى الرجل ضربه الى ان مات ما ينسي شدة دواعي هذا الشأن واسبابه والتزيد في الاجتهاد وان كنا لا نراه فهو قول كثير من العلماء يتبعه على ذلك عالم من الناس واما الذي نذهب اليه فالذي حدثناه الهمداني عن البلخي عن البخاري عن الفربري عن البخاري قال ثنا يحيى بن سليمان ثنا بن وهب قال اخبرني عمرو ان بكيراً حدثه عن سليمان بن يسار عن عبد الرحمن بن جابر عن ابيه عن أبي بردة الأنصاري قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يجلد فوق عشرة اسواط إلا في حد من حدود الله عز وجل وبه يقول أبو جعفر محمد بن علي النسائي الشافعي رحمه الله واما فعل قوم لوط فشنيع بشيع قال الله تعالى أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من احد من العالمين وقد قذف الله فاعليه بحجارة من طين مسومة ومالك رحمه الله

يرى على الفاعل والمفعول بـــه الرجم أحصنا أو لم يحصنا واحتج بعض المالكيين في ذلك بأن الله عز وجل يقول في رجمه فاعليه بالحجارة ومـا هي من الظالمين ببعيد فوجب بهـذا انه من ظلم الآن بمثل فعلهم قربت منه والخلاف في هذه المسألة ليس هذا موضعه وقد ذكر أبو اسحق ابرهيم بن السري ان أبا بكر رضي الله عنـه احرق فيه بالنـار وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى اسم المحرَق فقال هو شجاع بن ورقاء الاسدي أحرقه بالنار أبو بكر الصديق لانه يؤتى في دبره كما تؤتى المرأة وان عن المعاصي لمذاهب للعاقل واسعة فما حرم الله شيئاً إلا وقـــد عوض عباده من الحلال ما هو احسن من المحرم وأفضل لا إله الا هو وأقول في النهي عن اتباع الهوى على سبيل الوعظ :

أَقُولُ لِنَفْسِي مَا مُبِينٌ كَحَالِــكِ
وَمَا ٱلنَّاسُ إِلاَّ هَالِكٌ وٱبْنُ هَالِكِ

صُنِ ٱلنَّفْسَ عَمَّا عَابَهَا وَٱرْفُضِ ٱلْهَوَى
فَإِنَّ الهَوَى مِفْتَاحُ بَابِ المَهَالِكِ

رَأَيتُ الهَوَى سَهْلَ المَبَادِي لَذِيذَهَا
وَعُقْبَاهُ مُرُّ الطَعْمِ ضَنْكُ المَسَالِكِ

فَمَا لَذَّةُ الإِنْسَانِ وَالمَوْتُ بَعْدَهَا
وَلَوْ عَاشَ ضِعْفَيْ عُمْرِ نُوحِ بْنِ لاَمِكِ

فَلاَ تَتَّبِعْ دَاراً قَلِيلاً لَبَاثُهَا
فَقَدْ أَنْذَرَتْنَا بِالفَنَاءِ المُوَاشِكِ

وَمَا تَرْكُهَا إِلاَّ إِذَا هِيَ أَمْكَنَتْ
وَكَمْ تَارِكٍ إِضْمَارُهُ غَيْرُ تَارِكِ

فَمَا تَارِكُ ٱلآمَالِ عُجْباً جُؤَاذِراً
كَتَارِكِهَا ذَاتِ الضُرُوعِ الحَوَاشِكِ

وَمَا قَابِلُ ٱلأَمْرَ ٱلَّذِي كَانَ رَاغِباً
بِشَهْوَةِ مُشْتَاقٍ وَعَقْلِ مُبَارَكِ

لأَجْدَى عِبَادَ ٱللهِ بِٱلفَوْزِ عِنْدَهُ
لَدَا جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ فَوْقَ ٱلأَرَائِكِ

وَمَنْ عَرَفَ الأَمْرَ ٱلَّذِي هُوَ طَالِبٌ
رَأَى سَبَباً مَا فِي يَدَيْ كُلِّ مَالِكِ

وَمَنْ عَرَفَ الرَّحْمٰنَ لَمْ يَعْصِ أَمْرَهُ
وَلَوْ أَنَّهُ يُعْطَى جَمِيعَ المَمَالِكِ

سَبِيلُ التُّقَى والنُسْكِ خَيْرُ المَسَالِكِ
وَسَالِكُهَا مُسْتَبْصِرٌ خَيْرِ سالِكِ

فَمَا فَقْدَ التنْغيصَ مِنْ عَاجَ دُونَها
ولاَ طَابَ عَيْش لامْرءٍ غَيْرَ مَاسِكِ

وَطُوبَى لِأقْوَامٍ يَؤُمُّونَ نَحْوَهَا
بِخِفَّةِ أَرْوَاحٍ وَلِينِ عَرَائِكِ

لَقَدْ فَقِدُوا غِلَّ النُفُوسِ وَفُضِّلُوا
بِعِزِّ سَلَاطِين وَأَمْنِ صَعَالِكِ

فَعَاشُوا كَمَا شَاؤُوا وَمَاتوا كَمَا اشْتَهَوْا
وَفَازُوا بِدَارِ الخُلْدِ رَحْبِ المَبَارِكِ

عَصَوْا طَاعَةَ الأجْسَادِ في كُلِّ لَذَّةٍ
بِنُورٍ مُحَلٍّ ظُلْمَةَ الغَيِّ هَاتِكِ

فَلَوْلاَ اعْتِدَاءُ الجِسْمِ أَيْقَنْتَ أَنَّهُمْ
يَعِيشُونَ عَيْشاً مِثْلَ عَيْشِ المَلاَئِكِ

فَيَا رَبِّ قَدِّمْهُمْ وَزِدْ في صَلَاحِهِمْ
وَصَلِّ عَلَيْهِمْ حَيْثُ حَلُّوا وَبَارِكِ

وَيا نَفسُ جِدّي لاَ تَمَلّي وَشَمِّري
لِنَيْلِ سُرُورِ الدَّهرِ فِيا هُنَالِكِ

وَأَنتِ مَتَى دَمَّرْتِ سَعيَكِ في الهَوَى
عَلِمْتِ بأَنَّ الحَقَّ لَيسَ كَذَلِكِ

فَقَدْ بَيَّنَ اللهُ الشَّرِيعَةَ لِلْوَرَى
بأَبْيَنَ مِنْ زُهْرِ النُجُومِ الشَوَابِكِ

فَيا نَفْسُ جِدّي في خَلَاصِكِ وَأَنْفُذي
نَفَاذَ السُّيُوفِ المُرْهَفَاتِ البَوَاتِكِ

فَلَوْ أَعْمَلَ النَاسُ التَفَكُّرَ في الَّذي
لَهُ خُلِقُوا مَا كَانَ حَيٌّ بِضَاحِكِ

بَابُ فَضْلِ التَعَفُّفِ

ومن أفضل ما يأتيه الانسان في حبه التعفف وترك ركوب المعصية والفاحشة وان لا يرغب عن مجازاة خالقه له بالنعيم في دار المقامة وان

لا يعصى مولاه المتفضل عليه الذي جعله مكاناً واهـــلاً لأمره ونهيـه وأرسل اليـه رسله وجعل كلامه ثابتاً لديه عناية منه بنا واحساناً الينا وان من هام قلبه وشغل باله واشتد شوقه وعظم وجده ثم ظفر فرام هواه ان يغلب عقله وشهوته وان يقهر دينه ثم أقام العدل لنفسه حصناً وعلم انها النفس الأمارة بالسوء وذكرها بعقاب الله تعالى وفكر في اجترائه على خالقه وهو يراه وحذرها من يوم المعاد والوقوف بين يدي الملك العزيز الشديد العقاب الرحمن الرحيم الذي لا يحتاج الى بينة ونظر بعـين ضميره الى انفراده عن كل مدافع بحضرة علام الغيوب يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم يوم تبدل الارض غير الأرض والسموات يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً يوم عنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلماً يوم وجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً يوم الطامة الكبرى يوم يتذكر الانسان ما سعى وبرزت الجحيم لمن يرى فأمـــا من طغى وآثر الحيوة الدنيا فان الجحيم هي المأوى وأما من خاف مقام ربـه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى واليوم الذي قال الله تعالى فيه وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً عندها يقول العاصي يا ويلتي مـــا لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها فكيف بمن طوي قلبه على أحر من جمر الغضا وطوي كشحه على أحدّ من السيف وتجرع غصصاً أمرّ من الحنظل وصرف نفسه كرهاً عن مـا طمعت فيه وتيقنت ببلوغـه وتهيأت له ولم يحل دونها حائل لحري أن يسر غداً يوم البعث ويكون من المقربين في دار الجزاء وعالم الخلود وان يأمن روعات القيامة وهول المطلع وان يعوضه الله من هـــذه القرحة الأمن يوم الحشر حدثني أبو موسى هارون بن موسى الطبيب قال رأيت شاباً حسن الوجـه من

أهل قرطبة قد تعبد ورفض الدنيا وكان له أخ في الله قد سقطت بينهما مؤونة التحفظ فزاره ذات ليلة وعزم على المبيت عنده فعرضت لصاحب المنزل حاجة الى بعض معارفه بالبعد عن منزله فنهض لها على ان ينصرف مسرعاً ونزل الشاب في داره مع امرأته وكانت غاية في الحسن وتربا للضيف في الصبى فأطال رب المنزل المقام الى ان مشى العسس ولم يمكنه الانصراف الى منزله فلما علمت المرأة بفوات الوقت وان زوجها لا يمكنه المجيء تلك الليلة تاقت نفسها الى ذلك الفتى فبرزت اليه ودعته الى نفسها ولا ثالث لهما الا الله عز وجل فهم بها ثم ثاب اليه عقله وفكر في الله عز وجل فوضع اصبعه على السراج فتفقع ثم قال يا نفس ذوقي هذا وأين هذا من نار جهنم فهال المرأة ما رأت ثم عاودته فعاودته الشهوة المركبة في الانسان فعاد الى الفعلة الأولى فانبلج الصباح وسبابته قد اصطلمتها النار افتظن بلغ هذا من نفسه هذا المبلغ الا لفرط شهوة قد كلبت عليه أو ترى ان الله تعالى يضيع له هذا المقام كلا انه لأكرم من ذلك واعلم ولقد حدثتني امرأة أثق بها انها علقها فتى مثلها في الحسن وعلقته وشاع القول عليهما فاجتمعا يوماً خاليين فقال هلمي نحقق ما يقال فينا فقالت لا والله لا كان هذا أبداً وأنا أقرأ قول الله الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين قالت فما مضى قليل حتى اجتمعنا في حلال ولقد حدثني ثقة من اخواني انه خلا يوماً بجارية كانت له معارك في الصبى فتعرضت لبعض تلك المعاني فقال لها كلا ان من شكر نعمة الله فيما منحني من وصالك الذي كان أقصى آمالي ان اجتنب هواي لأمره ولعمري ان هذا لغريب فيما خلا من الأزمان فكيف في مثل هذا الزمان الذي قد ذهب خيره وأتى شره وما أقدر في هذه الأخبار وهي صحيحة الا أحد وجهين لا شك فيهما اما طبع قد مال الى غير هذا الشأن واستحكمت معرفته بفضل سواه عليه فهو لا يجيب دواعي الغزل في كلمة ولا كلمتين ولا

في يوم ولا يومين ولو طال على هؤلاء الممتحنين ما امتحنوا به لحادت طباعهم وأجابوا هاتف الفتنة ولكن الله عصمهم بانقطاع السبب المحرك نظراً لهم وعلماً في ضمائرهم من الاستعاذة به من القبائح واستدعاء الرشد لا إله إلا هو واما ببصيرة حضرت في ذلك الوقت وخاطر تجرد انقمعت به طوالع الشهوة في ذلك الحين لخير أراد الله عز وجل لصاحبه جعلنا الله ممن يخافه ويرجوه امين وحدثني ابو عبد الله محمد بن عمر ابن مضاء عن رجال من بني مروان ثقات يسندون الحديث الى ابي العباس الوليد بن غانم انه ذكر ان الامام عبد الرحمن بن الحكم غاب في بعض غزواته شهوراً وثقف القصر بابنه محمد الذي ولي الخلافة بعده ورتبه في السطح وجعل مبيته ليلا وقعوده نهاراً فيه ولم يأذن له في الخروج البتة ورتب معه في كل ليلة وزيراً من الوزراء وفتى من اكابر الفتيان يبيتان معه في السطح قال أبو العباس فأقام على ذلك مدة طويلة وبعد عهده بأهله وهو في سن العشرين أو نحوها الى ان وافق مبيتي في ليلتي نوبة فتى من أكابر الفتيان وكان صغيراً في سنه وغاية في حسن وجهه قال ابو العباس فقلت في نفسي اني أخشى الليلة على محمد بن عبد الرحمن الهلاك بمواقعة المعصية وتزيين ابليس واتباعه له قال ثم أخذت مضجعي في السطح الخارج ومحمد في السطح الداخل المطل على حرم أمير المؤمنين والفتى في الطرف الثاني القريب من المطلع فظللت ارقبه ولا أغفل وهو يظن اني قد نمت ولا يشعر باطلاعي عليه قال فلما مضى هزيع من الليل رأيته قد قام واستوى قاعداً ساعة لطيفة ثم تعوذ من الشيطان ورجع الى منامه ثم قام بعد حين ولبس قميصه واستوفز ثم نزعه عن نفسه وعاد الى منامه ثم قام الثالثة ولبس قميصه ودلى رجليه من السرير وبقي كذلك ساعة ثم نادى الفتى باسمه فأجابه فقال له انزل عن السطح وابق في الفصيل الذي تحته فقام الفتى مؤتمراً له فلما نزل قام محمد وأغلق الباب من داخله وعاد الى سريره قال أبو العباس فعلمت من ذلك الوقت

أن لله فيه مراد خير حدثنا أحمد بن محمد بن الجسور عن أحمد بن مطرف عن عبيد الله بن يحيى عن ابيه عن ملك عن حبيب بن عبـــد الرحمن الانصاري عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله امام عادل وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل ورجل قلبه معلق بالمسجـد اذا خرج منه حتى يعود اليه ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال فقال اني اخاف الله ورجل تصدق صدقة فأخفى حتى لا تعلم شماله مـا تنفق يمينه واني لأذكر اني دعيت الى مجلس فيه بعض من تستحسن الابصار صورته وتألف القلوب اخلاقه للحديث والمجالسة دون منكر ولا مكروه فسارعت اليه وكان هذا سحراً فبعد أن صليت الصبح واخذت زيي طرقني فكر فسنحت لي ابيات ومعي رجل من اخواني فقال لي ما هذا الاطراق فلم أجبه حتى اكملتها ثم كتبتها ودفعتها اليه وأمسكت عن المسير حيث كنت نويت ومن الابيات :

أَرَاقَكَ حُسْنٌ غَيْبُهُ لَكَ تَأْرِيقٌ
وَتَبْرِيدُ وَصْلٍ سِرُّهُ فِيكَ تَحْرِيقُ

وَقُرْبُ مَزَارٍ يَقْتَضِي لَكَ فُرْقَةً
وَشِيكاً وَلَوْلاَ الْقُرْبُ لَمْ يَكُ تَفْرِيقُ

وَلَذَّةُ طَعْـــمٍ مُعْقِبٍ لَكَ عَلْقَماً
وَصَاباً وَفُسْحٌ فِي تَضَاعِيفِهِ ضِيقُ

ولو لم يكن جزاء ولا عقاب ولا ثواب لوجب علينا افناء الأعمار واتعاب الأبدان واجهاد الطاقة واستنفاد الوسع واستفراغ القوة في شكر الخالق الذي ابتدأنا بالنعم قبل استئهالها وامتنّ علينا بالعقل الذي بـــه عرفناه ووهبنا الحواس والعلم والمعرفـــة ودقائق الصناعات وصرّف لنا السموات جارية بمنافعها ودبرنا التدبير الذي لو ملكنا خلقنا لم نهتد اليـه ولا نظرنا لأنفسنا نظره لنا وفضلنا على اكثر المخلوقات وجعلنا مستودع كلامه ومستقر دينه وخلق لنا الجنة دون أن نستحقها ثم لم يرض لعباده أن يدخلوها الا بأعمالهم لتكون واجبة لهم قال الله تعالى جزاء بما كانوا يعملون ورشّدنا الى سبيلها وبصّرنا وجه ظلها وجعل غاية احسانه الينـــا وامتنانه علينا حقاً من حقوقنا قبله وديناً لازماً له وشكرنا على ما أعطانا من الطاعة التي رزقنا قواها واثابنا بفضله على تفضله هذا كرم لا تهتدي اليه العقول ولا يمكن ان تكيفه الألباب ومن عرف ربه ومقدار رضاه وسخطه هانت عنـده اللذات الذاهبة والحطام الفاني فكيف وقـد أتى من وعيده ما تقشعر لسماعه الأجساد وتذوب له النفوس وأورد علينا من عذابه ما لم ينته اليه أمل فأين المذهب عن طاعة هـذا الملك الكريم وما الرغبة في لذة ذاهبة لا تذهب الندامة عنها ولا تفني التباعة منهـا ولا يزول الخزي عن راكبها والى كم هذا التمادي وقـد اسمعنا المنادي وكأن قد حدا بنا الحادي الى دار القرار فاما الى جنة وامـا الى نار ألا ان التثبط في هذا المكان لهو الضلال المبين وفي ذلك أقول :

أَقْصَرَ عَنْ لَهْوِهِ وَعَنْ طَرَبِهْ
وَعفَّ فِي حُبِّهِ وَفِي غَرَبِــهْ
فَلَيْسَ شُرْبُ المُدَامِ هِمَّتَهُ
وَلاَ اقْتِنَاصُ الظِبَاءِ مِنْ إِرَبِهْ

قَدْ آنَ لِلْقَلْبِ أَنْ يُفِيقَ وَأَنْ

يُزِيلَ مَا قَدْ عَلاَهُ مِنْ حُجُبِهْ

أَلْهَاهُ عَمَّا عَهِدتُّ يُعْجِبُهُ

خِيفَةُ يَوْمٍ تُبْلَى السَرَائِرُ بِــهْ

يَا نَفْسُ جِدِّي وَشَمِّرِي وَدَعِي

عَنْكِ اتِّبَاعَ الْهَوَى عَلَى لَعِبِهْ

وَسَارِعِي في النَجَاةِ وَاجْتَهِدِي

سَاعِيَةً في الخَلاَصِ مِنْ كُرَبِهْ

عَلِّيَ أُحظَى بالفَوْزِ فيهِ وَأَن

أَنْجُوَ مِنْ ضِيقِهِ وَمِنْ لَهَبِهْ

يَأَيُّهَا اللاعِبُ المُجِدُّ بِهِ الدَهْرُ أَمَا تَتَّقِي شَبَا نُكَبِهْ

كَفَاكَ مِنْ كُلِّ مَا وُعِظْتَ بِهِ

مَا قَدْ أَرَاكَ الزَمَانَ مِنْ عَجَبِهْ

دَعْ عَنْكَ دَاراً تَفْنَى غضَارَتُهَا

وَمَكْسَباً لاَعِباً بُمكْتَسِبِهْ

لَمْ يَضْطَرِبْ في مَحَلِّهَا أَحدٌ

إلاَّ نَبَا حَدُّهَا بُمضْطَرِبهْ

مَنْ عَرَفَ اللهَ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ

لَوَى وَحلَّ الفُؤَادُ في رَهبِهْ

مَا مُنقَضي المُلْكِ مِثْلُ خَالِدِه

وَلاَ صَحيحُ التُّقَى كَمُؤتَشِبِهْ

وَلاَ تَقيُّ الوَرَى كَفَاسِقِهِمْ

وَلَيْسَ صِدْقُ الكَلاَمِ مِنْ كَذِبهْ

فَلَوْ أَمِنَّا مِنَ العِقَابِ وَلَمْ

نَخْشَ مِنَ اَللَّهِ مُتَّقَى غَضَبِهْ

وَلَمْ نَخَفْ نَارَهُ اَلَّتي خُلِقَتْ

لِكُلِّ جَاني الكَلاَمِ مُحْتَقِبِهْ

لَكَانَ فَرْضاً لُزُومُ طَاعَتِه

وَرَدَّ وَفْدِ الهَوَى عَلَى عَقِبِهْ

وَصِحَّةُ الزُّهْدِ في البَقَاءِ وَأَنْ

يُلْحِقَ تَفْنِيدُنَا بِمُرْتَقِــبِهْ

فَقَدْ رَأَيْنَا فِعْلَ الزَّمَانِ بِأَهْلِيهِ كَفِعْلِ الشَّوَاظِ فِي حَطَبِهْ

كَمْ مُتْعِبٍ .... مُهْجَتَـــهُ

رَاحَتُهُ في الكَرِيهِ مِنْ تَعَبِهْ

وَطَالِبٍ بِاجْتِهَادِهِ زَهْرَ الدُّنْيَا

عَدَاهُ المَنُونُ عَنْ طَلَبِهْ

وَمُدْرِكٍ مَا ابْتَغَاهُ ذِي جَدَلٍ

حَلَّ بِهِ مَا يَخَافُ مِنْ سَبَبِهْ

وَبَاحِثٍ جَاهِـــدٍ لِبُغْيَتِهِ

فَإِنَّمَا بَحْثُهُ عَلَى عَطَبِـــهْ

بَيْنَا تَرَى المَرْءَ سَامِياً مَلِكاً
صَارَ إِلَى السُفْلِ مِنْ ذُرَى رُتَبِهْ

كَالزَّرْعِ لِلرِّجْلِ فَوْقَهُ عَمَلٌ
إِنْ يَنْمُ حُسْنَ النُمُوِّ فِي قَصَبِهْ

كَمْ قَاطِعٍ نَفْسَهُ أَسىً وَشَجاً
فِي إِثْرِ جِدٍّ يَجِدُّ فِي هَرَبِهْ

أَلَيْسَ فِي ذَاكَ زَاجِرٌ عَجَبٌ
يَزِيدُ ذَا اللُّبِّ فِي حُلَى أَدَبِهْ

فَكَيْفَ وَالنَارُ لِلْمُسِيءِ إِذَا
عَاجَ عَنِ المُسْتَقِيمِ مِنْ عَقِبِهْ

وَيَوْمَ عَرْضِ الحِسَابِ يَفْضَحُهُ اللهُ
وَيُبْـــدِي الخَفِيَّ مِنْ رِيبَهْ

مَنْ قَدْ حَبَاهُ الإِلٰهُ رَحْمَتَـــهُ
مَوْصُولَةً بِالمَزِيدِ مِنْ نِعَمِهْ

فَصَارَ مِنْ جَهْلِهِ يُصَرِّفُهَــا

فِيمَا نَهَى ٱللهُ عَنْهُ فِي كُتُــبِهْ

أَلَيْسَ هَذَا أَحْرَى ٱلعِبَادِ غَداً

بِالوَقْعِ فِي وَيْلِهِ وَفِي حَرَبِهْ

شُكْراً لِرَبٍّ لَطِيفٍ قُدْرَتُهُ

فِينَا كَحَبْلِ الوَرِيدِ فِي كَثَبِهْ

رَازِقِ أَهْلِ الزَمَانِ أَجْمَعِهِمْ

مَنْ كَانَ مِنْ عَجْمِهِ وَمِنْ عَرَبِهْ

وَالحَمْــدُ لِلّهِ فِي تَفَضُّلِهِ

وَقَمْعِهِ لِلزَّمَانِ فِي نُوَبِــهْ

أَخْدَمَنَا ٱلأَرْضَ وَالسَمَاءَ وَمَنْ

فِي الجَوِّ مِنْ مَائِهِ وَمِنْ شُهُبِــهْ

فَاْسمَعْ وَدَعْ مَنْ عَصَاهُ نَاحِيَةً

لاَ يَحْمِلُ الحَمْلَ غَيْرُ مُحْتَطِبِهْ

وأقول أيضاً :

أَعَارَتْكَ دُنْيَا مُسْتَرَدٌّ مُعَارُهَا

غَضَارَةَ عَيْشٍ سَوْفَ يَذْوِي اْخْضِرَارُهَا

وَهَلْ يَتَمَنَّى المُحْكَمُ الرَّأْيِ عِيشَةً

وَقَدْ حَانَ مِنْ دُهْمِ المَنَايَا مَزَارُهَا

وَكَيْفَ تَلَذُّ العَيْنُ هَجْعَةَ سَاعَةٍ

وَقَدْ طَالَ فِيمَا عَايَنَتْهُ اْعْتِبَارُهَا

وَكَيْفَ تَقِرُّ النَفْسُ فِي دَارِ نَقْلَةٍ

قَدِ اْسْتَيْقَنَتْ أَنْ لَيْسَ فِيهَا قَرَارُهَا

وَأَنى لَهَا في الأَرْضِ خَاطِرُ فِكْرَةٍ
وَلَمْ تَدْرِ بَعْدَ المَوتِ أَيْنَ مَحَارُهَا

أَلَيْسَ لَهَا في السَّعْيِ لِلفَوْزِ شَاغِلٌ
أَمَا في تَوَقِّيهَا العَذَابَ ازْدِجَارُهَا

فَخَابَتْ نُفُوسٌ قَادَهَا لَهْوُ سَاعَةٍ
إِلَى حَرِّ نَارٍ لَيْسَ يُطْفَى أُوَارُهَا

لَهَا سَائِقٌ حَادٍ حَثِيثٌ مُبَادِرٌ
إِلَى غَيْرِ مَا أَضْحَى إِلَيْهِ مَدَارُهَا

تُرَادُ لأَمْرٍ وَهْيَ تَطْلُبُ غَيْرَهُ
وَتَقْصِدُ وَجْهاً في سِوَاهُ سِفَارُهَا

أَمُسْرِعَةٌ فِيمَا يَسُوءُ قِيَامُهَا
وَقَدْ أَيْقَنَتْ أَنَّ العَذَابَ قُصَارُهَا

تُعَطِّلُ مَفْرُوضاً وَتَغْنَى بِفَضْلَةٍ
لَقَدْ شَفَّهَا طُغْيَانُهَا وَاغْتِرَارُهَا

إِلَى مَا لَهَا مِنْهُ البَلاءُ سُكونُهَا
وَعمَّا لَهَا مِنْهُ النَجَاحُ نِفَارُهَا

وَتُعْرِضُ عَنْ رَبٍّ دَعَاهَا لِرُشْدِهَا
وَتتْبَعُ دُنْيَا جِدٌّ عَنْهَا فِرَارُهَا

فَيَاأَيُّهَا المَغْرُورُ بَادِرْ بِرَجْعَةٍ
فَلِلَّهِ دَارٌ لَيْسَ تَخْمَدُ نَارُهَا

وَلاَ تَتَخَيَّرْ فَانِياً دُونَ خَالِدٍ
دَلِيلٌ عَلَى مَحْضِ العُقُولِ اخْتِيَارُهَا

أَتعْلَمُ أَنَّ الحَقَّ فِيَما تَرَكْتَهُ
وَتَسْلُكُ سُبْلاً لَيْسَ يَخْفَى عَوَارُهَا

وَتَتْرُكُ بَيْضَاءَ المَنَاهِجِ ضَلَّةً
لِبَهْمَاءَ يُؤْذِي الرِجْلَ فِيهَا عِثَارُهَا

تَسُرُّ بِلَهْوٍ مُعْقَبٍ بِنَدَامَةٍ
إِذَا مَا انْقَضَى لاَ يَنْقَضِي مُسْتَثَارُهَا

وَتفنَى اللَيَالي وَالمَسَرّاتُ كُلُّهَا
وَتبقَى تِبَاعَاتُ الذنُوبِ وَعَارُهَا

فَهَلْ أنتَ يَا مَغبونُ مُستَيقِظٌ فَقَدْ
تَبَيَّنَ مِنْ سِرِّ الخُطُوبِ اْستِتَارُهَا

فَعَجِّلْ إلَى رِضْوَانِ رَبِّكِ وَاْجتَنِبْ
نَوَاهِيَهُ إذْ قَدْ تَجَلَّى مَنَارُهَا

يُجِدُّ مُرُورَ الدَهْرِ عَنْكَ بِلاَعِبٍ
وَتُغرَى بِدُنْيَا سَاءَ فِيكَ سِرَارُهَا

فَكَمْ أُمَّةٍ قَدْ غَرَّهَا الدَهْرُ قَبْلَنَا
وَهَا تِيكَ مِنْهَا مُقفِرَاتٌ دِيَارُهَا

تَذكَّرْ عَلَى مَا قَدْ مَضَى وَاْعتَبِرْ بِهِ
فَإنَّ المُذَكِّي لِلْعُقُولِ اْعتِبَارُهَا

تَحَامَى ذُرَاهَا كُلُّ بَاغٍ وَطَالِبٍ
وَكَانَ ضَمَاناً فِي الأعَادِي انتِصَارُهَا

تَوَافَتْ بِبَطْنِ الأَرْضِ وَٱنْشَتَّ شَمْلُهَا
وَعَادَ إِلَى ذِي مُلْكَةٍ اسْتِعَارُهَا

وَكَمْ رَاقِدٍ فِي غَفْلَةٍ عَنْ مَنِيَّةٍ
مُشَمِّرَةٍ فِي القَصْدِ وَهْوَ سُعَارُهَا

وَمَظْلَمَةٍ قَدْ نَالَهَا مُتَسَلِّطٌ
مُدِلٌّ بِأَيْدٍ عِنْدَ ذِي العَرْشِ ثَارُهَا

أَرَاكَ إِذَا حَاوَلْتَ دُنْيَاكَ سَاعِياً
عَلَى أَنَّهَا بَادٍ إِلَيْكَ ازْوِرَارُهَا

وَفِي طَاعَةِ الرَّحْمٰنِ يُقْعِدُكَ الوَنَا
وَتُبْدِي أَنَاةً لاَ يَصِحُّ ٱعْتِذَارُهَا

تُحَاذِرُ إِخْوَاناً سَتَفْنَى وَتَنْقَضِي
وَتَنْسَى ٱلَّتِي فَرْضٌ عَلَيْكَ حِذَارُهَا

كَأَنِّي أَرَى مِنْكَ ٱلتَّبَرُّمَ ظَاهِراً
مُبِيناً إِذَا ٱلأَقْدَارُ حَلَّ ٱضْطِرَارُهَا

هُنَاكَ يَقولُ المَرءُ مَنْ لي بأعصُرٍ
مَضَتْ كانَ مِلْكاً في يَديَّ خِيارُها

تَنَبَّهْ لِيَوْمٍ قَدْ أَظَلَّكَ وِرْدُهُ
عَصيبٍ يُوافي النَفْسَ فِيهِ احتِضَارُهَا

تَبَرَّأَ فِيهِ مِنكَ كُلُّ مُخَالِطٍ
وَإنَّ مِنَ الآمالِ فِيهِ انهِيَارَها

فَأَوْدَعتَ في ظَلْمَاءِ ضَنْكٍ مَقَرُّها
يَلُوحُ عَلَيْهَا لِلْعُيُونِ اغبِرَارُهَا

تُنادى فَلاَ تَدْري المُنَادِيَ مُفْرِداً
وَقَدْ حُطَّ عَنْ وَجهِ الحَيَاةِ خِمَارُهَا

تُنَادَى إلى يَوْمٍ شَديدٍ مُفزِعٍ
وَسَاعَةِ حَشْرٍ لَيسَ يَخْفَى اشْتِهَارُهَا

إذَا حُشِرَتْ فِيهِ الوُحوشُ وَجُمِّعَتْ
صَحَائِفُنَا وَانْثَالَ فِينَا انتِشَارُهَا

وَزُيِّنَتِ ٱلْجَنَّاتُ فِيهِ وَأُزْلِفَتْ
وَأُذْكِيَ مِنْ نَارِ الْجَحِيمِ ٱسْتِعَارُهَا

وَكُوِّرَتِ الشَّمْسُ الْمُنِيرَةُ بِالضُّحَى
وَأَسْرَعَ مِنْ زُهْرِ النُّجُومِ ٱنْكِدَارُهَا

لَقَدْ جَلَّ أَمْرٌ كَانَ مِنْهُ ٱنْتِظَامُهَا
وَقَدْ حَلَّ أَمْرٌ كَانَ مِنْهُ ٱنْتِثَارُهَا

وَسُيِّرَتِ الْأَجْبَالُ وَالْأَرْضُ بُدِّلَتْ
وَقَدْ عُطِّلَتْ مِنْ مَالِكِيهَا عِشَارُهَا

فَإِمَّا لِدَارٍ لَيْسَ يَفْنَى نَعِيمُهَا
وَإِمَّا لِدَارٍ لَا يُفَكُّ إِسَارُهَا

بِحَضْرَةِ جَبَّارٍ رَفِيقٍ مُعَاقِبٍ
فَتُحْصَى ٱلْمَعَاصِي كُبْرُهَا وَصِغَارُهَا

وَيَنْدَمُ يَوْمَ الْبَعْثِ جَانِي صِغَارِهَا
وَتُهْلِكُ أَهْلِيهَا هُنَاكَ كِبَارُهَا

سَتُغْبَطُ أَجْسَادٌ وَتَحْيَى نُفُوسُهَا
إِذَا مَا ٱسْتَوَى أَسْرَارُهَا وَجِهَارُهَا

إِذَا حَفَّهُمْ عَفْوُ ٱلإِلَـٰهِ وَفَضْلُهُ
وَأَسْكَنَهُمْ دَاراً حَلاَلٌ عُقَارُهَا

سَيَلْحَقُهُمْ أَهْلُ الفُسُوقِ إِذَا ٱسْتَوَى
بِحَلْبَةِ سَبْقٍ طِرْفُهَا وَحِمَارُهَا

يَفِرُّ بَنُو الدُّنْيَا بِدُنْيَاهُمُ ٱلَّتِي
تَظُنُّ عَلَى أَهْلِ الحُظُوظِ ٱقْتِصَارُهَا

هِيَ ٱلأُمُّ خَيْرُ البِرِّ فِيهَا عُقُوقُهَا
وَلَيْسَ بِغَيْرِ البَذْلِ يُحْمَى ذِمَارُهَا

فَمَا نَالَ مِنْهَا الحَظَّ إِلاَّ مُهِينُهَا
وَمَا الهُلْكُ إِلاَّ قُرْبُهَا وَٱعْتِمَارُهَا

تَهَافَتَ فِيهَا طَامِعٌ بَعْدَ طَامِعٍ
وَقَدْ بَانَ لِلُّبِّ الذَّكِيِّ ٱخْتِبَارُهَا

تطَامنْ لِغَمْرِ الحَادِثاتِ وَلاَ تَكُنْ
لَهَا ذَا اعْتِمَارٍ يَجْتَبِيكَ غِمَارُهَا

وَإِيَّاكَ أنْ تَغْتَرَّ مِنْهَا بِمَا تَرَى
فَقَدْ صَحَّ في العَقْلِ الجَليِّ عِيَارُهَا

رَأيتُ مُلُوكَ الأرْضِ يَبْغُونَ عُدَّةً
وَلَذَّةَ نَفْسٍ يُسْتَطَابُ اجْتِرَارُهَا

وَحلُّوا طَرِيقَ القَصْدِ فِي مُبْتَغَاهُمُ
لِمُتْبِعِهِ الصِغَارُ جَمٌ صِغَارُهَا

وَإنَّ الَّتِي يَبْغُونَ نَهْجَ بَقِيَّةٍ
مَكِينٌ لِطُلاَّبِ الخَلاَصِ اخْتِصَارُهَا

هَلِ العِزُّ إلاَّ هِمَّةٌ صَحَّ صَوْنُهَا
إذَا صَانَ هِمَّاتِ الرِجَالِ انْكِسَارُهَا

وَهَلْ رَابِحٌ إلاَّ امْرُؤٌ مُتَوَكِّلٌ
قَنُوعٌ غَنِيُّ النَفْسِ بَادٍ وَقَارُهَا

وَيَلْقَى وُلاَةَ المُلْكِ خَوْفاً وَفِكْرَةً
تَضِيقُ بِها ذَرْعاً وَيَفْنَى أصْطِبارُها

عِياناً نَرَى هَذَا وَلَكِنَّ سَكْرَةً
أَحَاطَتْ بِنَا مَا إنْ يُفِيقُ خُمارُهَا

تَدَبَّرْ مَن ألبَانِي عَلَى الأرْضِ سَقْفَهَا
وَفِي عِلْمِهِ مَعْمُورُهَا وَقِفَارُهَا

وَمَن يُمْسِكُ الأَجْرَامَ وَالأَرْضَ أَمْرُهُ
بِلاَ عَمَدٍ يُبْنَى عَلَيْهِ قَرَارُهَا

وَمَنْ قَدَّرَ التَدْبِيرَ فِيهَا بِحِكْمَةٍ
فَصَحَّ لَدَيْهَا لَيْلُها وَنَهارُهَا

وَمَنْ فَتَقَ الأَمْوَاهَ في صفْحِ وَجْهِهَا
فَمِنْهَا يُغَذَّى حَبُّها وَثِمَارُهَا

وَمَنْ صَيَّرَ الأَلْوَانَ في نَوْرِ نَبْتِها
فَأَشْرَقَ فِيها وَرْدُهَا وَبَهارُهَا

فَمِنْهُنَّ مُخْضَرٌّ يَرُوقُ بَصِيصُهُ
وَمِنْهُنَّ مَا يَغْشَى اللِحَاظَ أَحْمِرَارُهَا

وَمَنْ حَفَرَ الأَنْهارَ دُونَ تَكَلُّفٍ
فَثَارَ مِنَ الصُّمِّ الصِلاَبِ أنْفِجَارُهَا

وَمَنْ رَتَّبَ الشَمْسَ المُنِيرَ أبْيِضَاضُها
غُدُوّاً وَيَبْدُو بالعَشيِّ أصْفِرَارُهَا

وَمَنْ خَلَقَ الأَفلاكَ فَامْتَدَّ جَرْيُها
وَأَحكَمَها حَتَّى أَسْتقَامَ مَدَارُهَا

وَمَنْ إِنْ أَلَمَّتْ بالعُقُولِ رَزِيَّةٌ
فَلَيْسَ إِلَى حَيٍّ سِوَاهُ أفْتِقَارُهَا

تَجِدْ كُلَّ هَذَا رَاجِعاً نَحْوَ خَالِقٍ
لَهُ مُلْكُهَا مُنْقَادَةٌ وَأئْتِمَارُهَا

أَبَانَ لَنَا ٱلآيَاتِ فِي أنْبِيَائِهِ
فَأمْكَنَ بَعْدَ العَجْزِ فِيهَا أقْتِدَارُهَا

فَأَنطَقَ أَفوَاهاً بِأَلفَاظِ حِكْمَةٍ
وَمَا حَلَّهَا إِثغَارُهَا وَاتّغارُهَا

وَأَبْرَزَ مِنْ صُمِّ الحِجَارَةِ نَاقَةً
وَأَسمَعَهُمْ في الحِينِ مِنْهَا حُوَارُهَا

لِيُوقِنَ أَقوَامٌ وَتَكْفُرَ عُصْبَةٌ
أَتَاهَا بِأَسبَابِ الهَلَاكِ قِدَارُهَا

وَشَقَّ لِمُوسَى البَحْرَ دُونَ تَكَلُّفٍ
وَبَانَ مِنَ الأَموَاجِ فِيهِ انحِسَارُهَا

وَسَلَّمَ مِنْ نَارِ الأَتُونِ خَلِيلَهُ
فَلَمْ يُؤْذِهِ إِحرَاقُهَا وَاعْتِرَارُهَا

وَنَجَّى مِنَ الطُوفَانِ نُوحاً وَقَدْ هَدَتْ
بِهِ أُمَّةٌ أَبدَا الفُسُوقَ شِرَارُهَا

وَمَكَّنَ دَاوُداً بِأَيدٍ وَإِبْنَهُ
فَتَعْسِيرُهَا مُلْقىً لَهُ وَبِدَارُهَا

وَذَلَّلَ جُبَّارَ البِلَادِ لأمرِه

وَعَلَّمَ مِنْ طَيْرِ السَمَاءِ حِوارَها

وَفَضَّلَ بالقُرآنِ أُمَّةَ أحْمَدٍ

وَمَكَّنَ في أَقْصَى البِلَادِ مُغارَها

وَشَقَّ لَهُ بَدْرَ السَمَاءِ وَخَصَّهُ

بآياتِ حقٍّ لا يَخُلُّ مُعَارُها

وَأَنقَذَنا مِنْ كُفْرِ أَرْبابِنا بِهِ

وَكَانَ عَلَى قُطْبِ الهَلَاكِ مَنارُها

فَمَا بَالُنا لا نَتْرُكُ الجَهْلَ وَيْحَنا

لِنَسْلَمَ مِنْ نارٍ تَرَامَى شَرَارُها

هنا أعزك الله انتهى ما تذكرته ايجاباً لك وتقمّنا لمسرتك ووقوفاً عند أمرك ولم امتنع أن أورد لك في هـذه الرسالة أشياء يذكرها الشعراء ويكثرون القول فيها موفيات على وجوهها ومفردات في أبوابها ومنعهات التفسير مثل الافراط في صفة النحول وتشبيه الدموع بالأمطار وانها تروّي السفار وعدم النوم البتة وانقطاع الغذاء جملة الا أنها أشياء

لا حقيقة لها وكذب لا وجه له ولكل شيء حد وقد جعل الله لكل شيء قدراً والنحول قد يعظم ولو صار حيث يصفونه لكان في قوام الذرة أو دونها ولخرج عن حد المعقول والسهر قد يتصل ليالي ولكن لو عدم الغذاء اسبوعين لهلك وانما قلنا ان الصبر عن النوم أقل من الصبر عن الطعام لأن النوم غذاء الروح والطعام غذاء الجسد وان كانا يشتركان في كليهما ولكنا حكينا على الأغلب واما الماء فقد رأيت أنا ميسور البنّاء جارنا بقرطبة يصبر عن الماء اسبوعين في حمارّة القيظ ويكتفي بما في غدائه من رطوبة وحدثني القاضي أبو عبد الرحمن بن جحاف انه كان يعرف من كان لا يشرب المـاء شهراً وانما اقتصرت في رسالتي على الحقائق المعلومـة التي لا يمكن وجود سواها اصلاً وعلى اني قد أوردت من هـذه الوجوه المذكورة اشياء كثيرة يكتفى بهـا لئلا أخرج عن طريقة أهل الشعر ومذهبهم وسيرى كثير من اخواننا اخباراً لهم في هذه الرسالة مكنياً فيها عن اسمائهم على ما شرطنا في ابتدائها وأنا استغفر الله تعالى مما يكتب الملكان ويحصيه الرقيبان من هـذا وشبهه استغفار من يعلم ان كلامه من عمله ولكنه ان لم يكن من اللغو الذي لا يؤاخذ به المرء فهو ان شاء الله من اللمم المعفو وإلا فليس من السيئات والفواحش التي يتوقع عليها العذاب وعلى كل حال فليس من الكبائر التي ورد النص فيها وأنا أعلم انه سينكر عليّ بعض المتعصبين عليّ تأليفي لمثل هذا ويقول خالف طريقته وتجافى عن وجهته وما أحل لأحد أن يظن في غير ما قصدته قال الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم وحدثني أحمد بن محمد بن الجسوري ثنا ابن ابي ذليم ثنـا ابن وضاح عن يحيى ابن ملـك بن انس عن ابي الزبير المكي عن ابي شريح الكعبي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال إياكم والظن فإنه أكذب الكذب وبه الى مالك عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن الأعرج عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر

فليقل خيراً أو ليصمت «وحدثني صاحبي أبو بكر محمد بن اسحق ثنا عبد الله ابن يوسف الازدي ثنـــا يحيى بن عائذ ثنا أبو عدي عبد العزيز بن علي ابن محمد بن اسحق بن الفرج الامام بمصر ثنـا ابو علي الحسن بن قاسم ابن دحيم المصري ثنا محمد بن زكرياء العلاني ثنا ابو العباس ثنا ابو بكر عن قتادة عن سعيد بن المسيب انه قال وضع عمر بن الخطاب رضي الله عنه للناس ثماني عشرة كلمة من الحكمة منها ضع امر اخيك على احسنه حتى يأتيك مـا يغلبك عليه ولا تظن بكلمة خرجت من في امرء مسلم شراً وانت تجد لها في الخير محملاً فهذا أعزك الله أدب الله وأدب رسوله صلى الله عليه وسلم وأدب امير المؤمنين وبالجملة فاني لا اقول بالمراياة ولا أنسك نسكاً أعجمياً ومن أدى الفرائض المأمور بها واجتنب المحارم المنهي عنها ولم ينس الفضل فيما بينه وبين الناس فقد وقع عليـه اسم الاحسان ودعني بما سوى ذلك وحسبي الله والكلام في مثل هذا انما هو مع خلاء الذرع وفراغ القلب وان حفظ شيء وبقـــاء رسم وتذكر فائت لمثل خاطري لعجب على ما مضى ودهمني فأنت تعلم ان ذهني متقلب وبالي مهصّم بمـــا نحن فيه من نبو الديار والجلاء عن الاوطان وتغول الزمان ونكبات السلطان وتغير الاخوان وفساد الاحوال وتبدل الايام وذهـاب الوفر والخروج عن الطارف والتـــالد واقتطاع مكاسب الآباء والاجداد والغربة في البلاد وذهاب المـــال والجاه والفكر في صيانة الأهل والولد واليأس عن الرجوع الى موضع الاهل ومدافعة الدهر وانتظـــار الاقدار لا جعلنا الله من الشاكين إلا اليه وأعادنا الى افضل ما عودنا وان الذي أبقى لأكثر ممـا أخذ والذي ترك أعظم من الذي تحيف ومواهبه المحيطة بنـا ونعمه التي غمرتنا لا تجحد ولا يؤدى شكرها والكل منحه وعطـاياه ولا حكم لنـــا في انفسنا ونحن منه واليه منقلبنا وكل عارية فراجعة الى معيرها وله الحمد أولاً وآخراً وعوداً وبدءاً وأنا أقول :

جَعَلْتُ اليأسَ لي حِصْناً وَدِرْعاً
فَلَمْ أَلبَسْ ثِيَابَ المُسْتَضَامِ

وَأَكْثَرُ مِنْ جَميعِ النَاسِ عِنْدي
يَسيرٌ صَانَني دُونَ الأَنَـــامِ

إِذَا مَا صَحَّ لي ديني وَعِرْضي
فَلَسْتُ لِمَـــا تَوَلَّى ذَا اهْتِمَامِ

تَوَلَّى الأَمْسُ والغَدُ لَسْتُ أَدْري
أَأُدْرِكُـــهُ فَفِيَما ذَا اغْتِمَامِ

جعلنا الله وإياك من الصابرين الشاكرين الحامدين الذاكرين آمين آمين والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كملت الرسالة المعروفة بطوق الحمامة لأبي محمد علي بن احمد بن سعيد ابن حزم رضي الله عنه بعد ...... اكثر اشعارها وابقـــاء العيون منها تحسيناً لها وإظهاراً لمحاسنها وتصغيراً لحجمها وتسهيلاً لوجدان المعاني الغريبة من لفظها بحمد الله تعالى وعونه وحسن توفيقه وفرغ من نسخها مستهل رجب الفرد سنة ثمان وثلثين وسبعمائة والحمد لله رب العالمين .

محتويات الكتاب

ABU - MUHAMMED - ALI - IBN - HAZM

AL - ANDALUSI

TAUK AL - HAMAMA



EDITIONS :

LIBRAIRIE AL - HAYAT

BEYROUTH





الثمن : ٥٠٠ ق.ل. او ما يعادلها